

منشورات وزارة الثقافة
الجمهورية العربية السورية

2002

سلسلة
الدراسات
التاريخية

المهندس آزاد أحمد علي

قرى الطّين

دراسة تاريخية - هندسية



أبو عبدو البغل

<https://facebook.com/groups/abuab/>

قرى الطين: دراسة تاريخية - هندسية/ آزاد أحمد علي . - دمشق:
وزارة الثقافة، ٢٠٠٢ - ٢٠٨ ص: مص؛ ٢٤ سم.

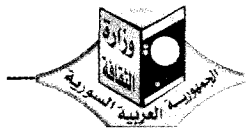
١- ٧٢٨٦٠٩٥٦١٣ ع ل ي ق ٢- ٣٠٧٧٠٩٥٦١٣ ع ل ي ق
٣- العنوان ٤- علي. مكتبة الأسد

الإيداع القانوني : ع - ٢٠٠٢/١/٨١

المهندس
آزاد أحمد علي

قرى الطين

دراسة تاريخية - هندسية



منشورات وزارة الثقافة
في الجُمهورية العربية السُوريّة
دمشق ٢٠٠٢

الفصل الأول

الأصول العمرانية لشمال سوريا

الإنسان القديم في المنطقة:

تشير البحوث الأثرية الحديثة إلى أن سوريا بموقعها الجغرافي - المناخي لعبت دوراً رئيسياً في التطور الحضاري لكامل منطقة جنوب غرب آسيا. إبان عصور ما قبل التاريخ. وفي هذا الصدد يقول أندرو مور: «فمنذ ما يقرب من مليون سنة وفد الإنسان الأول من أفريقيا إلى سوريا حيث استوطنها وقام في سوريا نشاط إنساني ملحوظ خلال العصر الحجري القديم الأوسط (٨٠,٠٠٠ - ٣٥,٠٠٠) سنة خلت»^(١).

وما يؤكد هذا القول هو وجود العديد من المواقع الأثرية لعصور ما قبل التاريخ في سوريا، التي تم فيها اكتشاف مخلفات حضارية تدل على نشاط الإنسان ومعيشتة داخل الكهوف. وفي العراء. وهي في الواقع تعود لأوقات زمنية أقدم بكثير. منها على سبيل المثال موقع «ست ملخو» في الساحل و«الطامنه» بوادي العاصي شمال حماه. بل إن بعض الباحثين يفترض أنه في العصر الحجري القديم الأوسط (٨٠ - ٣٥) ألف سنة سكن إنسان نياندرتال بكثافة في سوريا،

(١) أندرو. م. ت. مور - عصور ما قبل التاريخ في سورية. ترجمة: د. جاب الله، مجلة الثقافة العالمية، العدد ٤٦، الكويت، ١٩٨٩، ص ١١٠.

في الغابات والمرتفعات حتى أنه سكن بعض المواقع لمرات عديدة، خلال هذه العصور . مثل كهف «الدواره» قرب تدمر . وكهوف «بيروود»^(١) قرب النبك .

وثمة آراء أخرى تذهب إلى أبعد من ذلك . باعتقادها وجود نشاط إنساني مبكر في منطقة بيروود والكوم والزطيه تعود إلى حقب سحيقه في القدم من (٩٠-١٥٠) ألف سنة^(٢) .

ويشير شعث إلى أن إنسان ذلك العصر سكن المأوي الصخرية المنتشرة في سوريا، ومن أهمها، تدمر، كهف الدواره، بيروود، الكروم والمناطق المجاورة له مثل، تل عريضه، عين بيطار، حومال، قاعدة جبل الكوم، تل الجران، عين بني محيسن، جرن العجلة، وادي العاصي، قرر، عشارنه، لطامنه، غرماشي، محرده، رستن، حريصون، بالقرب من جبلة»^(٣) .

كل هذا يدل على وجود الإنسان وحضوره السحيق في سوريا، منذ فجر الخليقة هذا الوجود الذي يفترض حالة من الاستقرار النسبية التي ترتبط وتناسب مع طبيعة نشاط الإنسان . في تلك المراحل البدائية الغابرة، وبات واضحاً للمهتمين بشؤون استقرار الإنسان البدائي أن استقراره مرتبط عضوياً بوجود مقر، كمنزل أو محطة ثابتة . وثبتت الأبحاث الأثرية العديدة والمعطيات العلمية اليوم، أن الإنسان بدأ يتعلم الاستقرار مع بداية الاستعمالات الحجرية والقيام بالنشاط العضلي - العقلي . علماً أنه لو تفحصنا قليلاً تاريخ المجتمع البشري لوجدنا أن مسألة الاستقرار النسبية هذه ارتقت يوماً بعد آخر . فالإنسان البدائي مهما بلغت به الحاجة للتجوال وملاحقة رزقه، والإطباق على طريدته، كان لا بد أن يكون له وقت للراحة، ووقت للتوقف .

(١) ألفريد روست : مكتشفات مغاور بيروود، ترجمة : محمد قدور، تدقيق، د. سلطان محيسن، دمشق، ١٩٨٧، ص ١١٧ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣ .

(٣) شعث، شوقي - المسكن والمدفن في فلسطين وسورية منذ أقدم العصور حتى بداية العصر الهلينيستي . المسكن والمدفن في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٧، ص ١٨ .

ومهما بلغ بنا الخيال فلا يمكن إلا أن نتصور الإنسان البدائي بمداركه المحدودة يجلس أو يستلقي ليمضغ طعامه أو يشويه . ولربما كان يحتاج لوقت قصير في مكان خال ، في مكان مناسب ، لممارسة بعض حاجاته الغريزية وإشباعها .

فالاستقرار ملازم دائماً للإنسان ، ولكن بشكل متفاوت ، هذه النقطة بحد ذاتها تشكل أحد المحاور الأساسية لدراسة وتفهم آلية السكن ونمط العمران لدى الإنسان .

قد تكون الملاجئ الطبيعية : الكهوف ، الغابات الكثيفة ، الحفر ، البروزات الصخرية . . . هي المستقر الأول للإنسان ، حيث كان يحاول عن طريقها تأمين الحماية لنفسه من مؤثرات البيئة . وبالتالي التكيّف مع الطبيعة ، وكانت هذه الأماكن على الأرجح محطته الثابتة . يتجول بحثاً عن طريدة أو غذاء ومن ثم يعود إليها .

وثمة دلائل عديدة على ذلك ، كوجود مخلفات أثرية وعظام الإنسان من العصر الحجري في المواقع -المحطات الثابتة ، سواء كانت في السهول ، أو في الكهوف ، فإلى جانب تلك الكهوف التي ذكرناها في سوريا ، كان الإنسان يقطن في منطقتنا مجموعة من الكهوف في فلسطين وجبال زاغروس ، وخاصة كهف «شانيدار» .

ويبدو أن نشاط الإنسان العمراني شهد انعطافاً حضارياً مهماً ، إثر عملية الاستقرار الأخيرة ، خارج الكهوف ، والانحدار نحو السهول والعمل في الزراعة بصورتها الأولية . وبدأت مرحلة جديدة من تاريخ المجتمع البشري : «يبدو أن هناك منطقتين شهدتا نشاطاً حضارياً مثيراً للاهتمام خلال المدة التي تمت فيها القفزة نحو إنتاج القوت وتأسيس القرى الزراعية . كانت الأولى تشمل منحدرات ، وأودية جبال طوروس الشرقية وجبال زاغروس ، التي تغذيها عروق نهري دجلة وقارون . أما المنطقة الثانية فشملت البلاد المحاذية للشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط

الممتدة شرقاً حتى الفرات الأوسط»^(١). ويؤكد الفكرة ذاتها مور، إذ يقول: «كنا ندرك منذ وقت طويل، أن جنوب غرب آسيا كان مركزاً رئيساً لتطور زراعة محلية، ولكن تبين في الخمس عشرة سنة الأخيرة أن سوريا كانت واحداً من أهم مواطن هذا التحول... فقد بدأ بعض المجموعات يستقر وينشئ قرى في عدد من المناطق ذات الموارد الطبيعية الوفيرة، وكان في سوريا منطقتان، على الأقل، من هذا النوع وهما: وادي الفرات الأوسط، وحوض دمشق...»^(٢).

إن هبوط الإنسان من محيط الكهف إلى السهل الخصب بشكل دائم لم تتم بخطوة واحدة، وإنما تدريجياً. فالإنسان لم يتغلب على خوفه من المجهول، وارتياذ الجديد إلا بعد صراع طويل، وبالنسبة لبحثنا هذا، ما يهمنا بشكل أساسي، هو خطوات الإنسان الأولى على الصعيد السكني-العمراني، فوجود مصاطب على المنحدرات الجبلية، وأمام بوابات الكهوف مسألة في غاية الأهمية. هذه المصاطب التي قد تكون شكلت في الواقع جسر عبور من الكهوف إلى المسكن المستقل الأول في العراء: «لم يكن العيش في الكهوف يقتصر على حدود المساحة اللازمة للسكن بل كان يمتد إلى خارج نطاقها، أي نحو الخلاء، فهناك شرفات صغيرة ما تزال عليها بصمات سكن الإنسان ظهرت في موقعي أم الزويتية وطور أبو سيف في الضفة الغربية، كما في جبال الكرمل وجبال الساحل الفلسطيني وهناك شرفة مساحتها ٥٠٠م^٢ تمت بعد تسوية ترابها أو نحت صخورها وإقامة تصويته من كتل الحجارة الكبيرة حولها ظهرت في موقع الواد. أما في موقع شقبة وهايونيم فقد ظهرت شرفة بلغت مساحتها ١٠٠٠م^٢ تقريباً. كما ظهرت شرفة مماثلة في موقع وادي الفلاح أيضاً، لكن يبدو أن كهف كبارة وحده لم يعرف مثل هذه الشرفات المتسعة وقد يرجع سبب ذلك إلى أن الكهف واسع المساحة،

(١) ر. ج. بريدوود-الوحدة الحضارية في بلاد الشام ٩-٨ آلاف قبل الميلاد، د. جاك كوفان، تعريب: قاسم طوير، من التقديم، ص ٥.

(٢) اندرو. م. ت. مور-عصور ما قبل التاريخ في سورية، مرجع سابق، ص ١٢٠-١٢١.

فمساحته تصل إلى ٢٠٠م^٢ وهي مساحة كبيرة للسكن . ومثل هذه الكهوف المتسعة نجدها في يبرود ، حيث أن باستطاعة مجموعة بشرية أن تنمو بارتياح دون أن تفقد مزايا الحماية الطبيعية التي يوفرها الكهف نفسه»^(١).

قد تكون هذه المصاطب التجربة الأولى للاستقرار في العراء ، سواء ، في ساعات النهار أو الليل . ولا بد لنا أن نتخيل درجة خوف الإنسان الأول من هذه المغامرة . فقد تعودوا بالاحتماء بالكهف ، ولذلك قد يكون وجود حفر دائرية في هذه المصاطب تعويضاً عن فقدانه الكهف ، كفجوة - فراغ طبيعي يحيط بالإنسان ويحميه من المحيط . بكل ما فيه من المؤثرات والمخاطر الواقعية منها والخرافية .

المأوى والمسكن الأول:

إن البحث عن الجذور الأولى للمساكن في المنطقة المعنية ببحثنا يظل مهمة صعبة . فالمعطيات العلمية على الرغم من تقدمها قليلة ، ومن الصعب أيضاً متابعة كل ماصدر ويصدر بهذا الصدد . لذلك وفي هذه الحالة لا بد من شيء من الافتراض ، كما لا بد لنا من أن نرمم الفجوات المعرفية لدينا والحلقات المنطقية لتسلسل الدلائل بالافتراض العلمي والمنطق السليم .

إن المسكن الثابت الأول المتجسد في الخلاء ، الذي يحدد فراغاً داخلياً متكيفاً مع الوظائف التي أرادها الإنسان لم يظهر بصورته الكاملة البدائية . فالمنزل الأول الذي يشكل اللبنة الأساسية للتجمعات والمستقرات السكنية الأولى لا يمكن تحديد صفاته نظراً لضعف مواد الإنشائية . وبسبب البدائية المفرطة لشكله ، لذلك يعتقد كوفان ، أنه خلال المرحلة الأولى من العهد النطوفي لم تكن هناك منازل بالمعنى الحقيقي للكلمة : «ترك الإنسان النطوفي في موقع أريحا بالضفة الغربية بصمات خطظه ، لكن لا أثر لوجود بيوت بالمعنى الصحيح»^(٢).

(١) جاك كوفان - الوحدة الحضارية في بلاد الشام ٩ - ٨ آلاف قبل الميلاد ، ترجمة : قاسم طوير ، دمشق ، ١٩٨٤ ، ص ٢٢ .

(٢) ج . كوفان - المرجع السابق ، ص ٣٦ .

وإذا عدنا إلى ما قبل هذا العهد بكثير، نجد أن الإنسان كان يتجول في العراء، ويقضي أوقاتاً طويلة في منطقة معينة، ويقيم فيها بصورة مؤقتة وربما أنشأ لهذا الغرض، منشآت خفيفة، مثل أرض تم تسويتها أو حفرها وتسييجها. أو استقر إلى جوار كتلة مخربة مع بعض التعديلات التي أدخل عليها. بحيث أنها لم تجبره على الارتباط طويلاً مع المكان -الموقع. وفي الوقت نفسه أدت وظائفها في الحماية من المؤثرات المناخية. وكانت أيضاً علامة مميزة للعودة إليها. فتحول مع الزمن إلى معلم مهم، أصبحت له دلالة نفسية.

لعلنا نستعين هنا ببعض المعطيات الأثرولوجية، ونستفيد من التزاوج بينها وبين معلوماتنا الأثرية: «هناك قبائل أخرى من المستوى الحضاري نفسه تعيش خلف واقبات الريح التي تعد أقدم (البيوت)، في المناطق الدافئة، هي التي استخدمها معاصرو إنسان الكهف في العصر الحجري القديم، إلى أبعد الحدود للسكن، وبالطبع لم تستطع مادة البناء فيها... أن تصمد آلاف السنين -اكتشف واحدة في الألزاس... تتألف واقية الريح من جذوع وأغصان وقشور الشجر التي تغرز إما بشكل مستقيم أو دائري في الأرض، وبإضافة العشب والشوك والطحالب وغيرها. تغطي بإحكام لتصبح كتيمة وبالتالي واقية من الرياح والمطر... وتشكل واقية الريح مسكناً لشعوب الالتقاط والقنص، التي تضطر بسبب نمط حياتها الاقتصادية، إلى التنقل والترحال فوق مناطق مترامية الأطراف، كالشعوب الاسترالية والتسمانية المنقرضة، والبوشمن في أفريقيا وبعض الهنود الحمر في الأمريكيتين^(١)».

ويبدو أن السكن في منطقتنا تعرض لدورات متكررة داخل وخارج الكهوف، فبالنسبة للسكن في العراء تشير بعض المعطيات، أن للمناخ دوراً أساسياً في ذلك، من طبيعة الطقس إلى مواسم الأمطار ودرجات الحرارة.

(١) يوليوس ليس -بدايات الثقافة الإنسانية «في أصل الأشياء»، ترجمة: كامل اسماعيل، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٨، ص ٢٤.

وثمة رأي مفاده أن السكن في البدء كان في العراء، ومن ثم دخل الإنسان الكهف، قبل أن يخرج منه مرة أخرى في العصور المتأخرة. تحت تأثير جملة من العوامل أهمها المناخ، عن ذلك يقول روست: «انتهى السكن - كما يبدو - في العراء مع نهاية العصر الآشولي الحديث في هذه البقاع الجبلية لأنني لم أتمكن من تحديد موقع سكني مفتوح موسستيري أو أورينياسي في سهل النبك أو على الهضبة أو المناطق الأخرى التي زرتها بينما توجد هذه الحضارات بكثافة في المغاور»^(١). ويضيف روست: «ومن المميز لحياة إنسان الحضارات الآشولية أنه على الرغم من تكرار زيارته إلى المناطق المحيطة ببيرو لم يتعود إلا نادراً السكن في المغاور... وإذا أردنا عقد مقارنة عددية بين الطبقات الخمس الموجود فيها فؤوس يدوية في الملجأ وبين مواقع العراء تكون النتيجة مئة إلى واحد... ومما لا ريب فيه أن لمثل هذه الأرقام قيمة محدودة لكنها تثبت مصداقية القناعات التي اكتسبت من المناطق الأخرى، القائلة بأن إنسان العصر الجليدي الفاصل الآشولي مختلف عن إنسان الحضارة الموسستيرية والأورينياسية في العصر الجليدي المحب لحياة المغاور. قد اتخذ على الأقل في الصيف ونادراً فقط مأوي في المغاور أو في الملاجئ الصخرية»^(٢).

ولكن مور يطرح رأياً أكثر جرأة بصدد السكن الأول في العراء بوادي العاصي، إذ يقول: «وأفضل موقع معروف لنا من هذه المدة هو موقع اللطامنة بوادي العاصي إلى الشمال من حماه بقليل، وكان الموقع مأهولاً لمدة وجيزة منذ حوالي (٢٥٠) ألف سنة مضت، وقد أمدنا بشواهد ثمينة عن حياة الإنسان الأول، منها أرضية معيشة وجدت فيها كتل حجرية عديدة، ربما كانت في الأصل أساسات لمصدات الرياح، ولا يستبعد أن يكون بعض الأحجار قد استخدم كمقاعد للجلوس»^(٣).

(١) الفرد روست - مكتشفات مغاور بيرو، مرجع سابق، ص ٤١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤.

(٣) أندروت. مور - عصور ما قبل التاريخ في سوريا، مرجع سابق، ص ١١٧.

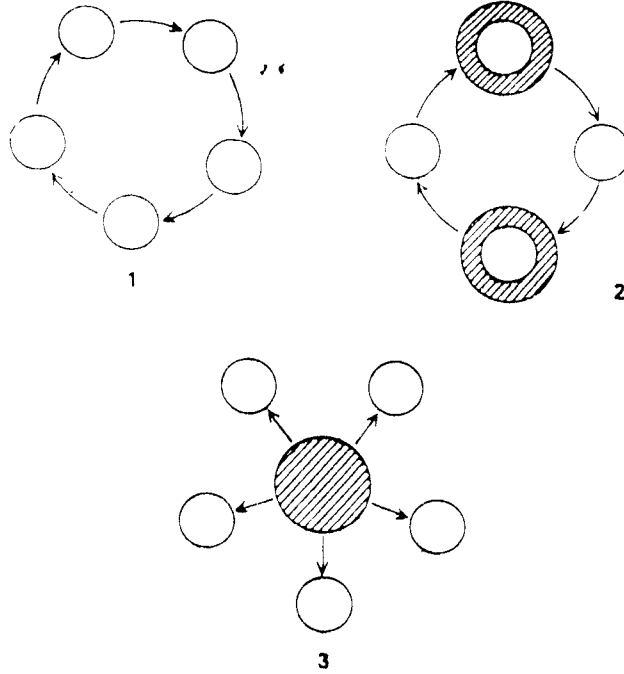
ما يهمننا أكثر من كل ما سبق، هو أن عملية السكن في الخلاء في العصر الحجري الحديث مرت بمرحلة نصف ثابتة، فالجماعة البشرية كانت تغير موقع سكنها من مدة لأخرى، وهذا مرتبط بعملية تأمين الغذاء والطابع العام للمعيشة، وبالتالي كانت عملية الاستقرار تتبع وتتفاعل مع نمط معيشة الجماعة البشرية. كانت الأبنية في تلك المرحلة مؤقتة وخفيفة من حيث البنية الإنشائية. وقد تكون هذه الحالة استمرت لعدة آلاف من السنين. إذ أخذت المسألة على الصعيد التاريخي العام للعمارة. في حين أنها استمرت حتى الوقت المعاصر في العديد من أصقاع العالم والمنطقة. لدى الشعوب والقبائل التي تعتمد في معيشتها أساساً على الرعي والصيد. ويذكر لنا جيمس ميلارت، حالة نموذجية لتجمعات شبه مستقرة في المنطقة: «أنه بين عامي (٥٥٠٠ - ٦٥٠٠) ق.م كانت هناك تجمعات سكنية شبه مستقرة في لورستان شمال الخليج العربي في موقع تبة كوران وكانت عبارة عن مخيم شتوي مؤلفة من أكواخ خشبية وكل كوخ مؤلف من غرفتين أو ثلاث بجدران مستقيمة أو منحنية في حين كان موقع الموقد خارج الأكواخ»^(١).

التجمعات السكنية الأولى وتشكل القرى «شمال سوريا نموذجاً»:

اضطر الإنسان إلى الارتباط برقعة محددة من الأرض بعد أن طال انتقاله من مكان إلى آخر معتمداً في معيشتة على الصيد والتقاط الغذاء البري، سواء أكانت طريقة الانتقال دائرية، أم شعاعية، في حالة المستوطنات الموسمية والمؤقتة والذي وضع هذا التصور هو العالم مورتنس: «حيث يكون في الشكل الدائري توقف الجماعة البشرية أثناء اغترابها السنوي داخل المعسكر - المستوطنة أطول زمناً وأفضل تنظيمًا، ولعل أبسط صيغة لها هو تناوب المكوث بين الصيف والشتاء. أما الشكل الشعاعي فيعتمد على وجود معسكر مركزي تنطلق الجماعة البشرية منه في اتجاهات مختلفة بحثاً عن الغذاء ومن ثم العودة إلى المعسكر نفسه»^(٢). الشكل (١ - ١).

(١) جيمس ميلارت - James Mellaart. the Neolithic of Near East. London, 1975

(٢) ج. كوفان - الوحدة الحضارية في بلاد الشام، مرجع سابق، ص ٢٥.



الشكل (١-١)

نماذج مستوطنات ما قبل التاريخ، عن كوفان، وضع التصور العالم مورتنس على الشكل التالي:

- ١- النظام الدوراني للتجمعات السكنية غير المستقرة.
- ٢- النظام الدوراني، صيفي وشتوي.
- ٣- النظام الشعاعي حيث وجود معسكر سكني مركزي.

وعلينا هنا أن نقر في البداية أن مسألة سكن الإنسان واستقراره، التي تعود إلى عوامل اجتماعية، هي في الجوهر مرتبطة بنمط حياته، وبالتالي علاقته ببني جنسه من جهة، وبالطبيعة المحيطة من جهة أخرى. لذلك لم يأت قراره

بالاستقرار، وبناء المساكن فجأة، كما تمت الإشارة إلى ذلك سابقاً، بل فرضته ظروف معيشتته وتطوره المفكري والاجتماعي، علماً أن عملية الاستقرار وبناء المسكن والارتباط بالمكان، ساهمت هي بدورها في التأثير من جديد على عملية تطور الإنسان الفكرية والاجتماعية والنفسية.

ولحسن الحظ فإن واحدة من أقدم تلك التجمعات السكنية، قد اكتشفت في رقعة من الأرض تمثل محور جغرافية بحثنا. وتنتمي بجذورها إلى الحضارة النطوفية من (١٠٠٠٠ - ٨٣٠٠) سنة قبل الميلاد. هذه التجمعات تشكلت على أساس عمل محلي وبالإرتباط بهذا العمل صيد من بحيرة أو نهر. وهي حكماً تتطلب الاستقرار والثبات في حالة العمل بالزراعة. إننا نصادف لدى الباحثين إجماعاً على ربط الاستقرار العمراني بالزراعة، بل يعطي أغلبهم للماء والزراعة الدور الحاسم ليس في الارتقاء السكني - العمراني فحسب، بل في ارتقاء الإنسان نفسه: «إن أكبر خطوة في ارتقاء الإنسان تكمن في انتقاله من مرحلة البداوة إلى مرحلة الزراعة وتأسيس القرية، ولكن ما الذي جعل ذلك ممكناً؟ إنه بالتأكيد عمل إرادة وعزيمة أكيدتين من الإنسان، ولكن - مع ذلك كان هناك تصرف غريب خفي من جانب الطبيعة فمع ازدهار الخضرة والنباتات، فجأة في نهاية العصر الجليدي، ظهر قمح هجين في أماكن عدة من منطقة الشرق الأوسط، وأحد هذه الأماكن النموذجية كان الواحة القديمة في أريحا»^(١).

ويؤكد مور أيضاً هذه الأهمية التي تلعبها الزراعة فيقول: «وهكذا كانت نشأة الزراعة شرطاً ضرورياً لقيام المدنية، وبناء على هذه التطورات الحاسمة فإن بداية الزراعة تفصل بين عالم أسلافنا في العصر الحجري القديم وبين وجود الراهن، وهنا تكمن أهمية الزراعة... كنا ندرك منذ وقت طويل، إن جنوب غرب آسيا كان مركزاً رئيساً لتطور زراعة محلية، ولكن تبين في الخمس عشرة سنة

(١) جاكوب برونوفسكي - ارتقاء الإنسان - ترجمة: د. موفق شخاخيرو، مراجعة: زهير الكرمي. الكويت، ص ٢٠.

لأخيرة أن سوريا كانت واحداً من أهم مواطن هذا التحول . . . فقد بدأت بعض مجموعات تستقر وتنشئ قرى في عدد من المناطق ذات الموارد الطبيعية الوفيرة، وكان في سوريا منطقتان، على الأقل، من هذا النوع وهما، وادي الفرات الأوسط، وحوض دمشق^(١).

ومن الملاحظ أن هذين الباحثين يجدان أن الماء والزراعة، يخلقان الحضارة ولا نخالفهما من حيث المبدأ، في دور هذين العاملين في الاستقرار وتشكل القرى، بل حتى في رقي درجة التفاهم بين البشر، ونشوء التعاون الاجتماعي بشكله المبسط.

وبهذه المناسبة لا بد لنا من أن نعيد النظر في مصطلح القرية أو القرية الزراعية، فإذا عدّها المؤرخون تلك التجمعات السكنية الأولى، البسيطة العشوائية، فلا بد من شيء من التحفظ عند إضفاء صفة «القرية» على هذه تجمعات السكنية. فهي غير متخصصة في الزراعة حصراً، بل كانت حينئذ تمثل ذروة النشاط الإنساني الواعي على الصعيدين الفردي والجماعي، إذ كانت هذه تجمعات عبارة عن وعاء يضم كامل ذخيرة وخبرة الإنسان إلى ذلك الحين، . . . يبدو أن الأمر يختلف تماماً عندما يتعلق الأمر بالقرية الزراعية التي ظهرت لتوجد في العصر الحجري، فمثل تلك القرية مستوطنة ثابتة فوق بقعة من الأرض وكانت تعيش فيها جماعات بشرية تقطن البيوت المشيدة، وتنتج الغذاء، تعرف الصناعة، مثل شظف الصوان، وصقل الحجارة، وتشكيل الفخار، وتمارس، كما يبدو لنا عبادة دينية لها طقوس ومناسك معينة^(٢).

لذلك فضل العديد من علماء ما قبل التاريخ استخدام كلمة «معسكر راسخ» لوصف ذلك التجمع العشوائي من الأكواخ والبيوت بدلاً من كلمة «قرية» ومنهم كوفان.

(١) اندرو مور - عصور ما قبل التاريخ في سورية، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٢) ج. كوفان - مصدر سابق، ص ٧.

يبدو أن إشكالية عدّ التجمع السكني قرية أو معسكراً هي قضية وظيفية، أكثر مما هي إشكالية تطرح نفسها داخل المفاهيم والأطر المتعلقة بمادة من المواد الإنشائية أو عدد السكان، ودرجة استقرارهم، على الرغم من أهمية هذه الأخيرة. فالقرية عضو في جسد مجتمع عمراني - حضاري مبني على أساس توزيع وظيفي للتجمعات السكنية، والقرية هي في الحقيقة العضو الأصغر والأكثر التصاقاً بالأرض والزراعة، بالمحيط والبيئة، والمتفاعل معهما.

في حين نجد أن كامل نشاطات المجتمع محصورة في هذه التجمعات البدائية. فشمولية الوظائف الملقاة على عاتقها لا تؤهلها لتكون قرية بالمعنى الراهن للكلمة. ولذلك يمكن عدّها الأصل المشترك للقرية والمدينة على السواء.

وهذه المناقشة تحثنا على البحث عن بداية ظهور القرية في التاريخ بشكل عام، وفي نطاق بحثنا بشكل خاص. علماً أن البحث في هذه القضية لا يعدّ من صلب موضوعنا. وربما تعالج بصورة أفضل ضمن إطار علم الاجتماع العمراني، وأن معرفة زمن ومكان نشوء القرية بالتحديد - بالإضافة إلى صعوبته - لا تفيدنا كثيراً في دراستنا. ولا تؤثر في موضوعها الهندسي بشكل رئيسي. ومع ذلك وللدقة العلمية والأمانة في البحث. لا بد من إبداء بعض الملاحظات في هذا المجال، لتجنب الوقوع في التعميمات، وللوصول إلى تدقيق المصطلح وتحديد.

لا أحد يستطيع أن يحدد جازماً متى نشأت أول قرية في التاريخ. لأن معرفة أول قرية تستلزم بالضرورة معرفة أول مدينة أيضاً. لأنه لمعرفة القرية لابد من معرفة ما يوازيها - كقطب آخر - في النظم العمرانية. فطوال التاريخ المدون وحتى يومنا هذا لم يعرف العمران سوى شكلين أساسيين من التجمعات هما: القرية والمدينة. كقطبين متباينين في هذا النظام، على الرغم من الوجود الدائم لنوع من التدرج بينهما كالبلدان والقصبات وسواهما.

ومن المؤكد أنه لم تعرف المدينة إلا بعد معرفة القرية، وإن التعريف الاصطلاحي لكليتهما يعتمد على مقارنة العناصر المتباينة بينهما، فتشكل الواحد مرجعاً معيارياً للآخر.

كما أننا نلاحظ في سياق تطور المجتمع البشري، أنه قد تم التمايز بين أفراد المجتمع الذين كانوا متساوين إلى حد ما، في المكانة الاجتماعية. فلا أحد يستطيع الجزم، وتحديد الزمن الذي تم التحكم فيه بمجموعة من الأشخاص من قبل شخص واحد، الذي برز كرئيس أو مالك للعبيد، أو قائد مجموعة قنص، واكتسب مكانة وسلطة في صيغها الجنينية.

كانت هنالك عملية أخرى مشابهة لهذه بالتوازي والترابط العضوي معها. حيث كانت تجري في عمق العملية التاريخية، تفاعلات وتنافس بين التجمعات السكانية ذاتها، إذا افترضنا أنها وحدات متكاملة ومتماسكة. وإزاء بساطة الاعتقاد السائد، حول نشوء المدينة من التطور الخطي للقرية. فإنه قد آن الأوان، وعلى ضوء الاكتشافات العلمية المعاصرة، لإعادة النظر في هذه الفكرة، للوصول إلى صيغة أكثر دقة وموضوعية. ويضع مؤرخ العلم جون برنال عدة احتمالات لنشوء المدينة، فعنده أهمها: اختزان فائض الإنتاج الزراعي فيها، ويضع احتمالاً لتجميع عدة قرى في مركز واحد كانت المدينة كمحصلة لعملية التجميع، وكذلك يعطي للعامل الديني دوراً مهماً في بروز المدينة. حيث لعبت المفاهيم الدينية دوراً في تنظيم الحياة الحضرية^(١).

ويمكن أن نضع تصوراً لنشوء المدينة والقرية كلتيهما، من التمايز الناتج بين التجمعات والمستوطنات الأولى، عبر سيورة تاريخية طويلة ومعقدة، ويفترض الباحث لذلك الصيغة المبسطة التالية: في الوقت الذي كانت إحدى التجمعات السكنية ولنطلق عليها «س» تبرز وتتطور بشكل أسرع، وتنمو بصورة أفضل، تحت تأثير شبكة من العوامل، من بين مجموعة من المستوطنات، في رقعة جغرافية محددة. حيث أثرت بتطورها هذا عكساً على الأخريات. وحاولت تجميدها ضمن

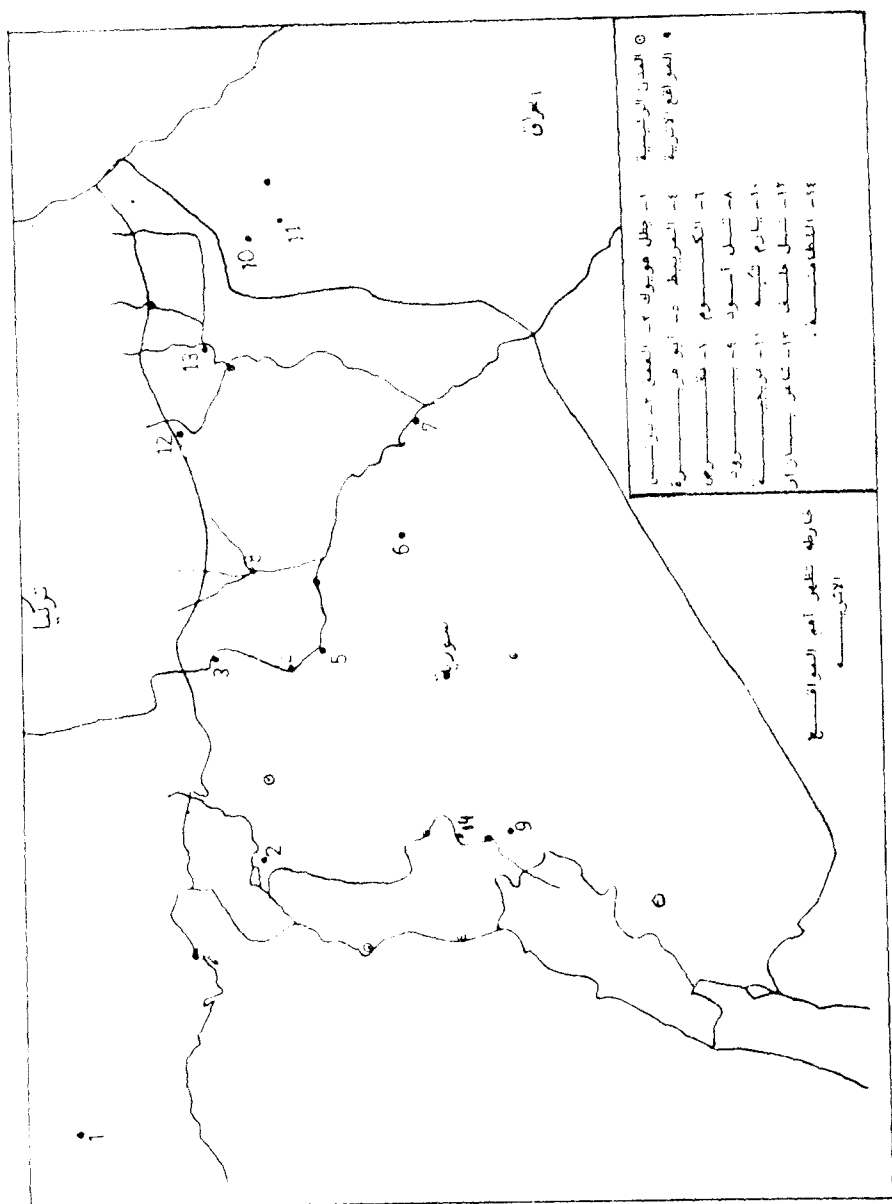
(١) جون ديزموند برنال - العلم في التاريخ، ترجمة: د. علي علي ناصيف، بيروت، ١٩٨١، ص ١/٢١١.

الأطر القديمة، وحدودها السابقة، بل لجمت تطور هذه المجتمعات المحيطة بها، من حيث التجديد واتساع رقعة المساكن . . . الخ. وكان التمايز بحد ذاته ناتجاً عن عملية استقطاب متعددة، للفعاليات البشرية الأكثر تميزاً، ودائماً بالارتباط مع التحولات الاجتماعية، وعملية تقسيم العمل داخل المجتمع، والتطور الفكري والثقافي والروحي الناتج عنه.

وكنتيجة لكل ذلك، تشكلت في رقعة جغرافية محددة، مجموعة من القرى ولتكن (ع، ص، ح . . .) بكامل طاقتها البشرية والاقتصادية مغذية لمركز حضري واحد: المدينة (س).

وبهذا الصدد يمكن استعراض بعض الآراء، يقول كافين رايلي: «لم يكن من الممكن أن تصبح القرى مدناً إلا بعد أن بلغت الزراعة درجة من الكفاية تففي بسد حاجة أعداد كثيفة من السكان، لا يضطر معظمهم إلى قضاء حياتهم في الحقول، ومن هنا فليس من قبيل المصادفات أن يعثر الأثريون على بقايا أول المحارث الثقيلة التي تجرها الثيران جنباً إلى جنب، مع أطلال المدن الأولى في كثير من المناطق التي نشأت فيها أولى قرى العصر الحجري الحديث ولكن بعد حوالي خمسة آلاف سنة»^(١). ويتابع رايلي التحدث عن تصوراتته لتحول القرى إلى مدن: «ولا يحتمل أيضاً أن تكون جميع القرى قد نمت بقدر يسمح لها أن تصبح مدناً، ونخطئ إذ حسبنا المدينة مجرد قرية متضخمة أو مكتظة بالسكان، فقد كان في العالم القديم قرى ضخمة جداً لم تتحول قط إلى مدن، ففي بعض المواضع ذات التربة الخصبة كانت القرية تففي بحاجة ألفين من أهلها، معظمهم من الفلاحين، فالقرى لم تتحوّل شيئاً فشيئاً إلى مدن ولكن قليلاً من القرى تشكلت وأصبحت أوائل المدن على الأرجح على أيدي الرعاة الغزاة من أراضي الكلا المحيطة. ويفسر هذا التغييب

(١) كافين رايلي - الغرب والعالم، ج ١، ترجمة: د. عبد الوهاب المسيري، الكويت، ٩١/٩٥



الشكل (٢-١)

المباغت، طابع المدن الأولي، ولا تزال المدينة تحمل طابع هذا التشكيل من عدة أوجه»^(١).

هنا نلاحظ شيئاً من التناقض في الأفكار، فالكاتب رايلي، يفترض أن نشوء المدينة جاء بعد خمسة آلاف عام من نشوء القرية الزراعية في العصر الحجري الحديث ونتجت المدن من القرى، على أيدي الرعاة الغزاة، ويحق لنا هنا أن نتساءل: لماذا لم يهاجم الرعاة في الآلاف الأربعة الأولى هذه التجمعات، لتتحول «القرى» إلى «مدن» حسب رأيه؟ . . . فإذا لم يكن الفلاح بعد مدة طويلة من العمل والاستقرار مهياً للتحول المديني، وإنشاء المدن، فكيف بالرعاة، ومن أين لهم هذه القدرة؟ لا شك أننا نصادف منطقاً مقلوباً. وربما حالة خاصة أوحى للكاتب كي يبسط هذا الافتراض.

هناك أفكار وفرضيات تتضمن احتمالات أخرى لنشوء المدن. التي بدورها تفيدنا في معرفة عوامل تبلور القرية تاريخياً: « . . . وكذلك ليس صحيحاً أن الثورة المدينية، بدأت في مكان واحد يقال عنه إنه -منطقة البؤرة- أو منطقة النواة، وكان بعض العلماء يعتقد أن السكان في بلاد ما بين النهرين، هم الذين ابتدعوا أول حضارة مدنية متصرفة بكل الصفات والخصائص المتصلة بذلك النوع من الحضارات، يعلم علماء الآثار اليوم أن أهم مميزات الحضارة السومرية -أي الهندسة المعمارية للأبنية الضخمة- كانت قد ظهرت في أماكن عدة أخرى من الشرق الأدنى. وتدل الاكتشافات الأثرية الحديثة على أن سومر لم تكن أول من أنشأ المدن واخترع الحضارة المدنية. بل على العكس من ذلك تدل تلك الاكتشافات على أن عدة حضارات في الشرق الأدنى، وفي بلاد ما بين النهرين وتركيا وغيرها، كانت قد طورت أنماطاً من الحياة الحضارية منذ (٥٥٠٠) سنة أي قبل نشوء حضارة سومر بخمسمائة عام. . . . وبعد أن طرحت جانباً كل تلك الآراء الخاطئة حول نشوء المدن، لم يكن غريباً أن تهاجم وتنقد بشدة الفكرة التي كانت تعد حقيقة لا يأتيها

(١) المرجع السابق، ص ٧٣.

الباطل كقدس من الأقداس ، وهي أن الزراعة نشأت أولاً ، ثم نشأت القرى الزراعية ، ثم تطورت البلدة ، وأخيراً المدينة ، وقد عدت تلك الفكرة أن الفلاحة هي التكييف الأساسي للإنسان وأن المدن ما هي إلا طفيليات تتطفل على الفلاحة ، ولا ننكر أن هذا كان بالفعل ما حدث في بقاع عديدة ، غير أن الحقيقة الغربية التي برزت الآن هي أن بعض المدن القديمة نشأت ونمت بعيداً عن المناطق التي تطورت فيها الزراعة»^(١) .

وباستعراض الآراء ، حول مفهومي المدينة والقرية وطريقة تشكيلهما يمكن التوصل إلى ما يلي : هناك نوع من الإجماع حول نشوء المدينة من القرية ، والاختلاف وظيفي وشكلاني وكذلك ظاهري بينهما ، لقد حاول الباحث التركيز على مفهوم المدينة وآلية تشكيلها على أساس أن نشوء القرية ارتبط بها في السياق العام لعملية تطور العمران التاريخية . يقول غولايف : «التعريف الدقيق لمفهوم المدينة نفسه هو المسألة الرئيسة ذات المغزى الحاسم بالنسبة إلى التمدن كله ، تتلخص المسألة الأكثر مدعاة للخلاف في الشيء الذي ينبغي عده رئيساً لدى تعريف مفهوم المدينة اتساعها أو بنيتها أو طابع الوظائف التي تؤديها»^(٢) .

ولعل التعريف الدقيق لكلمة مدينة أيضاً يساهم في الكشف عن درجة الاختلاف بين المدينة والقرية ، لذلك سنستعين بالباحث عبد الستار عثمان في هذا التعريف «أشار البحث اللغوي إلى أن كلمة مدينة ترجع أصلاً إلى كلمة «دين» وأن لهذه الكلمة بهذا المعنى أصلاً في الآرامية والعربية أي ذات أصل (سامي) وعرفت المدينة عند الأكديين والآشوريين بالدين أي (القانون) كما أن (الديان) يقصد بها في اللغة الآرامية والعبرية القاضي ، وإضافة إلى ذلك فإن مصدرها في الآرامية (مدينتا) وتعني (القضاء) وتوافق هذه التفسيرات ما ورد في القرآن الكريم والحديث

(١) بيتر فارب - بنو الإنسان ، ترجمة : زهير الكرمي ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص ١٣٧ .

(٢) غولايف - المدن الأولى ، ترجمة : طارق معصراني ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٨٩ ، ص ١١ .

النبوي الشريف، وما أشارت إليه بعض المعاجم العربية فقد وضح من التفسير القرآني أن كل المواضع التي أطلق عليها لفظ (مدينة) كان عليها حكام وملوك، وفيها على وجه التحقيق الصبغة القضائية والدينية والإدارية والسياسية، فجاء تمييز المدينة عن القرية في القرآن الكريم على أساس سمة التقاضي التي أشار إليها اللفظ الآرامي سلفاً^(١).

إذاً يمكن وضع تصور عام، على ضوء كل ما سبق: إن المدينة نشأت في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، في عدة بقاع من العالم. وخاصة في جنوب بلاد ما بين النهرين. ثم بدأت مرحلة تميزها التام عن القرية، وسيطرت عليها -إن جاز هذا التعبير- ويمكننا القول أيضاً بأن المدينة رافقت نشوء الحضارات المتطورة التي تم فيها التدوين وانقسام المجتمع اجتماعياً. ومنذ ذلك الحين أي منذ حوالي خمسة آلاف سنة تقريباً. تتعايش كل من المدينة والقرية، ولا يمكن للواحدة منهما الاستغناء عن الأخرى، لكونهما قد وزعتا الوظائف لاستكمال الواحدة لدور الأخرى.

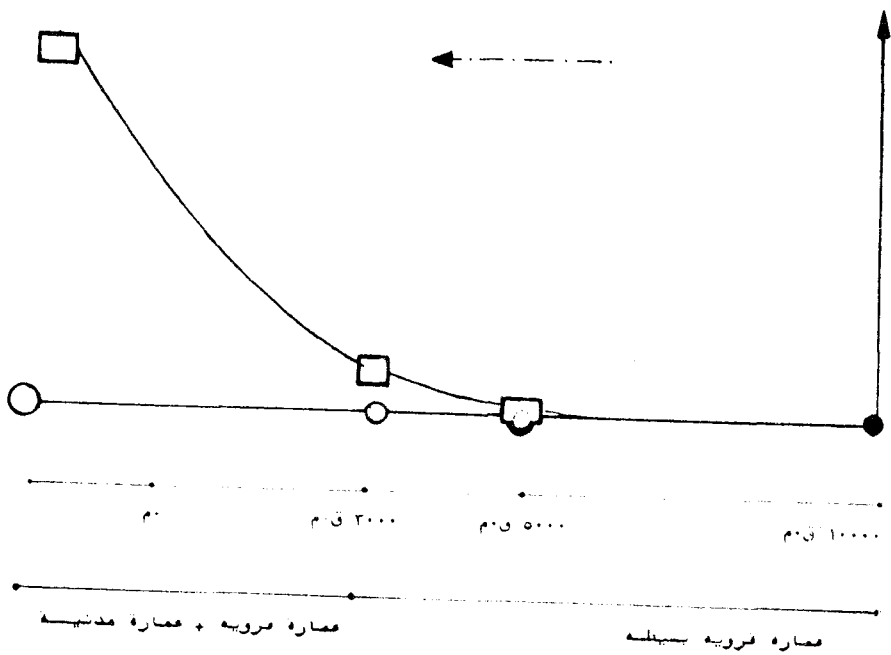
فإذا كانت المدينة بشكل عام هي: التجمع السكاني -العمراني الكبير، الذي يشكل مركزاً إدارياً وسياسياً، وربما دينياً، لرقعة معينة من الأرض، وكذلك التجمعات السكانية الأكثر صغراً، وحيث تتركز فيها الفعاليات الاقتصادية الأكثر تطوراً، كالصناعات والحرف، والتجارة. وتلك التي تعتمد في بنيتها الاجتماعية على الثقافة والكتابة والعلم، وتتجمع فيها المنشآت المعمارية الضخمة، والشوارع المنظمة، وتكثر فيها الخدمات الترفيهية. وفي المحصلة تشكل دائماً الوجه الأكثر تطوراً وطليلية في المجتمع. فإن القرية على العكس تقريباً هي: التجمع السكاني -العمراني الأكثر بساطة وبدائية، وسكونية في المجتمع. وتتألف من مجموعة من السكان، يعملون بشكل أساسي في الزراعة وتربية المواشي، وتفتقر القرية إلى التنظيم، وكذلك جملة من الخدمات والميزات التي تتوافر في المدينة بنفس الوقت،

(١) د. محمد عبد الستار عثمان - المدينة الإسلامية، الكويت، ١٩٨٨، ص ١٧.

وهي بشكل عام الجانب الأكثر ثباتاً في مواجهة المتغيرات . وخاصة في مجال البناء . ولهذه النقطة الأخيرة المتعلقة بعمارة الريف أهمية ، لمتابعة عمرها الحقيقي . وإلى أي مرحلة تعود كنمط أولي للبناء .

وعلى ضوء ذلك وإذا كنا قد حددنا تشكّل القرية ، في أزمان تعود إلى خمسة آلاف سنة كحالة عامة ، فهذا لا يعني أن عمارة مساكنها تبدأ من تلك الآونة ، بل أن القرية من الناحية المعمارية الصرف ، تعدّ الوريث الفعلي للعمارة البدائية العائدة لمرحلة ما قبل تشكّل المدينة والقرية . فإذا كان تطور وتشعب الوظائف وتراكم الخبرات في المجتمع يعطي حرفاً وصناعات واختراعات ، وبالتالي مساكن جديدة ومتطورة فإن كل ذلك كان يعود لصالح المدينة ويميزها . في حين احتفظت القرية بكل ما هو أولي وبسيط ، ويتجسد ذلك بشكل واضح في درجة اختلاف عمارتي المدينة والريف .

ولهذا السبب سنعدّ كامل تاريخ العمارة منذ نشوئها حتى عام ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، تاريخاً للعمارة الريفية القروية ، وهي بنفس الوقت التاريخ المشترك للعمارة ، في حين يمكننا بعد هذا التاريخ الاعتباري ، فرز العمارة دون تحفظ إلى ريفية ومدينة . ويتصور الباحث لعملية التقسيم هذه المخطط المبسط التالي : الشكل (١-٣) .



التطور النوعي للمعماره والخدمات .

التطور الحضاري العام / الزمن .

المدينه .

الريف .

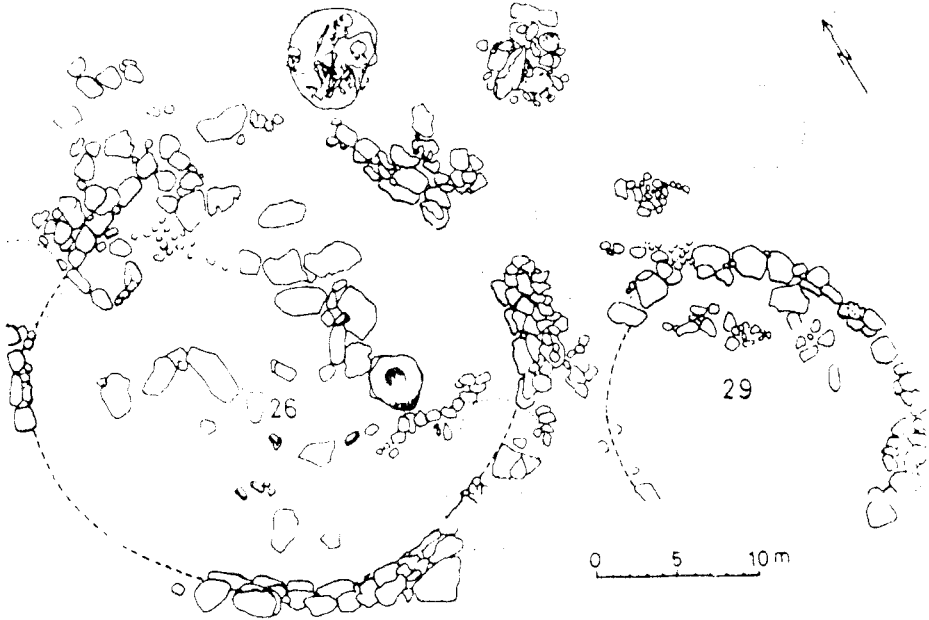
الجماعات السكانية الاولى .

الشكل (١-٣)
مخطط تمايز القرى والمدن

الفصل الثاني بدايات العمارة الريفية في شمال سوريا

أشكال العمارة البدائية:

كان لا بد من هذه المقدمة للتأكيد على مشروعية عدّ العمارة البدائية - القديمة
عمارة ريفية . وكذلك كان من الضروري التوضيح والمقارنة بين القرية



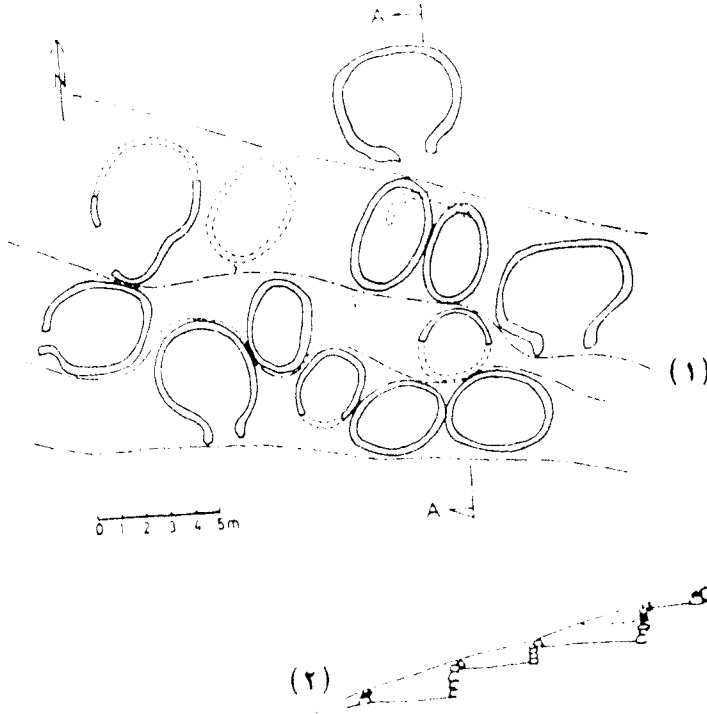
الشكل (١-٢)

مساكن نطوفية مستديرة من موقع عين الملاحه بفلسطين

والمدينة لتحديد وظائف القرية بشكل أكثر دقة على أساس أن العمارة مرتبطة بوظيفتها، وهي في المحصلة توضح وتجسد تلك الوظيفة، فمعرفة وظائف «القرية» تعطينا قدرة أكبر على معرفة وتحليل سمات عمارتها. فإذا كان هناك وريث لمجموعة المساكن الأولى فهي القرية المعاصرة وخاصة في نطاق خصوصية هذا البحث، وقبل أن نستعرض عدة نماذج من بدايات العمارة الريفية في المناطق الشمالية من سوريا، لا بد من لمحة عامة عن بدايات العمارة في المرحلة النطوفية، يقول كوفان: «تألف المواطن الثابتة من مجموعة من البيوت الدائرية، ويمكن عدّها معسكراً أو شكلاً أساسياً من أشكال الاستقرار الأول في الخلاء، بيد أنه يصعب علينا فعلاً أن نتصور الامتداد الفعلي لتلك «القرى» الأولى في تلك الحقبة من الزمان. . . ففي موقع عين الملاحه بفلسطين. . . لم يظهر حتى الآن إلا حوالي ٢٠ كوخاً مستديراً كان كل واحد منها مطموراً بالأتربة حتى نصفه فقط. . . وبما أن مساحة هذا الموقع الأثري تصل إلى ٢٠٠٠م^٢ فلا بد أن قرية كانت قائمة في هذا المكان وليس مجرد موطن لقلة من الناس. . . كشفت التنقيبات الأثرية في السنوات الأخيرة عن قريتين من قرى العصر النطوفي على شواطئ نهر الفرات وذلك في موقعي المربيط وأبي هريرة»^(١).

يتابع كوفان مبيناً أنه خلال الألفي سنة التي دام فيها العصر النطوفي لم يصبح من المستطاع متابعة مسيرة الإنسان بعد خروجه من الكهف بدقة. ويعتقد أن «القرى» النطوفية المتطورة التي تم اكتشافها، على ضفة الفرات وفي فلسطين ترقى إلى المرحلة المتأخرة من العصر النطوفي، لذلك يمكن التكهن بأن الإنسان خلال آلاف السنين لم يستغن تماماً عن الملاجئ الطبيعية من جهة، ولم يتمكن من إنشاء عمارة ذات مواصفات جيدة، ولم يتعد كثيراً عن تلك الملاجئ، حتى أن الإنسان في موقع (وادي الفلاح) بفلسطين بنى أكواخاً مستديرة نطوفية العهد، أمام الكهف مباشرة. الشكل (٢-٢)

(١) ج. كوفان - الوحدة الحضارية، مرجع سابق، ص ٢٣



الشكل (٢-٢)

- قرية وادي الفلاح في العصر الحجري الحديث السابق للفخار عن كوفان
- ١- المسقط الأفقي للأكواخ.
 - ٢- المقطع الطولي في الموقع.

إن ارتفاع العمارة النطوفية في حوض الفرات، كان في منتصف الألف الثامن قبل الميلاد حيث بدأت من حفر صغيرة محفورة في الأرض، أو منقورة في الصخر قطرها ٥, ٢ متر وعمقها ٧٠ سم في موقع أبي هريرة. ويعتقد أنه كان مسقوفاً بمادة خفيفة، في حين اكتشف منزل في المربيط دائري الشكل يبلغ قطره ٦ أمتار، وعمقه ٥٠ سم، وقد دعمت وجوه الحفرة من الداخل بسياج من سيقان خشبية مترابطة

والسياج نفسه مغطى بطبقة طينية تبلغ سماكتها ١٠ سم، بحيث يتكون حويط بالمعنى الصحيح^(١).

فهذه التغطية صفة تميز المساكن النطوفية الأولى، سواء كانت من الحجر أم من جذوع الأشجار والكساء الطيني، وقد يصادف وجود أرضية من الملاط الطيني، كما يفترض وجود تسقيف من مواد خفيفة لكنه يبدو أن الحائط لم يرتفع عن سطح الأرض. وثمة اعتقاد بأنها كانت منازل خشبية بالأساس. فبدايات القرية النطوفية في المريط وأبي هريرة على الفرات كانت مؤلفة من مجموعة من هذه المساكن الدائرية، ولم تكن هذه المساكن متلاصقة، وثمة آثار لمواقد النار خارجها وكذلك لصوامع الحبوب.

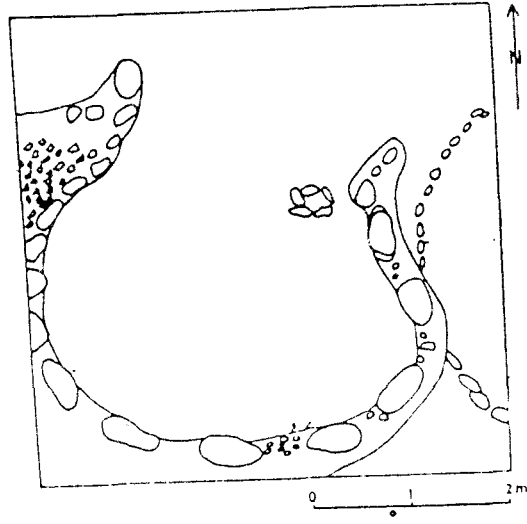
إن العمارة خطت خطوات متقدمة في الفرات الأوسط، خاصة في موقعي المريط والشيخ حسن، خلال السنوات الواقعة (٨٣٠٠ - ٧٦٠٠) ق.م وفي تلك الآونة بدأ الإنسان بشكل أولي في معالجة مادة البناء، وذلك بإدخال التعديلات عليها.

عمارة المريط:

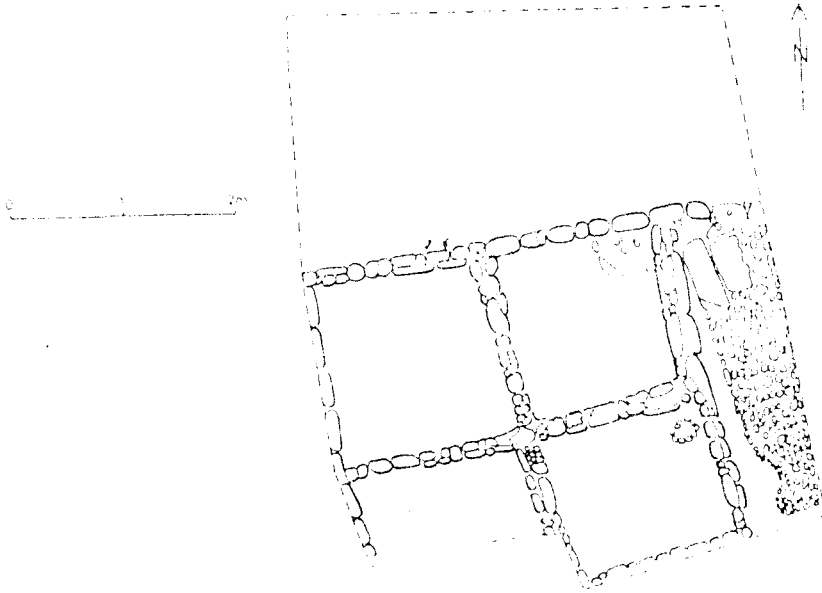
كان البيت النموذجي في المريط في تلك الحقبة مؤلفاً من كوخ بيضوي صغير قطره يتراوح بين (٣-٤) م، وكان الحائط الذي يحيط بدائرة المسكن هذه مشيداً من الطين، وأساسه على الغالب من أحجار مرصوفة ومتراصة بمونة من الطين، والأرضيات مؤلفة من حصيرة من الحجر فوقها طبقة أكثر نعومة، ومن ثم ملاط طيني^(٢). وهي ما تشبه تقريباً طبقة البلوكاج حالياً. والبوابة عبارة عن فتحة مع انعراج في محيط الحائط لتشكل شبه مدخل، وهذه المساكن كلها تفتقر للتقسيمات الداخلية باستثناء حالة واحدة مقسمة بحائط خفيف من جذوع الشجر إلى قسمين. شكل (٢-٣).

(١) ج. كوفان - مرجع سابق، ص ٣٧.

(٢) ج. كوفان - المرجع السابق، ص ٥١.



الشكل (٣-٢)
مسكن مستدير في المربيط (عن كوفان)



الشكل (٤-٢)
بنيان مربع في المربيط

وفي مرحلة لاحقة منزل كبير نسبياً، قطره ستة أمتار ومقسم إلى تسع حجيرات صغيرة تنفصل عن بعضها، بواسطة جدران صغيرة يتراوح ارتفاعها بين (٧٠-١٠٠) سم بسماكة ٢٠ سم مبنية من الحجارة أو جذوع الأشجار مع الملاط الطيني. وكان هذا المنزل مسقوفاً تسقيفاً مستوياً بالعوارض الخشبية والطين المدكوك^(١). انظر الشكل (٢-٥).

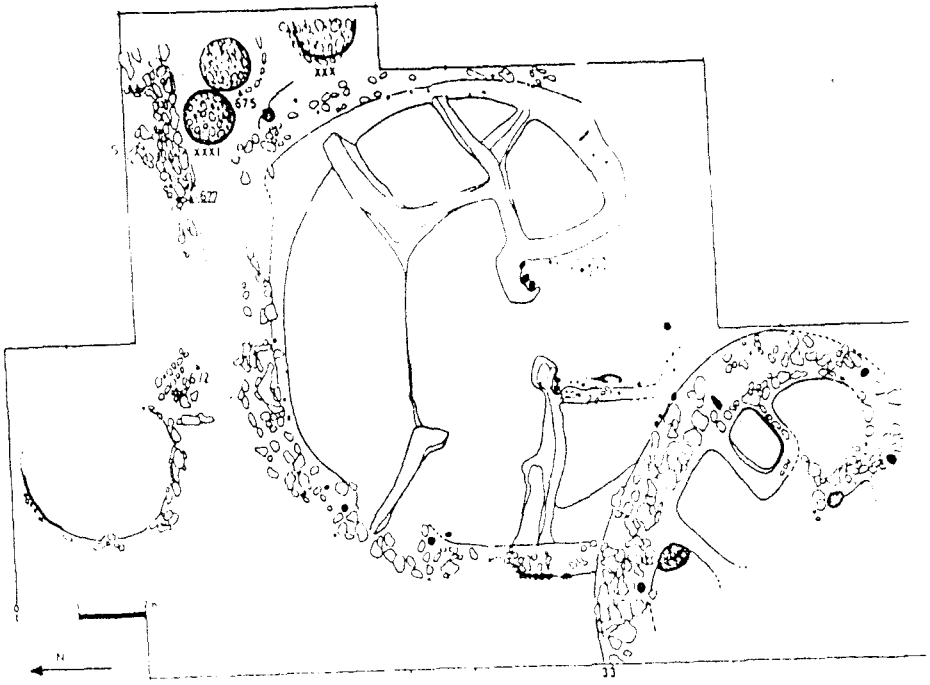
يعدّ هذا المنزل لأهميته، حلقة جديدة في سلسلة تطور عمارة حوض الفرات، شمال سوريا، بل أعطت مريبط دلائل قوية على الرقي في تكنولوجيا العمارة والبناء في الألف الثامن قبل الميلاد. لقد تم في تلك المرحلة قطع الحجارة الكلسية بشكل متطاوّل. واستخدام جذوع الأشجار شاقولياً وأفقيّاً في بناء الحيطان، وكانت المادة الرابطة غالباً هي مونة طينية، كل هذا يدل على أن الإنسان بدأ ينوع تقنية الإنشاء لديه ويطورها، خلال الألف الثامن قبل الميلاد، حتى عام (٧٠٠) ق. م. بحيث ظهرت المساكن المستطيلة في المريبط، وشمالها في موقع تل الشيخ حسن، وظهرت الجدران المبنية من الطين المدكوك مع التبن بارتفاع (١١٠) سم وسماكة (٢٠-٤٠) سم.

خلال هذه السنوات يبدو أن قرية المريبط كانت كبيرة، واسعة، وبيوتها متقاربة، إلا أنه لا دلائل على وجود أي تمايز وتقسيم وظيفي بين هذه الوحدات السكنية التي كان من المفروض لها أن تعكس تبايناً اجتماعياً أو وظيفياً، وربما لم تكن هناك في القرية أي دار للعبادة. علماً أنه اكتشف جدار مثبت عليه مجموعة من الجماجم البشرية، قد يكون جداراً لشكل بدائي من المعابد في المريبط.

٢- عمارة أبو هريرة:

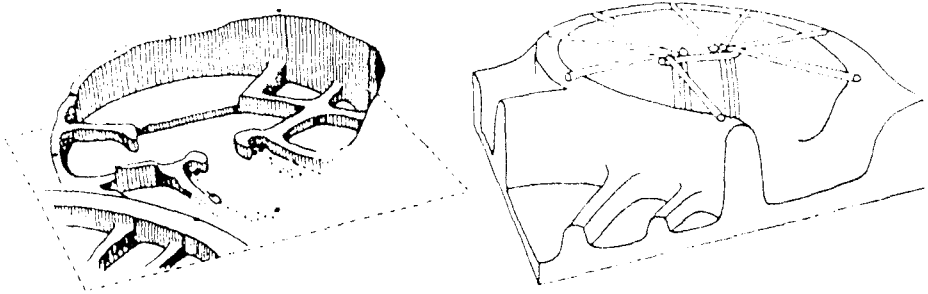
في نفس المنطقة أي حوض الفرات العلوي ظهرت مواقع سكنية متطورة، على رقعة واسعة من الأرض، ولعل أهمها على الإطلاق موقع أبو هريرة على

(١) ج. كوفان - المرجع السابق، ص ٥٣.



الشكل (٥-٢)

مسكن مستدير ذو تقسيمات داخلية في المربط



الشكل (٥-٢)

المسكن الكبير في المربط (عن كوفان)

شاطئ الفرات . ويبدو أن الحياة انقطعت فيه من العصر النطوفي وحتى الألف السابع قبل الميلاد، اتسمت هذه المرحلة بظهور المساكن المستطيلة بشكل أوسع، وتعدد المواقع السكنية وانتشارها كما في موقع تل أسود على البليخ، بقرص قرب الميادين ، الكوم بين الرقة وتدمر .

كان موقع «أبو هريرة» تجمعاً سكنياً كبيراً خلال الألف السابع قبل الميلاد وقد بلغت مساحته ١٢ هكتاراً تقريباً: «وظل اللبن مستعملاً في البناء، أما أبعاد المساكن فكانت مختلفة، وهي تتألف من عدة حجيرات مستقيمة الجدران وقائمة الزوايا . ويصل عدد الحجيرات في بعض المساكن إلى خمسة وطول الحجيرة الواحدة ضعف عرضها، ويحتوي المسكن على مصاطب منخفضة وأحياناً على حفرة موقد في وسط الحجيرة . الأرضيات مفروشة بالملاط الأسود وأحياناً تكون مدهونة باللون الأحمر . لم تكن المساكن متباعدة، بل على العكس متراسة حول ساحات أو أزقة»^(١).

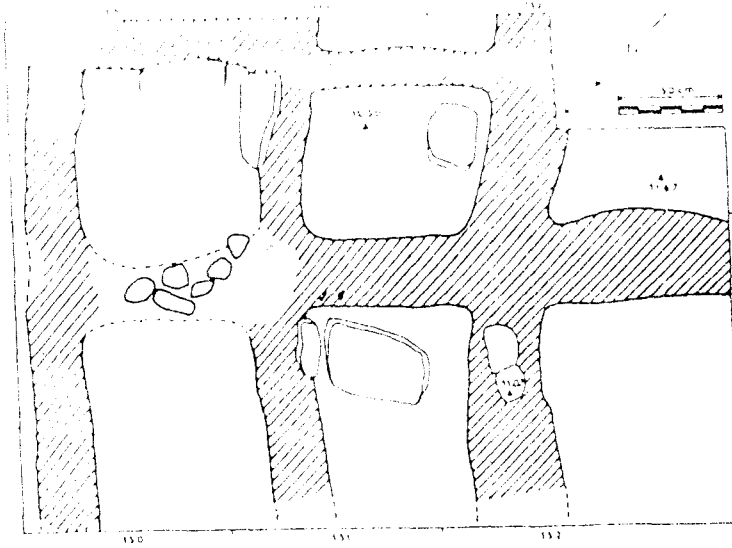
ويبدو أنه بُدئ باستخدام الجص وإنتاج اللبن المصنوع بالقالب، وتميزت قرى الفرات بكبر حجمها وأهميتها وخاصة «أبو هريرة»، وكذلك «الكوم».

ويشير أندرو مور إلى أهمية قرية المربيط الحضارية^(٢) لكونها قرية زراعية سبقت العصر الحجري الحديث، بل أنه يعدّها أكبر وأهم مستوطنة في شرق المتوسط تعود لمرحلة ما قبل العصر الحجري الحديث، حيث ظلت مأهولة طوال سنوات (٩٥٠٠-٧٠٠٠) ق.م^(٣).

(١) ج . كوفان - مرجع سابق، ص ٧٥.

(٢) أندرو مور - قرية زراعية سورية على نهر الفرات، مجلة العلوم، العدد/ ١٠ / تشرين الأول، ١٩٨٩، الكويت، ص ١٧.

(٣) أندرو مور - عصور ما قبل التاريخ في سوريا، ترجمة: د. جاب الله علي. الثقافة العالمية، العدد/ ٤٦ /، الكويت، ١٩٨٩، ص ١٢٠.



مسكن مربع في تل الشيخ حسن - على الفرات (عن كوفان)

عمارة تل حلف:

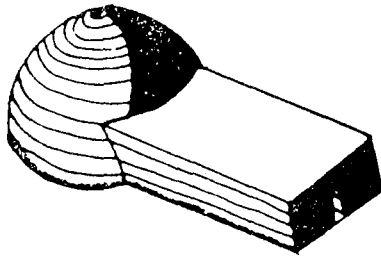
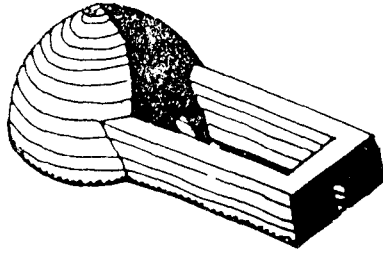
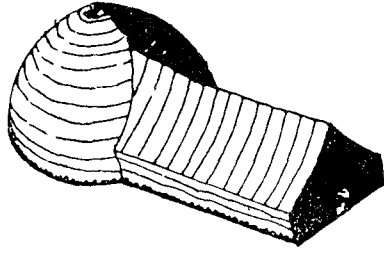
في نهاية الألف السادس وعلى تخوم الألف الخامس قبل الميلاد ظهر مركز حضاري مهم في منطقة شمال بلاد الرافدين بين الفرات والخابور في موقع تل حلف، وكان يتبع هذا المركز عدة مواقع حضارية أقل شأنًا في رقعة واسعة نسبيًا من الأرض. ويتضح ذلك من خلال جملة من المخلفات الحضارية وخاصة الفخار مميز لحلف، والتشابه في بنية وتصاميم المساكن.

ويبدو أن حضارة حلف المتطورة لم تكن وريثة الحضارة النطوفية في حوض نهرات مباشرة، نتيجة الفاصل الزمني الكبير بينهما، على الرغم من قرب المسافة، حيث سبقتهما في المنطقة أخريات. وربما تزامنتا في أواخر عهديهما، كحضارات لأناصول الجنوبي وسهل العمق غربًا، وجبال زاغروس شرقًا.

وبناء على العديد من المعطيات الأثرية وخاصة المعمارية والفنية، يمكن أن نستنتج أن حضارة حلف كانت نتاج تفاعل حضارات الفرات النطوفية، وحضارات الأناضول وربما زاغروس أيضاً، لقد تجسد تفاعل وانزياح هذه الحضارات في الخصوصية المحلية والنقلة النوعية لحلف. كحضارة جديدة ومتقدمة، إذ تطورت المواقع السكنية في حضارة حلف، وتمايزت عن التجمعات السكنية الأولى، لدرجة لا يمكن وصفها وتسميتها بالقرى. وإن لم يجرؤ بعض الباحثين على إطلاق صفة المدينة عليها. يقول غولايف بهذا الصدد «كانت المستوطنات لا تزال صغيرة وتمثل على الأرجح، بلداناً ريفية قبلية، بيد أن وجود الشوارع المرصوفة في عرججية -قرب الموصل- يشير إلى ما يشبه الأعمال الاجتماعية المشتركة، البيوت كبيرة، وهي أفضل مما في حسونه من حيث تكتيك البناء ولا جدال في أن أبرز نموذج لمنشآت السكن والعبادة في ذلك الوقت هي المباني الطينية المستديرة التي أطلق عليها اسم (ثولوسات) على غرار مدافن ميكين الأحدث عهداً، لقد عثرت على العشرات من الثولوسات الكبيرة والصغيرة لدى الحفريات في يارم تبه -قرب سنجار- وعرججية. إن حلف هي زمن قمة ازدهار الثقافات الزراعية المبكرة في شمال ما بين النهرين»^(١).

ويشير جيمس ميلارت إلى الرقي الذي وصلت إليه عمارة حلف فيقول: «إن فن العمارة الخاص بحضارة حلف في هذه المرحلة مشهور جداً حيث كانت القرى تتألف من منازل ذات غرفتين مبنية على امتداد طرق مرصوفة بالأحجار ويتألف المنزل من غرفة داخلية ذات قبة ضخمة وأمامها غرفة مستطيلة الشكل ذات سطح مثلثي، وكان لهذه الأبنية أساسات من الحجارة ولها بناء فوق مصنوع من سائد طينية لأن اللبن الطيني لم يكن قد عرف في منطقة بلاد الرافدين كما وجدت أفران الخبز والمواقد والمخازن في مستوطنة (تل طورلو) غربي نهر الفرات الأبر الذي يدل على أن هذه الأبنية كانت مخصصة للسكن ولم تكن أبنية دينية. أم في

(١) غولايف -المدن الأولى، مرجع سابق، ص ٤٣.



الشكل (٧-٢)

تصور لنموذج عمارة حلف المعروفة بالفتاح (عن عساف)

الأبنية المشابهة في تل العر بجية فالبيوت الكبيرة هناك كانت لها جدران تصل سماكتها إلى متر ونصف المتر، وكان قطر الغرفة المبنية على شكل قبة (١٠) أمتار بينما يصل طول الغرفة الخارجية ذات الرواق إلى (١٦) متراً أما الغرفة ذات القبة في تل يونس فكان قطرها (٦) أمتار فقط . . . لم يعثر على بيوت دائرية لا في كيليكية ولا في المنطقة السورية غربي نهر الفرات حيث استمرت الأبنية المستطيلة من المرحلة السابقة»^(١).

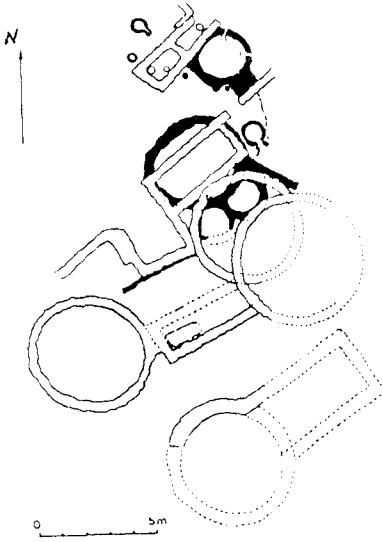
إن المعلومات المبينة أعلاه هي في غاية الأهمية، وكذلك تثير الجدل حول حقيقة وجود القبة الطينية في تلك الحقبة السحيقة من تاريخ العمارة. وخاصة إذا كانت القبة ذات قطر كبير مقدار عشرة أمتار. ومهما يكن فإن عمارة حضارة حلف هي إحدى المنعطفات المهمة في تاريخ عمارة المنطقة. ويعتقد ميلارت أن حضارة حلف هي حلقة الوصل بين حضارات الأناضول السابقة، وحضارات جنوب الرافدين اللاحقة. ويشير إلى أن الحرفيين والعمال المهرة انتقلوا من الأناضول إلى حلف. وثمة تأثير متبادل وتماثل للخبرات المهنية وخاصة المعمارية التي استمرت بعد اندثار حضارة حلف بين أعوام (٤٤٠٠ - ٤٣٠٠) ق. م في جيوب حضارية متعددة في مناطق تأثير حلف ومن ثم ظهورها في جنوب بلاد الرافدين. وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على التواصل والتناوب للمراكز الحضارية في المنطقة من مرحلة إلى أخرى.

لقد تركت حلف لنا نموذجاً فريداً من نوعه للعمارة، وتتمثل هذه الخصوصية في الدمج بين المنزل الدائري والمستطيل، كما في الشكل (٢-٧) والشكل (٢-٨).

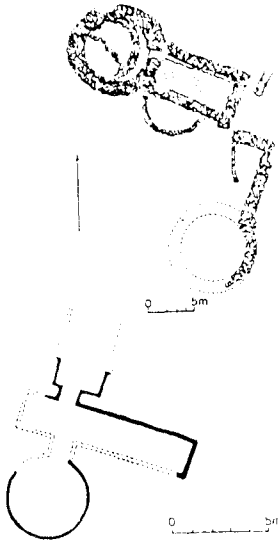
إن كثرة البيوت الدائرية في تجمعات مرحلة حلف تشجع المرء على الاعتقاد بأن هذه المنازل قد تطورت من المساكن الدائرية في حوض الفرات المنتمية إلى المرحلة النطوفية، ويشير الدكتور علي أبو عساف هذه القضية مؤكداً انتماء جذور

(١) جيمس ميلارت - أقدم الحضارات في الشرق الأدنى. ترجمة: محمد طلب، دمشق، ١٩٨٩، ص ١٦٠.

١- موقع يونس قرب جرابلس



٢- موقع عربجية شرق الموصل



الشكل (٢-٨)

نماذج من عمارة حلف - عن ميلارت

المساكن الدائرية إلى المنطقة وبشكل خاص حوض الفرات العلوي وشمال سوريا، فيقول: « . . . أما في شاغر بازار شمال الحسكة فقد بنيت جدران المساكن بقطع صغيرة من اللبن المجفف بحرارة الشمس ، وكان عرضها حوالي متر واحد والطبقة (٩) كشف على بقايا من البيوت التنورية الشكل (ثولوس) وهي تتألف من حجرة مستديرة سقفها قبة يتقدمها ممشى مستطيل الشكل . . . والآن وبعد اكتشاف أساسات البيوت المستديرة في تل الرماد والمريبط والتي تعود إلى العصر الحجري الحديث واكتشاف أساسات بيوت مستديرة ومستطيلة في موقع شمس الدين طنيرة على الفرات إلى الشمال من المريبط من هذا العصر ، أظن أن البيوت المستديرة ابتكار محلي ، استمر استعماله عدة قرون . ولم يأت إلى المنطقة من الخارج»^(١).

(١) د. علي أبو عساف - آثار الممالك القديمة في سورية (٨٥٠٠ - ٥٣٥) ق.م. ، دمشق ، ١٩٨٨ . ص ١٠٦ .

الفصل الثالث

تطور العمارة الريفية وتوزعها في الشرق الأدنى

التجمعات السكنية الأولى:

اتسمت العهود والأزمنة الواقعة بين (١٠ - ٦) آلاف قبل الميلاد بتشكيل التجمعات السكنية الأولى وبدأت بأكواخ دائرية على شكل حفر مبنية بمواد ثقيلة من الأسفل . وفي الغالب بمواد خفيفة من الأعلى . وتطورت هذه المساكن أولاً بتقسيماتها الداخلية وكبر حجمها ، ومن ثم ظهرت المساكن المستطيلة وأيضاً كانت مساحة التجمعات صغيرة في البدء (٢-٣) هكتارات كما في المريبط ، إلا أنها اتسعت فيما بعد كما في أبي هريرة (١٠-١٢) هكتاراً .

لقد كانت الحضارة النطوفية هي التي أنتجت هذه البدايات المعمارية ، لدرجة أن بعض الباحثين يعزو إلى هذه الحضارة بداية هندسة البناء ، يقول فرنسوا فالّا عن ذلك : « . . . إنما يمكن القول أن النطوفية القديمة ارتبطت بالتقليد ، طورت ووسعت المخططات الأولى التي وصلتها وأضافت إليها نماذج وتصاميم جديدة ، بحيث أنه إذا كان الكلام على الهندسة المعمارية ، في المراحل السابقة صعباً ، فإن الكلمة تصح تماماً على أعمال النطوفيين في مجال البناء»^(١) .

وإذا كانت الحضارة النطوفية نشأت في فلسطين ثم شاركتها تجمعات الفرات

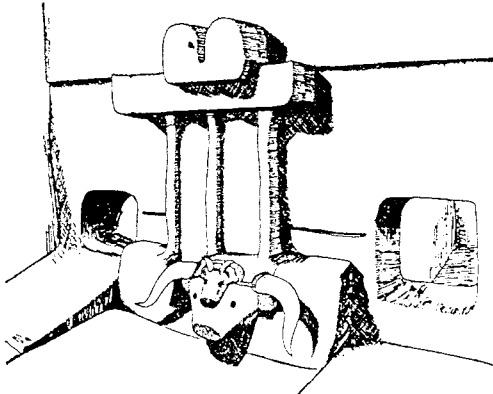
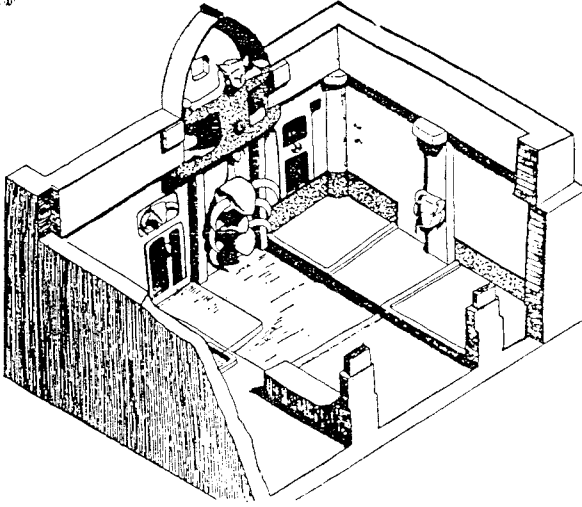
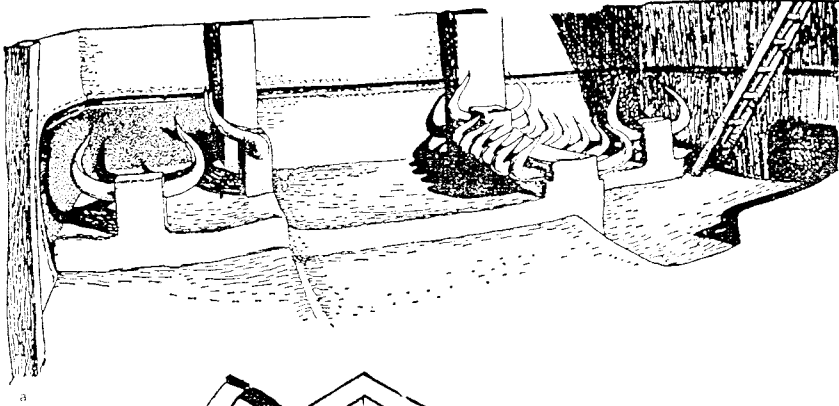
(١) فرنسوا فالّا . -بداية عملية التحضر في فلسطين، ت : جوزيف السمراني ، الثقافة العالمية ، العدد/٤٦ ، الكويت ١٩٨٩ ، ص ١٣٦ .

في البنية الحضارية، وبعد اندثار هذه الحضارة وفي العصر الحجري الحديث ظلت في المناطق المجاورة مراكز حضرية كبؤر واستمدت الكثير من خبراتها من سابقتها النطوفية، وقد تم ذكر بعضها في الفقرات السابقة. صحيح أن العمارة النطوفية تظل متميزة، ولكننا لانستطيع الجزم أيضاً بأنها أثرت في الحضارات المجاورة تأثيراً مباشراً. حيث تطورت هذه الأخيرة وحقت قفزة نوعية ربما بحكم التطور العمراني، التاريخي العام، ويبدو أنه لم تعد قرى الفرات هي الرائدة، وفي شمال سوريا وجنوب الأناضول، فقد أظهرت التنقيبات الأثرية مواقع أخرى. قلبت الكثير من الثوابت التاريخية، فعلى تخوم أعوام (٦٥٠٠ - ٦٦٥٠) ق. م ظهرت حضارة متقدمة مركزها جطل هويوك فلم تعد هناك تجمعات سكنية بسيطة فقط، وإنما ظهرت «بلدة» بكل معنى الكلمة يتراوح عدد سكانها بين (٥ - ٦) آلاف نسمة، وحولها مجموعة من القرى. كان في البلدة معبد، وثمة معطيات تبين أن هذه الحضارة اعتمدت في اقتصادها على الزراعة المروية^(١). تميزت عمارة جطل هويوك بمنازلها المستطيلة الغرف ذات المساحة الكبيرة نسبياً تقدر بخمسة وعشرين متراً مربعاً (٦×٤ أو ٥×٥) أمتار.

كانت المنازل مبنية من اللبن إذ يصفها ميلارت بقوله: «تتميز بإضافة غرف للخبز لكل بيت على طول أحد الجدران». كما وكانت التزيينات الداخلية تختلف وفقاً لمتطلبات الإضاءة بواسطة نوافذ صغيرة تقام في أماكن عالية من الجدران تحت الإفريز مباشرة، يتكون كل منزل من طابق واحد بارتفاع جدران المنزل وكان الدخول إلى المنزل يتم من السقف بواسطة سلم خشبي يوضع على الجدار الجنوبي، أما الدخان فكان ينفذ إلى الخارج عبر نفس فتحة الدخول الموجودة في السطح أو عبر النوافذ كما كانت بعض البيوت مزودة ببرج للتهوية أيضاً.

الاتصالات بين الناس كانت تجري فوق الأسطح المختلفة الارتفاع لأن بيوت الموقع بنيت على منحدرات الهضبة، لقد كانت السطوح تعج بالسلام كما

(١) ج. ميلارت. - العصر الحجري الحديث، بالإنكليزية ص ٩٨ - مرجع سابق.



الشكل (١-٣)

معبد من جطل هويوك - عن ميلارت

هي الحال اليوم في القرى الأناضولية حيث ما يزال قسم منها يعيش حياة القرية القديمة»^(١)

إلى جوار هذه الحضارة الاستثنائية ظهرت في موقع «هاجيلار» الذي يعود إلى عام (٧٠٠٠) ق. م، دلائل على وجود مجتمع مستقر وأكثر تطوراً من المجتمع النطوفي ويصفها ميلارت بقوله: «لقد أنشئت هذه على أرض عذراء، وكانت لغرفها أشكال مستطيلة مبنية من اللبن على أساس من الحجر، ولقد دامت القرية على امتداد سبع مراحل قبل أن يهجر السكان . . . ويبدو أن البيوت كانت تتألف من غرفة كبيرة خالية من أي تجهيزات داخلية، ولها أرضية مكسوة بالحص وجران مبنية على أساس من الحص. كان الحص غالباً ملوناً باللون الأحمر ومدهوناً برسوم هندسية بدائية باللون الأحمر على خلفية ملونة بالأصفر الشاحب. كما لم يعثر على أي مداخل للبيوت وكانت تحيط بالغرفة أحياناً غرف صغيرة مزودة بالمواقد ومن المحتمل أن الدخول إلى الغرف كان من خلال السطح»^(٢).

إن مكتشفات هذين الموقعين، تدل على وجود مستوطنات متطورة. وعلى الرغم من اعتمادها على الزراعة، وتوفر عناصر معمارية كالتحصينات والمنازل الكبيرة والمعابد الأولية فيها ينبغي ألا نتسرع في إطلاق صفة قرية أو مدينة عليهما.

إن مواقع «بقرص» و«هاجيلر» و«جطل هويوك» و«أريحا» في عصور ما قبل التاريخ تثير الكثير من الإشكالات، كمستوطنات متطورة و متميزة. وتظل محطات مهمة في تاريخ التطور العمراني لمنطقتنا والعالم. وإنها في الواقع تشجع الباحثين على إعادة النظر في مفهوم تشكل المدينة وحضارة المدن بجنوب بلاد ما بين النهرين. وكذلك النشوء الاعتباري للمدينة والذي يقدر عادة بمطلع الألف الثالثة ق. م ونهاية الألف الرابع.

(١) ج. ميلارت. - أقدم الحضارات، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٢) ج. ميلارت. - أقدم الحضارات، مرجع سابق، ص ١٠٧.

أشكال العمارة البدائية:

وإذا ألقينا نظرة على خرائط المواقع الأثرية، مع قلة المكتشفات، فإننا نلاحظ تطوراً للعمارة وتوزعاً جغرافياً للتجمعات السكنية. وعلى الرغم من المحافظة على بعض التقاليد المعمارية، إلا أنه في الغالب كانت التجمعات البدائية الريفية، تبدأ بداية معمارية متواضعة، إلى جانب تلك التجمعات التي حققت قفزات معمارية هائلة، فظهرت عناصر معمارية جديدة كالفسحات الداخلية «الحوش» وغرف مخصصة للحيوانات إثر عمليات تدجين الحيوانات البرية، وازداد عدد غرف الخزن حول هذا الفناء مع تراكم إنتاج الحبوب وزيادته. وظهرت المعابد بديكوراتها الداخلية المتداخلة مع طقوس العبادة. وتم الرسم على الجدران الحصية وبلطت الأرضيات وربما استعملت تقنية استخدام القوس لتقسيم الغرف ولحمل الأسقف في أم الدباغية جنوب جبل سنجار^(١). وهذه التجمعات حملت كل خبرات الماضي وطورتها. كنتاج لتفاعل مجمل حضارات الأناضول والرافدين وزاغروس. ولتميزها تحولت إلى صيغ استثنائية. في حين ظلت العمارة البسيطة دارجة، وشكلت المنازل المستديرة إحدى علامات هذه البدائية في عملية التشييد. حتى ينتاب الدارس شعور قوي بأن الكوخ الدائري المبني من مواد الطين والحجر والخشب، كان الأبجدية التي كتب بها تاريخ العمارة. وهو إلى جانب ذلك السمة المشتركة للعديد من الأبنية في سائر التجمعات السكنية القديمة في منطقة الشرق الأدنى. وليس مهماً في هذه الحالة أن نعرف، ما إذا كان مكتشف هذه الطريقة لأول يسكن ضفاف الفرات أو أريحا، كهف شانيدار^(٢) أم أي مكان آخر.

موقع القرية قبل الإسلام:

يمكن عدّ التمرکز الحضاري بين منطقة وأخرى، والتناوب في الهيمنة السياسية ظاهرة تاريخية ترتقي إلى مستوى القوانين المحركة للتطور الحضاري، هذه

(١) ج. ميلارت. - العصر الحجري الحديث، بالإنكليزية، مرجع سابق، ص ١٣٦.

(٢) ج. ميلارت. - أقدم الحضارات، مرجع سابق، ص ٢٧.

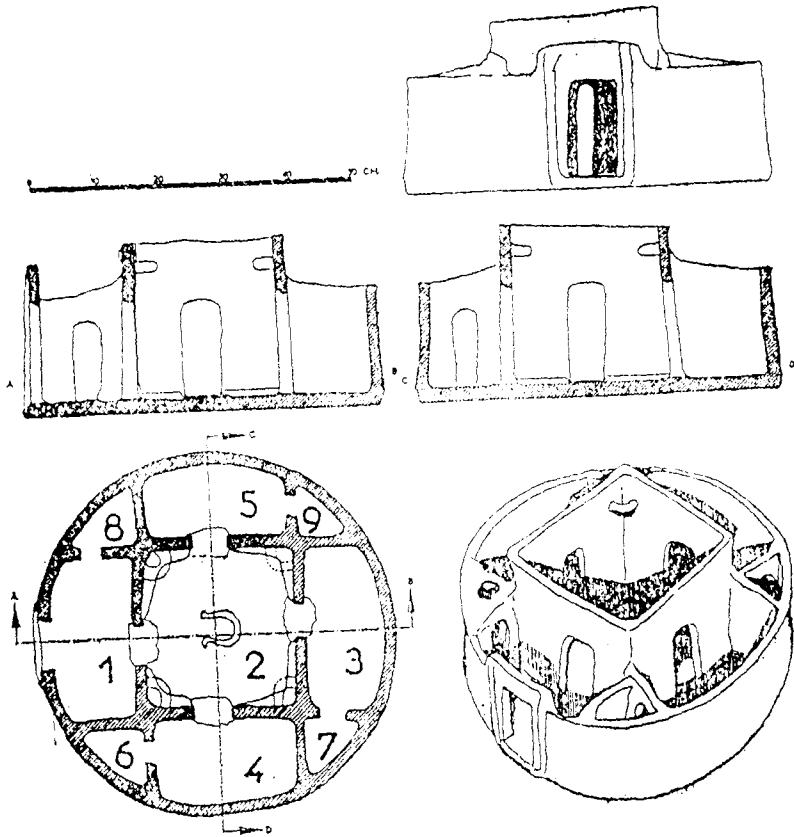
الظاهرة تتسم بالتكرار ويمكن تشبيهها بنوع من الإزاحة والتنقل في المراكز الحضارية. فمنذ مطلع الألف الرابع قبل الميلاد، وإثر انتهاء العصر الحجري الحديث، تركّز الثقل الحضاري - العمراني للشرق الأدنى في منطقة جنوب بلاد ما بين النهرين، ومن المحتمل أن موقع بقرص على الفرات الأوسط والذي يعود إلى ما قبل هذه المرحلة بكثير (٦٤٠٠ - ٥٩٠٠ ق.م قد مهد لعملية الانتقال الحضاري نحو الجنوب. وإن دلّ هذا الموقع على شيء فإنما يدل بادئ ذي بدء على عدم الانقطاع العمراني والحضاري في منطقة الفرات الأوسط وشمال سوريا منذ أقدم العصور. كانت بقرص متطورة من نواحيها المعمارية: «يتألف البيت من ثلاث حجرات متوازية ومتلاصقة، أوسطها أكبرها، وقد تكون صحن الدار بنيت البيوت متجاورة، أو عمودية على بعضها وعلى جوانب الأزقة. هذا الوضع يدعونا إلى الاعتقاد بأن القرية كانت قد شيدت وفق مخطط ثابت، وإذا لم تكشف التنقيبات الأثرية الجارية على قرية أقدم، تكون بقرص أقدم قرية منظمة وفق مخطط يحدد الأزقة وطراز البيوت»^(١).

واستكمالاً للأفكار السابقة التي أوردناها حول التأثير المتبادل بين حضارة الأناضول والرافدين، فإن لبقرص دوراً أساسياً في عملية التواصل هذه، ويؤهلها لذلك كل من موقعها الجغرافي والحقبة التاريخية التي ازدهرت فيها. وكنتيجة أخيرة تأثرت منطقة الفرات الأوسط وشمال سوريا بحضارة جنوب بلاد ما بين النهرين كما يقول الدكتور شوقي شعث: «بعد الألف الرابع أصبحت سورية الشمالية تحت تأثير حضارة العبيد - في العراق - وربما كان ذلك بسبب العلاقات التجارية بين سورية الشمالية وبلاد ما بين النهرين الجنوبية، حيث كانت الأولى تزود الثانية بالأخشاب اللازمة لبناء المعابد والقصور عن طريق الفرات»^(٢).

(١) د. علي أبو عساف. - آثار الممالك القديمة في سورية، دمشق، ١٩٨٩، صفحة ٧١-٧٤.

(٢) د. شوقي شعث. - المسكن في سورية وفلسطين منذ أقدم العصور حتى بداية العصر الهلنستي، مرجع سابق، صفحة ٢١.

ثم يضيف إن المعلومات قليلة عن عمارة المساكن في سوريا بالآلف الرابع إلا أنها كانت بشكل عام مؤلفة من غرف مستطيلة تحيط بصحن الدار، وترتكز الجدران الطينية على أساسات من الحجر.



الشكل (٢-٣)

مجسم معماري مصغر لمنزل دائري من ماري - عن بارو

لقد كان الإنسان يسكن بكثافة نسبية في الآلف الرابع في منطقة الفرات الأوسط وشمال سوريا، فقد دلت الأبحاث الأثرية على سكن الإنسان في حبوبة

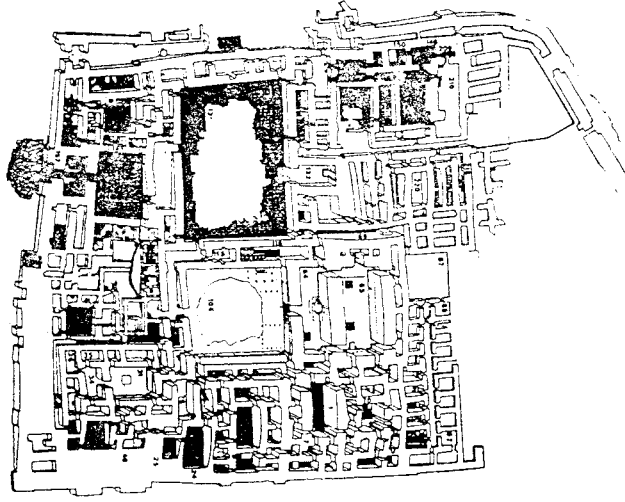
على الفرات بين أعوام (٣٥٠٠ - ٣٣٠٠) ق. م وكذلك في ماري إلى الجنوب منها
بعدة مئات من الكيلومترات .

لا شك أن الأهمية المعمارية للتجمعات السكنية بعد عام (٣٠٠٠) ق. م
ارتبطت مع المراكز الحضرية الأكثر تطوراً عن الأرياف، كالبلدان التي وُجِدَتْ فيها
المعابد .

وعلى الرغم من أن مادة البناء الرئيسية ظلت هي نفسها في سائر التجمعات،
أي اللبن الطيني، لكنه بعد ظهور الممالك السورية القديمة بات التمييز بين عمارتي
الريف والمدينة أكثر وضوحاً . فقد ظهرت القصور الضخمة ذات تقنية البناء العالية
حيث أنها كانت مشيدة من اللبن، إلى جانب المعابد، في عدة مواقع وخاصة «إيبلا»
و«ماري» وفي هذه الأخيرة ظهر بناء يعدّ من أضخم القصور في العالم القديم، إذ
بلغت مساحة قصر زمرلي - ليم هكتارين ونصف الهكتار، فقدمت بذلك نموذجاً
لقصر رافدي - سوري فريد من نوعه . إن ماري تعدّ بحق نقطة التقاء الحضارة
السورية مع الرافدية . وترجم ذلك معمارياً بوجود «زقوره» قد تكون الوحيدة في
الأراضي السورية حالياً .

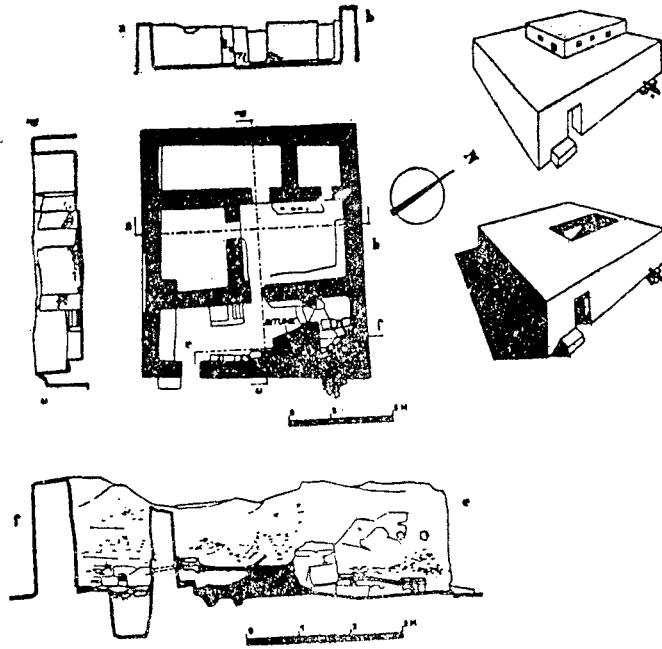
وعلى الرغم من ظهور مراكز الممالك هذه كمدن تتمتع بالتحصينات
والأسوار، وفيها الأبنية الإدارية والخدمية العامة وبعض التنظيم السكني المدني .
فمن الصعوبة القول بأن الأرياف كانت مهملة . قد يكون لأبنيتها طابع خاص
ومخالف لمنشآت المدن، فإن لاكتشاف مجسم لمنزل ريفي دائري في ماري دلالة
مشجعة على الاعتقاد باستمرارية النموذج الدائري للمنازل في ريف الفرات آنئذ .
حتى لو كان على نطاق ضيق، هذا النموذج الذي يشبه إلى حد كبير العمارة
النبطية في المربيط، الشكل (٣-٧) «ومن المناسب هنا أيضاً أن نذكر بالمجسمين
المعماريين وهما بيتان مستديران مصغران، يدلان على براعة بقدر ما يدلان على
ذوق سليم . ولم نكتشف، حتى الوقت الراهن، أي بناء كبير مستدير في أي من
ورشاتنا»^(١) .

(١) آندريه بارو . - ماري - ترجمة : د. رباح نفاخ، دمشق، ١٩٧٩، الصفحة ٦٨ .



الشكل (٣-٣)

مسقط لقصر زيمرلي - ليم - عن بارو



الشكل (٤-٣)

مساكن ريفية عهد ما قبل سرجون - من الفرات الأوسط - عن بارو .

ويوضح العالم الأثري بارو في معرض حديثه عن العمارة في ماري أنها كانت طينية وبسيطة على الرغم من ضخامة قصر زمرلي -ليم الملكي، فقد كانت أبنية السكن في الأحياء ذات طابع ريفي بحت.

يمكن القول بإيجاز إن العمارة في الحقبة الممتدة من الألف الرابع وحتى الثاني قبل الميلاد، تطورت بشكل ملحوظ في منطقة الفرات الأوسط وشمال سورية. ولم تختلف كثيراً عن العمارة الريفية الطينية التي ظلت سائدة في رقعة جغرافية واسعة جداً، تمتد حتى إيران، آسيا الوسطى والقفقاز وقسم من البلقان، في سماتها وخطوطها العامة. انظر الشكل (٣-٩) و(٣-١٠) و(٣-١١).

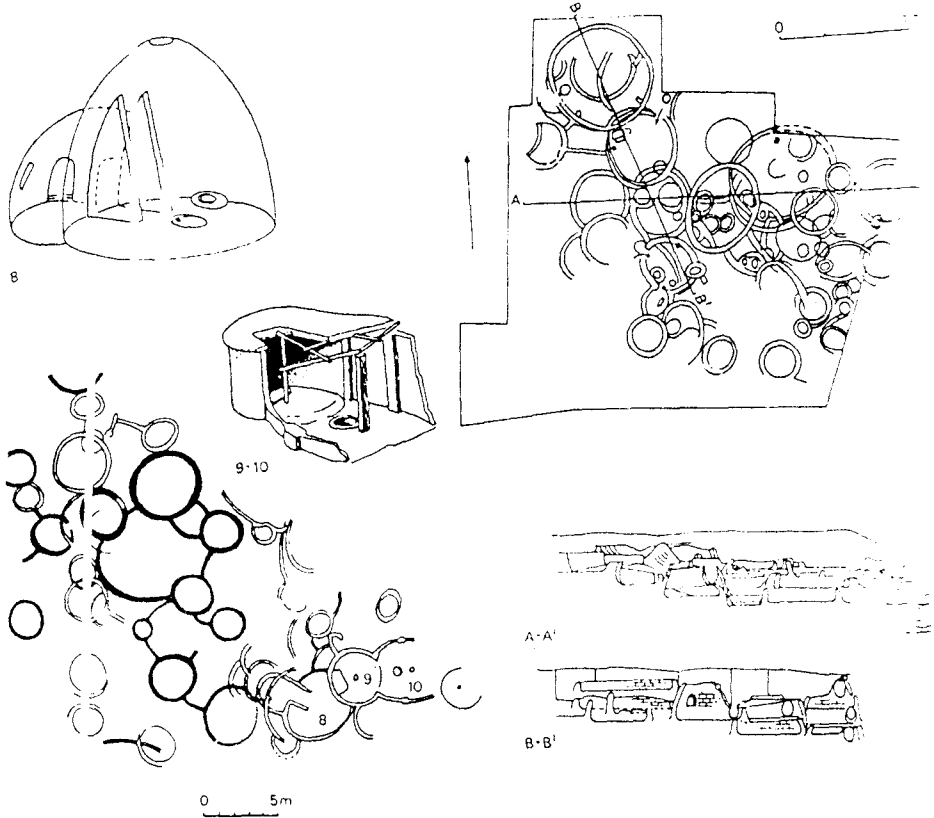
وبما أن مجمل التطور المعماري انصب على المنشآت المدنية، فقد برزت بوضوح تلك العناصر المعمارية التي ميزت المدن عن القرى بصورة نهائية، كالستائر الترابية والأسوار، والقصور والمباني الكبيرة الأخرى، كالمعابد والزقورات، ضمن الشوارع المنظمة، هذا وقد كان عدد غرف المنازل السكنية في المدن أكثر مما هي عليها في القرى. وكل ذلك كان مقدمة لتقدم وتطور معماري -حضاري للممالك السورية، وليس من الضروري أن تكون القرى، أيضاً قد ارتقت وتطورت معمارياً في هذه المرحلة، بل يمكن التكهن بأنها ظلت على حالها من حيث عدد غرف المنزل الواحد، القليلة عادة وقد يكون العنصر الجديد والمثير في عمارة الريف هو ظهور الحوش -الصحن في بعض القرى.

وعلى أية حال ليس لدى الباحثين ما يكفي من المعلومات، لإعطاء تفاصيل عن عمارة الريف في هذه المرحلة لضعف التنقيبات في هذا المجال. ولأن العمر الحضاري للقرى والبلدان الصغيرة قصير.

٣- أشكال البناء في ممالك المنطقة:

بعد نشوء الممالك الآرامية في أجواء الصراع في المنطقة، لم تأت يبعديها المعماري، حيث كانت أغلب المراكز الحضرية المستحدثة، تبنى على أنقاض القديمة في نفس الموقع، وكانت المخططات ماثلة لمراحل وأجيال عديدة في مراكز المدن

كيف لم تكن كذلك في القرى، حيث تتسم عمارتها بصورة أقوى بالمحافظة على
تقاليد المحلية والأساليب التقليدية في البناء، ويتحدث الدكتور شوقي شعث بهذا
خسدد فيقول: «وعموماً أمكن ملاحظة أن الأبنية في سويات عصور ما قبل التاريخ
وعصور التاريخية في تل شاعر بازار سارت على نفس مخططات الأبنية التي
سبقتها»^(١)



الشكل (٣-٥)

مساكن دائرية من القفقاز مع تصور لقباب مزدوجة - عن ميلارت.

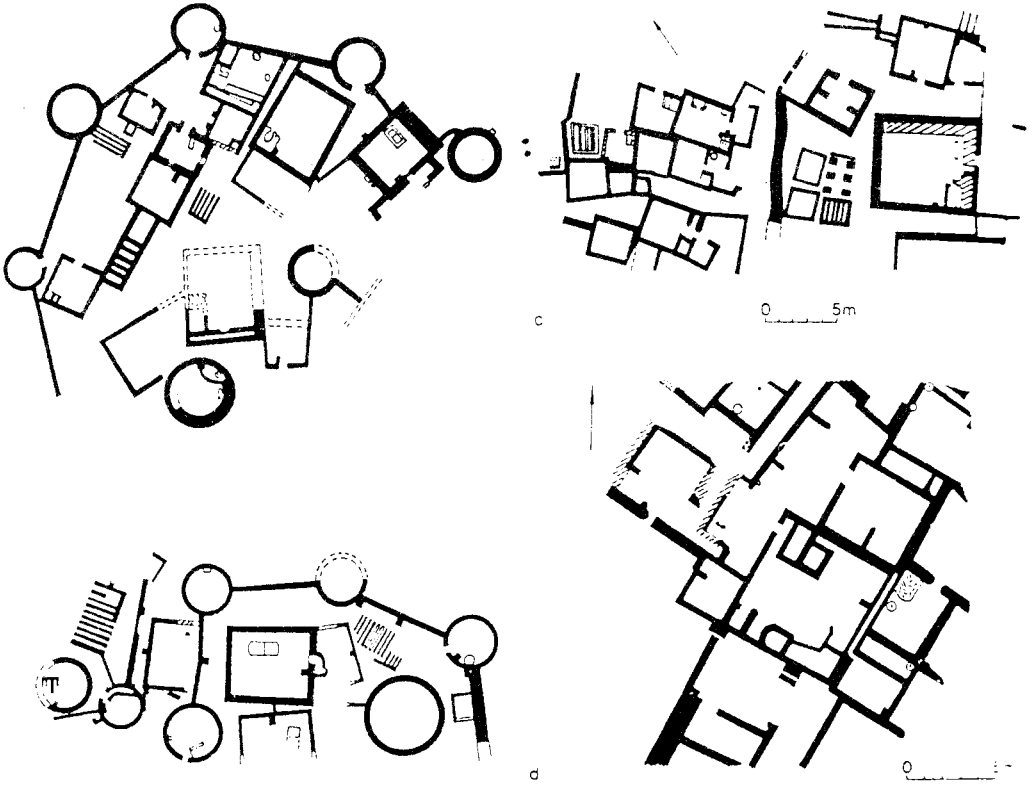
(١) د. شوقي شعث، المسكن في فلسطين وسوريا، مرجع سابق، صفحة ٢٣.

وفي المراحل اللاحقة وإثر ظهور امبراطوريات أقوى، تلك التي سيطرت على سورية سياسياً وحضارياً، خاصة الامبراطورية اليونانية-الرومانية، اتجهت العمارة نحو منحى آخر وبالأخص عمارة المدن، إذ تُعدّ الحضارة اليونانية بحد ذاتها حضارة المدن، وأدخل الحجر كمادة بناء أساسية، وكانت نتيجة هذا التحول، تلك الأوابد، بأعمدتها ومسارحها وشوارع المدن. إلا أن القرية ظلت بعيدة عن التطور الحضاري من جهة، وعن تأثير حضارة مدن اليونان من جهة أخرى، إلا أن اليونان ظلوا غرباء عن الريف، واستقروا في المراكز الحضرية القديمة والمستحدثة. حيث كانوا يعملون في التجارة والجيش والإدارة. ولم يدخل الأجانب القرى. لقد ازدهرت المناطق السورية وازداد عدد السكان فيها، يقول طه باقر: «وكان السلوقيون، إبان قوتهم مسيطرين على تجارة الحرير، في الطريق المتغلغل في إيران وأواسط آسيا إلى منغولية، وازدهرت الحياة في سوريا من جراء ازدهار التجارة والزراعة واستعمال النقود المسكوكة وقد عملت هذه الأسباب على ازدياد السكان وارتفاع مستوى المعيشة، فقد ورد مثلاً تقرير لسكان سلوقية دجلة بنحو ٦٠٠,٠٠٠ نسمة»^(١). حتى أن بعض المصادر قدرت عدد سكان سوريا في القرن الثاني للميلاد بنحو سبعة ملايين^(٢). ومع أن حضارة اليونان كانت متطورة في نواحيها العلمية والفلسفية إلا أن التطور الحضاري-العمراني، وخط الحياة لم يتغير كثيراً ويعلل ذلك مؤرخ العلم جون برنال بالقصور في التطبيق العملي لهذه العلوم، «إن أسلوب حياة معظم الناس في البلاد المتحضرة كان في زمن سقراط الإمبراطورية الرومانية لا يختلف كثيراً عنه قبل ذلك بألفي عام. عندما انهضت حضارة العصر البرونزي القديم، فلم يطرأ تحسن ملحوظ على الزراعة، والبناء والملابس والمنازل، ولم تجد علوم اليونانيين مجالاً كبيراً للتطبيق، فيما عدا تحسين ضئيل في الري وشق الطرق، وفي أنماط جديدة للمعمار الأثري وتخصيب المدن»^(٣).

(١) طه باقر. -مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الثاني، بغداد، ١٩٥٦، صفحة ٣١٧.

(٢) طه باقر. -المرجع السابق، صفحة ٣١٩.

(٣) جون برنال. -العلم في التاريخ- مرجع سابق، صفحة ٣٥٩/١.



الشكل (٦-٣)

مساكن دائرية مضلعة ومختلطة منطقة الشرق الأدنى .

العصر الحجري - عن ميلارت

فإذا علمنا أن تأثير اليونان في مجال العمارة انحصر في المدن، وأخذنا بعين الاعتبار ما تشير إليه بعض المصادر حول بساطة العمارة اليونانية، في ظل نموذجها الأمثل مدينة أثينا: «لم يكن البيت اليوناني على شيء من الفخامة... وكانت مادة البناء هي الستوق، واللبن في معظم الأحيان، وكانت بيوت المدينة تتجمع في

شوارع ضيقة، وترتفع في الغالب طابقين . وتكون أحياناً مساكن مستقلة لعدة أسر، وظلت المساكن صغيرة في أثينة»^(١).

فيانه يمكن أن نستنتج أن تأثير اليونان على عمارة الريف في شمال سوريا لم يكن ذا قيمة . هذا إن لم نقل إنه كان معدوماً . فالعمارة التي لازمت الدولة اليونانية لم تكن أكثر تطوراً من التراث المعماري المحلي السوري، في أفضل الحالات، بل إن ديورانت في معرض حديثه عن عمارة فقراء اليونان يذكرنا بالمساكن الريفية الحالية، وهو نفسه يصفها بأنها كانت تشبه عمارة أهل الشرق الأدنى منذ أقدم الأزمان^(٢).

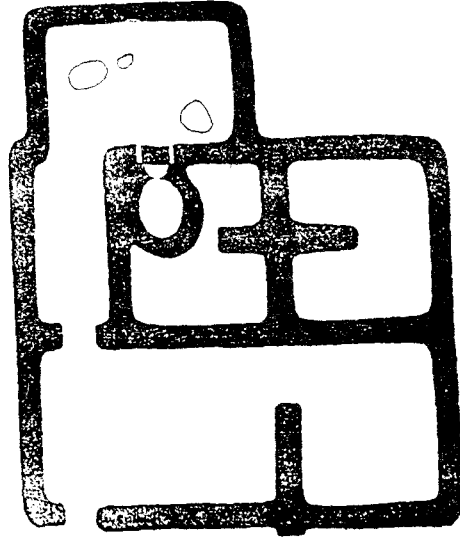
أما الرومان الذين طوروا كثيراً عمارة المدن السورية، خاصة في العهد البيزنطي . وما زالت آثارهم باقية حتى اليوم . فلقد كان تأثيرهم على عمارة الريف ضيقاً، حيث لم يتأثر الريف السوري كثيراً بالرومان، بل إنه حافظ على خصوصيته وتقاليده : «لم يختلف المظهر العام لحياة الريف في سورية الرومانية بصورة جذرية عن النموذج القديم، وكانت البلاد مرصعة بالآلاف القرى التي يسكنها على الغالب الفلاحون الذين يعيشون على إنتاج الكروم أو المزارع»^(٣) . ويؤكد بحماسة صفاء ونقاء القرى السورية وخروجها عن حلقة مؤثرات الحضارة الرومانية -اليونانية : «وكان تأثر هذه بالحضارة الرومانية ضئيلاً كتأثرها بالحضارة الهلينية، وقد تمسك القرويون وخاصة أولئك الذين يعيشون بعيداً عن مراكز المدن بطرق حياتهم التقليدية بصورة شديدة»^(٤).

ومما لا شك فيه أن تلك الطرق التقليدية هي عملية بناء المساكن وبالتالي طراز العمارة الريفية .

(١) ول ديورانت . - قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، الجزء السابع، صفحة ١٢٢ .

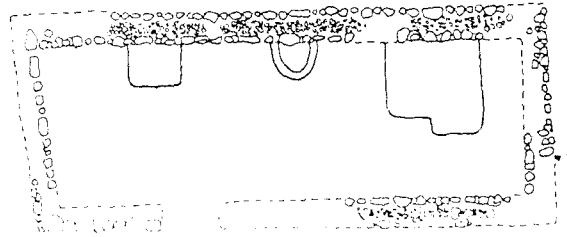
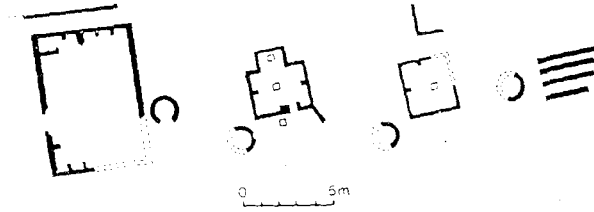
(٢) المرجع السابق، صفحة ١٢٤ .

(٣) (٤) فيليب حتي . - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة : د. جورج حداد، الجزء الأول، بيروت ١٩٥٩، صفحة ٣٣١ .



الشكل (٧-٣)

منزل ريفي من جرمو - شمال العراق - عن ميلارت.



الشكل (٨-٣)

مساكن ريفية من أريدو / جنوب ما بين النهرين وشرق إيران - عن ميلارت -

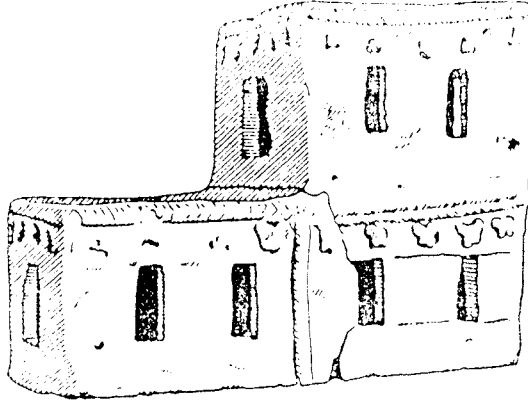
ومما سبق نستخلص بأن المناطق التي تشكل الرقعة الجغرافية لدراستنا . كانت منذ أقدم العصور مأهولة بالسكان ، واستمرت دون انقطاع ، حتى عهد دول وامبراطوريات ما قبل الإسلام ، وظلت القرى هي قوام هذه الاستمرارية ، حيث كان عددها كثيراً في سورية في أغلب المراحل ، وهذا ما يؤكد هورست كلينكل : «ولا غرابة أن يكون عدد التلال والمواقع الأثرية التي تعود إلى العصور الشرقية ، ضخماً في سورية ، فالشواهد الكتابية تعج بأسماء البلدان ولو أننا نعتقد بأن القسم الأعظم من تلك البلدان لم تكن إلا مجرد قرية أو بلدة»^(١) .

فعلى الرغم من تعدد وتعاقب الدول والحضارات التي احتضنت سورية في إطارها السياسي والاجتماعي -وعلى الرغم من تنوع الظروف واختلافها وتغيرها من مرحلة إلى أخرى فإن عمارة الريف السوري حافظت على خصوصيتها ، كما يشير إلى ذلك كلينكل : «وهكذا أصبحت سورية جزءاً ثابتاً من العالم الهلنستي حيث التقى الشرق مع الغرب واشتركا بعضهما مع بعض حضارياً بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ ، إذ هيمن الطابع اليوناني على المدن السورية الكبرى وخاصة الأحياء الجديدة التي أسسها السلوقيون إلى جانب المدن الأصلية ، لكن الشرق القديم ظل محتفظاً بنفسه في الأرياف ولم تنطفئ فيه روح الحياة ، وما إن تهاوى ذلك السقف الهلنستي الرقيق حتى استعاد العنصر الشرقي حياته من جديد في كل مكان»^(٢) .

لقد ظلت القرى في شمال سورية ووسطها والفرات والخابور مصدر الأصاله ، وبنوعاً لا استمرار الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، كانت مورداً للغذاء والخيرات ، فحافظت على أقدم التقاليد المعمارية ونمط المعيشة الريفي ، حتى الفتوحات الإسلامية .

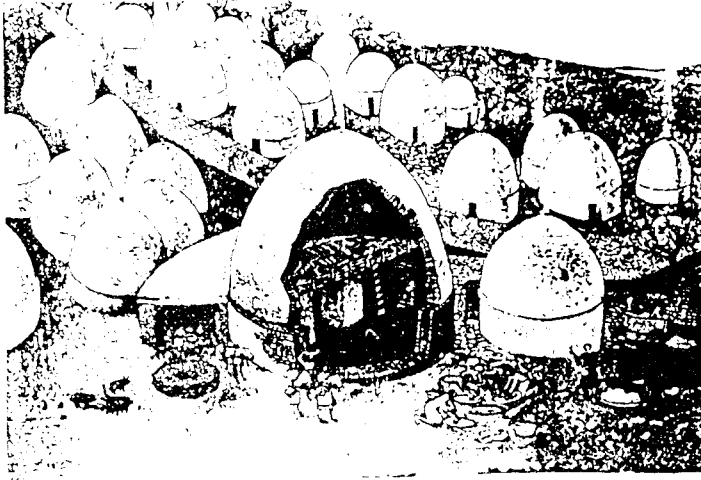
(١) هورست كلينكل ، آثار سورية القديمة ، دمشق ، ١٩٨٥ ، صفحة ٣٤ .

(٢) المرجع السابق ، صفحة ١٨ .



الشكل (٩-٣)

نموذج مصغر لمعبد ريفي الطابع من آلاخ - عن عساف -
محفوظة في متحف حلب



الشكل (١٠-٣)

قرية بمساكن دائرية وأسقف مقببة - في قبرص القديمة
عن ميلارت .

الفصل الرابع

موقع عمارة الريف في الحضارة الإسلامية

إن للإسلام أثراً كبيراً على التاريخ الحضاري للمنطقة والعالم بأسره، وثمة آراء عديدة متباينة حول خصائص الإسلام الحضارية. وهي تنحصر في اتجاهين رئيسيين الأول يرى أن حضارة الإسلام ذات طابع بدوي قروي في المحصلة. والثاني على العكس يرى الرأي الأول مجحفاً بحق الإسلام، ويؤكد الطابع المميز للمدينة الإسلامية.

ومهما تكن درجة صحة الرأيين ومدى قوة الشاهد والدلائل التي يعتمد عليها أصحاب كل اتجاه، فمن المفضل البحث عن الجانب النظري لهذه المسألة في الإسلام كعقيدة ودين وممارسة حياتية، آخذين بعين الاعتبار الظروف الاجتماعية والاقتصادية والمناخية لموطن الوحي، والمركز الذي نشأ فيه الإسلام، أي مكة المكرمة حيث ولادة الرسول محمد (ص) والمدينة المنورة.

لقد كان لكل من حياة قريش التجارية من جهة والمحيط البدوي في الجزيرة العربية من جهة أخرى دور حاسم في رسم الخطوط الأساسية لخصوصية البنية الحضارية العربية الإسلامية في مراحلها الأولى: «فقد توجه أهالي مكة إلى العمل في التجارة وساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافي والأحوال السياسية التي كانت سائدة قبل الإسلام. حيث كانت في الشرق الأوسط امبراطوريتان كبيرتان تقسمانه، وهما في حالة عدا، غير أن كلا منهما كان بحاجة إلى بضائع ينتجها

الآخر ، أو ما يربيه من بضائع ، فالروم كانوا بحاجة إلى الحرير والعطور والأفاويه ،
والساسانيون بحاجة إلى الذهب وبعض المنتجات الإفريقية ، وكانت مكة تقوم
بدور الوسيط بينهما ، فتستورد بضائع من إحدى الدولتين وتصدرها إلى الأخرى ،
كما كان أهل مكة يتاجرون ببعض البضائع التي تحتاجها الجزيرة كالجلود والسيوف
والمنسوجات»^(١) .

وفي أواخر القرن السادس ازدهرت مكة من بين عدة مراكز تجارية كتدمر
والبتراء : «وانتقلت طرق التجارة من سورية والعراق إلى أرض الحجاز وكذلك
وجدت مكة نفسها بين ليلة وضحاها مركز تجارة وثروة رائجة ، بعد أن كانت في
الماضي على الأرجح محطة تجارية من هذه المحطات الخفيفة الصوت القليلة
الخطر»^(٢) .

بل إن بعضهم يعتقد أن مكة تحولت عملياً إلى عاصمة لشبه الجزيرة
العربية^(٣) . لقد كانت مكة تجمعاً سكانياً مفتوحاً على الجوار ، لم يكن فيها سور
ولا قلعة ، كانت في الواقع أشبه بقرية كبيرة ، حتى سميت «أم القرى» وعن هذه
التسمية يستعرض ياقوت الحموي عدة آراء لسابقه فيقول : «قال نفطويه : «سميت
بذلك لأنها أصل الأرض ، منها دحيت . . . وقيل : سميت مكة أم القرى لأنها أقدم
القرى في جزيرة العرب وأعظمها خطراً ، إما لاجتماع أهل القرى فيها كل سنة ، أو
انكفائهم إليها وتعويلهم على الاعتصام بها لما يرجونه من رحمة الله»^(٤) .

ويتحدث المؤرخ جواد علي عن عمارة كل من مكة والمدينة فيقول : « . . . بل
يظهر أن أكثر أبنية مكة ويثر لم تكن إلا أبنية صغيرة ضيقة ، أكثرها من اللبن أو
الطين ، وقد عرشت بجريد النخل وبالأخشاب المحتطبة من التلال

(١) صالح أحمد العلي . -تنظيمات مكة والمدينة عند ظهور الإسلام ، مجلة الاجتهاد ، العدد السابع .
بيروت ١٩٩٠ - صفحة ٣٣ .

(٢) عمر أبو النصر . - مكة والجزيرة العربية في العصر النبوي ، بيروت ، ١٩٤٩ . صفحة ٥٣ .

(٣) محمد بيومي مهران ، دراسات في تاريخ العرب القديم ، السعودية ، ١٩٨٠ . صفحة ٤١٦ .

(٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، طبعة بيروت ، صفحة ٢٢٥ / ١ .

والجبال . وقد عرفت بيوت أهل الحاجة في مكة بعروش مكة ، وقد امتازت يثرب عن مكة بوجود الأطم بها ، والأطم ، هي قصور تتكون من طابقين في الغالب أو ثلاثة طوابق ، تكون ضخمة نوعاً ما يعيش فيها سادتها ، وتكون حصوناً لأهل المدينة يتحصنون بها عند دنو خطر عليهم ، ويحمون أموالهم بها ، وقد بنيت بالأجر وباللبن أحياناً ، وبالطين أحياناً أخرى ، حيث تجعل الجدر عريضة ، لتقف صامدة أمام الدهر وأمام المهاجمين وتتخذ في أعلى الأطم مواضع يقف عليها المدافعون ترشق المحاصر بالسهم ، أو الحجارة ، وبصب الماء الحار أو النار عليه ، قرب جدار لأطم ، وقد اتخذت الأطم في يثرب ، لعدم وجود سور حولها يحميها من لأعداء ، ولكونها مكشوفة لا تحميها حواجز طبيعية يتحصن بها أهل المدينة عند دنو خطر منهم ، فلم يجدوا أمامهم من وسيلة سوى بناء هذه الأطم للدفاع عن أنفسهم ، على نحو ما فعل أهل الحيرة حيث بنوا القصور»^(١) .

ويصفها ياقوت (المدينة) بطريقة توحي أنه شاهدها بنفسه في القرن السابع لهجري مؤكداً ما سبق بقوله : «قدرها فهي في نصف مقدار مكة وللمدينة سور والمسجد في نحو وسطها . . . وهي شبيهة بالقرية»^(٢) . إلا أنه من الملاحظ أنه قد أصبح للمدينة سور في العهود الإسلامية ، بعد زيادة متطلبات الدفاع .

إن عمل قريش في التجارة كان يتطلب بالضرورة التنقل لأبنائها التجار بين مدن ، وبالتالي يمكن القول إن العمل في التجارة يولد حالة من عدم الاستقرار عند الإنسان ، حيث تنعكس هذه الحالة على نفسيته وعلى نمط معيشته وعماره وشكل نسكن الذي يتخذه . وخاصة في محيط بدوي لا يعرف غمطاً للحياة ، إلا الترحال من منطقة إلى أخرى طلباً للكلاؤ وخدمة المواشي . أو نتيجة الخلافات والصراعات لقبلية المستفحلة في ذلك الحين بين القبائل العربية ، للسيطرة على أفضل المراعي والسهول . إن هذين العاملين قد تفاعلا وتشابكا مع الظروف المناخية القاسية

(١) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ، ١٩٧١ ، صفحة ٨/٩ .

(٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مرجع سابق ، صفحة ٨٢/٥ .

الجافة، إلى جانب نوعية مواد البناء المتوافرة محلياً. فكانت حصيلة هذا التفاعل، رسوخ نمط بسيط للعمارة الطينية في كل من مكة والمدينة. وينبغي ألا يغيب عن البال أنه كانت لمكة وظيفة دينية قبل الإسلام، حيث كانت تتفرغ من سكانها أحياناً، إلا في أوقات أداء الطقوس الدينية الوثنية، يقول الكلبي: «كان الناس يحجون ثم يتفرقون فتبقى مكة خالية ليس بها أحد»^(١).

وإذا أخذنا الجانب المادي الحسي للحضارة وانطلقنا منه للتصنيف، حيث يمكن القول إن المحيط الحضري - العمراني الذي نشأ وترعرع فيه الإسلام، هو من الناحية الهندسية الصرف، محيط قروي بسيط، فقد كانت أضخم المباني وأعظمها في هذا المحيط هي الآطام. المبنية من الطين، وقد ندر وجود أبنية حجرية في الجزيرة العربية إلا في أطرافها الجنوبية، التي يمكن إهمال تأثير خصائصها المعمارية على العمارة العربية الإسلامية في بداياتها التأسيسية.

هذه العوامل تعدّ موجودة ومؤثرة موضوعياً، لكنه مع ظهور الإسلام ترجم ذلك دينياً، بمعنى أنه تمت صياغة الخطوط الأساسية لمفهوم جديد للحضارة والعمران السكني - الهندسي، لقد كانت وجهة نظر الإسلام للعمارة، ورؤيتها لمسألة البناء والتشييد دينية تحاكي - إلى حد ما - مفهوم نزول الوحي وآلية التنزيل. ففي أغلب المصادر التاريخية والأدبية العربية الإسلامية، كانت الكعبة هي أول منشأة على وجه الأرض، وقد بناها آدم عليه السلام بعد أن هبط إلى الأرض^(٢). فهو أول بيت وضع للناس، وأول من كساه الأنطاع والبرود اليمانية أسعد أبو كرب الحميري^(٣).

لقد كان الإسلام في جوهره دين يسر وبساطة وعدالة على الأرض، حتى أن نظرته التفتيشية جاءت استكمالاً لهذا الجوهر ومحاولة لتطبيقه على أرض الواقع من

(١) أبو عبيد الله البكري الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة - ١٩٤٥، صفحة ١/٨٩.

(٢) شهاب الدين أحمد النويري - نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، ١٩٢٩ م. صفحة ١/٢٩.

(٣) ابن قتيبة الدينوري - المعارف، طبعة الأزهر، مصر، ١٩٣٤ م، صفحة ٢٤٤.

جهة، وللحث على الطابع الزائل للحياة الدنيا التي هي متاع الغرور من جهة أخرى. ونحن لسنا بصدد الربط الميكانيكي لهذه الأفكار مع المحيط الحضري، نقروي -البدوي البسيط وعدّها نتاجاً لها، بقدر ما نود التأكيد على أن هذه النظرية خضارية الخاصة والجديدة كانت من صلب التعاليم الإسلامية.

ومما لاشك فيه أن الإسلام لم يكن دين توحيد فحسب وإنما كان مشروعاً متكاملًا لحضارة مدنية جديدة على الأرض، بديلاً عن الامبراطوريات بكل ما فيها من قصور ومعابد وعروش، صولجانات وزينة وبهرج، إذا أخذنا فقط الجانب حسي المشخص من الحضارة بعين الاعتبار. ومن الطبيعي أن يستمد اقتراح البديل حضاري من الحياة ذاتها، لذلك استنبط هذا البديل الحضاري أساساً من البيئة العربية في مكة وجوارها. وهي بيئة بسيطة وتكون أقرب إلى الحالة القروية منها إلى مدنية. بل أننا لا نصادف قصراً أو داراً كبيرة في كل من مكة والمدينة.

وللاستزادة من فهم هذا المحيط نعود مرة أخرى إلى المؤرخ جواد علي حيث يقول عن عمران أرض الحجاز: «أما الحجاز، فالظاهر أن الطائف منه، كانت نقرية أو المدينة الوحيدة المحاطة بجدار أو حائط، يمكن لنا أن نسميه سوراً، وكان يحيط بالمدينة وبه مواضع يتحصن فيها. . . . أما مكة، فيظهر من وصف أهل لأخبار لها أنها لم تكن مسورة، وإنما كانت ذات منافذ وطرق تؤدي إلى داخل مدينة وتمر بالشعاب. وعلى كل شعب حماية حد شعبه من الأطراف عند دنو عدو من مكة. وأما المدينة فلم يكن لها سور كذلك. ويمكن أن يقال مثل ذلك عن بقية قرى الحجاز. ولا نجد في وصف أهل الأخبار لقرى أهل الحجاز وبيوتها، ما يفيد بوجود أبنية ضخمة فيها على طراز أبنية اليمن. فلم يتحدث أهل الأخبار عن وجود قصور فيها تشبه (قصر غمدان) أو قصر (ذي ريدان) أو غير ذلك من القصور. حتى مكة وهي أم القرى لا يشير أهل الأخبار إلى وجود بناء ضخم فيها على طراز بيوت سراة اليمن، ودار (الندوة) وهي دار قصي، مؤسس ملك قريش، لم تكن داراً ضخمة ولا كبيرة كما يظهر من روايات أهل الأخبار ويظهر أن أهل الأخبار لم

يحفلوا كثيراً بالنواحي العمرانية من الجاهلية، لذلك صارت معلوماتنا بسيطة جداً عنها من هذه الناحية، فلا نكاد نعرف شيئاً عن بيوت مكة أو غيرها قبل الإسلام»^(١).

وبغض النظر عن الصفات الدقيقة لبيوت مكة وقرى الحجاز، فإن قوة الأفكار الإسلامية عن العدالة والمساواة والإخوة بين سائر أبناء قريش، والعرب ومن ثم سائر البشر، كانت لابد لها أن تبحث عن معادلها الحضاري - العمراني والمعاشي في شكل آخر من المدن، وبالتالي شكل آخر من العمارة البسيطة والمتكافئة لكافة المؤمنين، لذلك تلقف الإسلام البساطة السكنية - القروية وتبناها كوصفة جاهزة لمشروعه الحضاري - الديني وبالتالي السياسي.

لذا يمكن القول دون تحفظ، إن نظرة الإسلام الأولى للعمارة كانت وظيفية، وإن لم تبلور هذه الأفكار بشكل واضح وملمس في المراحل اللاحقة.

وقد يكون لتتبع حياة الرسول (ص)، فائدة في التأكد من جذور هذه المسألة إلى جانب كل من عمر وعلي وأبي ذر الغفاري.

لقد كان لمشروع عمر (الجلوس تحت الشجرة) دلالة كبرى وتأكيداً على هذا الفهم الحضاري الجديد، فلم يكن بحاجة إلى حرس، بل لم يكن بحاجة إلى قصر للخلافة ولا سرير مرصع بالذهب والياقوت... وعلى الأرجح أن أفكاره هي التي أوحى لعثمان بإزالة آثار قصر غمدان المشهور في اليمن: «ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: لا يستقيم أمر العرب ما دام فيها غمدانها»^(٢).

وكذلك ورد في بعض الأحاديث: «عن عمر أنه رأى أن شرب الخمر قد ازداد بسبب نزوح المسلمين إلى المدر فأراد دفع ذلك بأن ضاعف الحد الذي سنه الرسول (ص)... ويروى عنه رضي الله عنه أنه كان يدعو قريشاً للرحيل إلى

(١) جواد علي - مرجع سابق، صفحة ١٦/٥.

(٢) النوبري - نهاية الإرب... - مرجع سابق، صفحة ٣٧١/١.

لأرياف لأنها أقل مشقة على المؤمن من المدن . أما أبو ذر فيروى عنه الحديث أن مرأته بكّت قبل موته لأنها لم تجد كفناً في الغلاة ، وقال لها إنه هو المعني بذلك حديث ، لأن باقي الصحابة ماتوا في المدينة أو الجماعة»^(١) .

وعن مفهوم عمر للعمارة يقول ابن خلدون : « . . . وأيضاً فكان الدين أول لأمر مانعاً من المغالاة أو البنيان والإسراف فيه في غير القصد كما عهد لهم عمر حين استأذنه في بناء الكوفة بالحجارة . وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل ، فقال افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان وازموا السنة تلزمكم الدولة . وعهد إلى الوفد وتقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنياناً يرفق القدر قالوا وما القدر ، قال : لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد . فما بعد العهد بالدين والتحرج في أمثال هذه المقاصد ، وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدم العرب أمة الفرس أخذوا عنهم الصنائع والمباني»^(٢) . فالكثير من الأحاديث المروية عن الرسول (ص) فيما يختص بالمدينة ، يحذر بوضوح من فساد مدن وما تولده من المعاصي .

ويبدو أن الجذور الحقيقية للطابع القروي لحضارة الإسلام الفتية تم وضع أساسها في القرآن الكريم ، حيث أن لفظة قرية قد وردت (٥٧) مرة بينما لم ترد لفظة مدينة إلا (١٧) مرة ، وإلى جانب هذا الفارق الكمي كان لللفظة «القرية» دلالة عضلاتية أقوى وأشمل من المدينة فقد وردت بمعاني عدة : القرية ، والبلدة ، ومدينة أحياناً أخرى .

إن بناء أول مسجد في الإسلام ، الذي أشرف على بنائه وشارك فيه الرسول كريم بنفسه . يعد نقطة البدء في العمران الإسلامي ، وله صفة تأسيسية ويشكل سبنة الأولى في صرح المشروع الحضاري الإسلامي المبسط والمتكشف : «ثم إن

^(١) طريف الخالدي - دراسات في تاريخ الفكر العربي الإسلامي ، بيروت ، ١٩٧٩ ، صفحة ٦٥ .

^(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ، طبعة إحياء التراث ، صفحة ٣٥٨ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر باتخاذ اللبن، فأخذ وبني به المسجد ورفع أساسه بالحجارة وسقفه بالجريد وجعلت عمده جذوعاً»^(١).

وبالمقارنة مع ما أوردناه في الفصل السابق وما نعرفه كدارسين لتاريخ الحضارة، نجد أن أول مسجد للمسلمين في القرن السابع بعد الميلاد. كان أكثر بساطة من تلك المعابد العائدة لحضارات مجاورة، والتي كانت قائمة قبل عدة آلاف من السنين.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه بهذا الصدد، هل استمرت هذه المفاهيم وترجمت على الصعيد العملي في المراحل اللاحقة، في الدويلات والممالك الإسلامية، بحيث ظل النسيج المعماري - الحضري الخاص الذي أنتجه الإسلام بسيطاً ويقارب البنية القروية الريفية، كما يمكننا أن نتساءل هل أولى الإسلام القرية كتجمع سكاني صغير، فلاحي في الغالب، الأهمية؟ وأسبغت على القرية صفات تؤهلها لتكون المفضلة أو المباركة. إن الجواب المتأني عن هذا السؤال: لن يأتي لصالح القرية كنتيجة تاريخية للموقع الذي استقرت فيه القرية في السلم الحضاري التصنيفي الإسلامي.

تحولات القرية والريف في ظل الحكم الإسلامي:

عندما انتشر الإسلام في الوسط العربي المحيط وامتد إلى خارج الجزيرة العربية تغير مناخ الإسلام الحضاري من جهة، وكان لتبدل الخلفاء بعد وفاة الرسول (ص) أيضاً دور في تبدل الأمزجة، وانعكس كل ذلك جزئياً على المفاهيم التقشفية للإسلام الحضاري من جهة أخرى. وظهرت على أرض الواقع الفجوة بين المدن والممالك المدنية في البلاد التي دخلها الإسلام في جوار الجزيرة العربية. هذه الفجوة الحضرية أساساً.

وينبغي أخذ خصوصية القبائل العربية التي كانت تعيش على تخوم الجزيرة:

(١) أبو الحسن البلاذري - فتوح البلدان، طبعة الأزهر، مصر، ١٩٣٢م، صفحة ٢٠.

عربية بعين الاعتبار ، فقد كانت مختلفة عن تلك التي تعيش في قلب الجزيرة ، من حيث غط الحياة والبنية الحضرية ، ويعد الغساسنة والمناذرة في الواقع جسراً يربط لأصالة العربية في الجزيرة بالممالك والقبائل ذات الأصول العربية القديمة ، في جنوب بلاد ما بين النهرين وأواسط بادية الشام ، لقد كان الغساسنة أنصاف رحل على حد تعبير بيترز : « كانت مرايع الغساسنة الشتوية متحركة وسريعة الزوال وإن كانوا يعودون إليها في أعقاب رحلة كل صيف ولعل هذا ما يجعلها تبدو وكأنها موطن ثابت لهم ، ويبدو أن عاصمة اللخمين الحيرة قد بدأت على شكل مربع مؤقت ثم تحولت تدريجياً إلى ربض يضم الحصون والقلاع والقصور لكننا لا نجد أي مثيل يشبه الحيرة في الجانب الغساني ، فنحن نعرف أن الحارث بن جبلة كان له ربض في الجابية»^(١) .

فقد ساهم هذا التدرج الحضاري للقبائل العربية نحو الامتثال بالحضارات المجاورة والاحتكاك بها لفتح آفاق جديدة للتحضر المدني للمسلمين من أبناء قريش .

لقد كانت النظرة الإسلامية تتغير لأهل الحضر والمدن يوماً بعد آخر ، بمقدار ما انخرط الحضر أنفسهم في المجتمع الإسلامي الجديد .

لذلك يمكن القول إن المفهوم الإسلامي الأول بجوانبه البدوية والتشيفية - إن جاز لنا هذا التعبير - قد انحسر وانكمش في حالات فردية ، في ظل صراع طويل من معركة الإسلام ضد الكفر ، وفي مناخ هيمن فيه الأمر الأساسي هو الفتوحات ، على الثانوي وهو الاجتهاد والفكر وما أشبه ذلك ، ولقد كانت للفتوحات الإسلامية الدور الحاسم في التحولات الحضارية التي جاءت كنتيجة مباشرة لتوسع رقعة الإسلام وتنوع أرضيتها ومناخاتها الطبيعية والاجتماعية .

وعلى الرغم من ذلك استمرت عملية التحول زمنياً مديداً . ولم يتبلور المفهوم

(١) فرانسيس بيترز - بينظرة وعرب الشام ، ترجمة : قاسم طوير ، مجلة الحوليات الأثرية ، العدد ٢٨٠ / ، دمشق ، ١٩٧٧ .

الإسلامي للمدينة على الصعيدين النظري والتطبيقي إلا بعد قرون من ظهور وانتشار الإسلام، وإثرها ظهرت مدن يمكن وصفها بالإسلامية دون تحيز. وبالتالي تحددت السمات العامة التي وضعها الإسلام للنسيج الحضري، ومن ضمنه الريف، وعن طول مدة التحول هذه يقول كاهن: «ويكون من المفارقة والمغالطة الكلام عن التماهي، ولكن أعتقد مع ذلك أن الانفصال الحقيقي لا يجب أن يوضع عند الفتح العربي، بل بعد التحولات العامة العميقة التي يمكن بالإجمال وضعها في حدود القرن الحادي عشر، وذلك في قسم منها بفعل التطور، وبفعل نوع من تهاوي المجتمع في العالم الإسلامي.

ثم من جهة أخرى بفعل انطلاقة أوروبا التدرجية، وحتى عندئذ فإن خط التفارق لا يتطابق مع خط حدود الإسلام: إن المدينة البيزنطية هي أشبه -مع وجود بعض حالات استثنائية- بمدينة من صميم الشرق منها بمدينة من أوروبا بالذات»^(١).

وعليه إذا كانت البنية الحضرية -العمرانية للمدن قد تأخر تغيرها في الحضارة العربية الإسلامية، وبالتالي مجمل النسيج العمراني في الدولة، فمعنى ذلك أن الإسلام، عقيدة ونظاماً جديداً للحياة، لم يؤثر كمتغير جديد، بشكل مباشر على العمران الريفي، ولم يرتق إلى سوية العامل الحاسم والفاعل في معادلة التغيرات الحضرية، كما كان متوقعاً منذ نشوئه.

ولكننا سنكون مخطئين إذا سلمنا بهذه النتيجة، ولم نأخذ بعين الاعتبار تلك التحولات الحضرية الكبيرة التي أحدثها الإسلام على خارطة المنطقة بدءاً من بناء المدن الجديدة وتوطين الجنود -المجاهدين فيها، وكذلك السعي لتوطين القبائل البدوية، وإعادة توزيعها، وتقسيم أرض سواد العراق عليها، ودفعهم للتحويل نحو الاستقرار الريفي -الزراعي.

والأهم من كل هذا وذاك، أن فكرة الجهاد كانت هي المحرك الحقيقي لمجمل

(١) كلود كاهن -الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الإسلامية خلال القرون الوسطى. ترجمة: علي مقلد، مجلة الاجتهاد. العدد السادس، بيروت، ١٩٩٠م، صفحة ٢٠٥.

الحضارة الإسلامية، والأكثر تحكماً في رسم مساراتها العامة، طوال سنوات الخلافة الراشدية والأموية وقسم من العباسية، وكذلك عقود الجهاد ضد الغزو الصليبي لاحقاً. وكانت حصيلة هذا الاهتمام، بل والهدف منه، انصباب كل النشاط الاجتماعي في اتجاه التعبئة العسكرية وبناء القوة الذاتية، حتى تحول النسيج الحضري للدولة العربية الإسلامية، من نسيج مدني إلى نسيج عسكري-سياسي. وهذا ما سنجده في كتب البلدانين في الفقرات القادمة. وما أكد عليه آدم متز: «لأنعرف عن القرن الرابع الهجري إلا تصنيفاً واحداً للمدن، وهو يقوم على اعتبار أساس سياسي»، ويفرق بين المدن على هذا النحو:

(١) الأمصار، وهي البلاد التي يحلها السلطان، وتجتمع فيها الدواوين، وتقلد منها الأعمال وتضاف إليها مدن الأقاليم.

(٢) القصبات: وهي عواصم الأقاليم، ومقامها من الأمصار مقام الحجاب من الملوك.

(٣) المدن أو المدائن: وهي ما يلي القصة في الأقاليم، ومقامها مقام الجند.

(٤) النواحي: مثل نهاوند وجزيرة ابن عمر.

(٥) القرى: وهي الملحقة بالمدن ومقامها مقام الرجالة^(١).

فمن الواضح أن القرية عادت إلى أدنى السلم الحضري، وإن من باب عسكري ودفاعي في هذا التصنيف. لكن الفكر الإسلامي لم يتمكن في حقيقة الأمر من إعادة إنتاج حضارة القرية، حضارة البساطة والتكافؤ على أرض الواقع. وإن نجح في مواقع عديدة نظرياً إلا أن المعادل الحضاري لجوهر الإسلام لم يتحقق ولم يترجم إلى نظم عمرانية وذلك لقوة حضور وفاعلية المدينة في ممالك ودول الجوار من جهة ولضرورات بناء [مدن] تقوم بوظيفتها العسكرية والسلطوية من جهة أخرى.

(١) آدم متز، -الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريده، القاهرة، ١٩٤٨، صفحة ٢٦٨/٢.

عندما نبحث في معاجم اللغة عن معاني الريف والقرية، نجد مدى تقارب المفهومين لغوياً واجتماعياً في قلب الجزيرة العربية:

«راف البدوي يريف إذا أتى الريف، قالوا: راف اسم للخمر، تحمى أي تسكر، وأرافت الأرض إرافة وريفاً كما قالوا خصبت إخصاباً سواء في الوزن والمعنى، قال ابن سيده: «وعندي أن الإرافة المصدر والريف الاسم، وكذلك القول الإخصاب والخصب»^(١).

ويستنتج مما سبق أن كلمة ريف لها دالتان لغويتان، الأولى حضرية وتشير إلى الاستقرار، والأخرى زراعية مرتبطة بخصوبة الأرض وجودة مناخها.

وعن القرية نجد في اللسان معلومات مأخوذة من ابن سيده. وابن السكيت: «فالقرية من المساكن والأبنية والضياح وتطلق على المدن... وقيل كان بين سبأ والشام قرى متصلة فكانوا لا يحتاجون من وادي سبأ إلى الشام إلى زاد»^(٢).

وفي تاج العروس يطابق تعريف الريف ما هو وارد في اللسان «الريف: أرض فيها زرع وخصب»^(٣).

أما في معجم متن اللغة فنصادف تعميماً لدلالة القرية، فهي قد تكون مستمدة بشمولية معناها من بعض الآيات القرآنية: «القرية المصر الجامع: كل مكان اتصلت به الأبنية، واتخذ قراراً، وتقع على المدن وغيرها، والنسبة إليها قريي وقروي، قرى، قرية النمل: بيتها أو مجتمع ترابها، أم القرى: مكة المشرفة»^(٤).

فمن الواضح هنا أن التعريف اللغوي للقرية قارب صفتها الهندسية -العمرانية، ولكننا سنجد لاحقاً أنه غير كاف، ويخالف أغلب آراء الفقهاء

(١) ابن منظور، لسان العرب المحيط، صفحة ١٢٦٨/١.

(٢) ابن منظور، لسان العرب المحيط، صفحة ٨٠/٣.

(٣) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، طبعة الكويت، مجلد ٢٣.

(٤) أحمد رضا، معجم متن اللغة، بيروت - ١٩٦٠، صفحة ٥٥٥/٢.

والمفكرين المسلمين فيها . لأنه من الواضح أن عدم وجود مدن كبيرة في الجزيرة العربية أثناء انتشار الدعوة الإسلامية وعدم وجود تميز كافٍ بين الريف والمدينة حضارياً وهندسياً أبقى القرية هي الأصل فكرياً وحياتياً وإن كانت بعضها «قرى تجارية» . وكذلك لغياب فارق كبير بين حياة الريف والمدن . داخل نسق الحضرة جعل من التمايز الأساسي موجوداً بين البدو والحضر . ولهذا لا غرابة أن تكون انطلاقة الإسلام وتشكلها وارتسام مفاهيمها الحضرية جاءت لتناغم ما هو قروي بسيط ويشكل في الوقت نفسه قاسماً مشتركاً لحضرة البادية العربية .

الفصل الخامس

مكانة القرية في المجتمع الإسلامي

عندما يتم التطرق لآراء الفقهاء المسلمين المتعلقة بالقرية ليس المقصود من ذلك الدخول في مجالات فقهية تبتعد عن موضوع البحث، بقدر ما تكون هذه المحاولة بحد ذاتها تذكيراً من جديد بأهمية العامل الديني في التمييز بين القرية والمدينة، ومن ثم مقارنة الآراء الإسلامية في القرية، والمدينة، من منظور فقهي فلقد كان للعامل الديني دور أساسي منذ فجر التاريخ في تشكيل المدن. فقد كانت لأماكن العبادة وظائف دينية، وقامت دور العبادة أيضاً بوظائف اجتماعية ترتقي في النهاية إلى مستوى «الوظيفة السلطوية» التي تنظم حياة السكان بطريقة أو بأخرى، وبالتالي يكون التجمع السكاني المتكون حول المركز الديني -الطقوسي، نقطة استقطاب سكانية واجتماعية -مهنية.

وفي هذا السياق لا نجد غرابة في أن يكون آراء الفقهاء المسلمين حول المسائل الحضرية، هي في الأصل آراء تخص قضايا دينية بحتة، مثل صلاة الجمعة وشروطها والمصر الجامع، وعلى هذه الخلفية الدينية سنقوم باستخلاص بعض النتائج وتوظيفها لمعرفة مكانة القرية في المجتمع الإسلامي.

ولا يستبعد أن يكون الفقه الإسلامي قد تأثر بصورة غير مباشرة، بتلك التصنيفات التاريخية، التي تفترض أن تتركز الفعاليات الدينية في مركز حضري بشكل عام، وفي المدينة بشكل خاص.

لقد كان لإنشاء المساجد أهمية حضرية في المجتمع العربي، الذي دخل الإسلام، فمن البديهي أن بيوت العبادة لا تترافق مجموعات الرحل والبدو، لذلك جاءت عملية بناء المساجد لصالح تحضر وتمدن العرب والرحل وارتباطهم بالأرض - المكان (القرية)، وفي مرحلة لاحقة برزت خلافات فقهية حول مشروعية وجواز قيام صلاة الجمعة في المساجد التي بنيت في القرى، والتجمعات السكنية الصغيرة.

وهذه التباينات تظهر لدى أئمة المذاهب الأربعة، ومن ثم كان للأحكام الشرعية قدرة على وضع تعريفات غير مباشرة - على الرغم من دقتها - لكل من القرية والمدينة، ولقد كان للفقهاء الحنفي البادرة في ذلك، ومن المعروف أن المذهب منسوب إلى الإمام أبي حنيفة (١٥٠ هـ - ٧٦٧ م) وثمة ثلاث نقاط لدى الأحناف للتفريق بين الحاضرة والريف وهي: «الضرائب، وصلاة الجمعة ومواقع المجموعات في مسائل الجنائيات»^(١).

وإلى جانب ذلك أبدى بعض الفقهاء رأيهم في تعريف المصر الجامع، فكان لهذا الرأي طابعه الاقتصادي - الاجتماعي، كما نصادف ذلك في آراء الفقيه الشامي الحنفي «السرخسي» فيرى تقسيم العمل أساساً لتحديد مواصفات المصر الجامع. ويحدد المصر الجامع بالمكان الذي يتمكن فيه كل صانع أن يعيش بصنعيته ولا يحتاج فيه التحول إلى صنعة أخرى. وهذا الرأي على الأرجح. أخذ به الفقيه الشامي أيضاً «الكاساني» من بعد السرخسي، وفي القرن الرابع عشر الميلادي يستخدم الفقيه الحنفي المصري الزيلعي التعريف السابق نفسه للمصر الجامع^(٢). ويعطي للمصر الجامع تعريفات سياسية وقانونية. ولقد أتاح لنا الفقهاء الأحناف بتعريفاتهم الدقيقة للمصر الجامع التي ينبغي لها أن تكون مدينة كبرى، فرصة للفرقة بين المستقرات الريفية الصغيرة والمدن الكبرى. حتى أن الفقهاء الأحناف،

(١) باير يوهنسن. - المصر الجامع ومساجده الجامعة، مجلة الاجتهاد، العدد السابع، صفحة ٧٢.

(٢) عثمان بن علي الزيلعي. - تبين الحقائق في شرح كنز الدقائق، القاهرة، ١٣١٣ هـ، صفحة ١/٢١٧.

لشدة اهتمامهم بهذه المسألة أعطوا التعريف المصر الجامع بعداً هندسياً، أي وجود فناء للمصر وأنواع مختلفة من المساجد في هرمية من حيث الحجم والشكل: «ويستخدم مصطلح فناء المصر أحياناً للتعبير عن كل ضواحي المصر بما في ذلك التوابع، أي الأماكن الحضرية والمستقرات التابعة للمدينة... فالمدينة الضخمة ينبغي أن يكون لها فناء ضخم لا يقاس بأميال أو فراسخ محدودة.

وهكذا صار حجم الفناء منوطاً بالتفرقة بين المدن الكبيرة والصغيرة وبين المدن والقرى^(١). ومسألة الفناء تتعلق بصلاة الجمعة فكل من يقع داخل نطاق فناء المصر الجامع يجب عليه حضور صلاة الجمعة في مسجد المدينة الوحيد حسب المذهب الحنفي.

وتظل صلاة الجمعة موضع خلاف واجتهاد بين الفقهاء. حيث من عملية الخلاف هذه، نحصل على جملة من المعايير العمرانية التي تميز القرية عن المدينة. فعند فقهاء الشافعية المنسوبين إلى الإمام محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤هـ - ٨١٩م)، فإن صلاة الجمعة عندهم لا ترتبط بالضرورة بوجود المصر الجامع. ولقد كتب أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (٤٥٠هـ - ١٠٥٨م) عدة مؤلفات، عالج فيها هذه المسألة، منها: «تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك». ويلخص أفكار هذا الفقيه الشافعي الباحث رضوان السيد بقوله: «والماوردي قاض وفقه شافعي كبير كان قريباً لمدة طويلة من بلاط خليفتين عباسيين، وبعض السلاطين البويهيين، وقد كتب عدة مؤلفات في الفكر السياسي. والنظرية السياسية يهمنها منها هنا: الأحكام السلطانية، ونصيحة الملوك، وتسهيل النظر، وقوانين الوزارة وسياسة الملك... إن الماوردي شافعي والشافعية يملكون تاريخياً نظرة خاصة للوجود المدني الإسلامي، تبدو من خلال إمام المذهب، عن صلاة الجمعة والجماعة وعلاقتها بالمصر... فبخلاف أبي حنيفة ومالك بن أنس (١٧٩هـ - ٧٩٥م) لا يرى الشافعي علاقة ضرورية بين الجمعة والجماعة وعلاقتها

(١) باير يوهنسن. - مرجع سابق، صفحة ٩١.

من جهة ، والمصر أو المدينة من جهة ثانية . فأي تجمع إسلامي يمكن أن تتحقق فيه شروط صلاة الجماعة يمكن بل يجب أن تقام فيه صلاة الجمعة إذ أن الآيات القرآنية التي تفرض الجمعة لا تحدد شروطاً أو مواصفات مكانية لذلك . . . أما المالكية فيتحدثون عن ضرورة إقامة الجمعة في المصر الجامع ، معتبرين المدينة والمصر ضرورة دينية لإتمام فرائض الإسلام ، وصلاة الجمعة في مقدمتها^(١) .

أما في الفقه الحنبلي فنصادف مرانة في التعامل مع صلاة الجمعة التي : «لا تجوز إقامتها إلا في وطن يجمع المنازل ، يسكنه من تنعقد بهم الجمعة ، ولا يظعنون عنه شتاء ولا صيفاً ، إلا ظعن حاجة ، سواء كان مصرأ أو قرية»^(٢) .

من الواضح أن جواز صلاة الجمعة في القرية صريح ، لدى هذا الفقيه والقاضي الحنبلي المتوفى سنة (٤٥٨هـ) ، ولكنه يشترط لانعقاد صلاة الجمعة أنه : «لا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين رجلاً ، ليس فيهم امرأة ولا مسافر»^(٣) .

ويلخص يوهنسن كل ما سبق بقوله : «وفي رأيي فإن تطورات تعريفات المصر الجامع ، يمكن فهمها من خلال الوسائل المختلفة في رؤية الأهمية الدينية للريف في حقب مختلفة من التاريخ الإسلامي»^(٤) .

لا شك أن هذه الأهمية الدينية هي التي انعكست على تطور القرية ، ومستقبل النسيج الحضري في الحضارة العربية الإسلامية ، وإن بصورة غير مباشرة . لقد كان للمدرسة الحنفية ورؤيتها القانونية والفقهية للمدينة ، وتحول هذه النظرة إلى موضوع للنقاش والاجتهاد ، المساهمة الأهم في التمييز بين الريف والمدينة معرفياً . وجاءت النتيجة لصالح الاعتراف بالقرى المتسعة ، لكونها أماكن صالحة لإقامة

(١) رضوان السيد . - المدينة والدولة في الإسلام ، دراسة في رؤيتي الماوردي وابن خلدون ، الاجتهاد . العدد / ٧ ، صفحة ٢٣٠ .

(٢) أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي ، الأحكام السلطانية ، مصر ، ١٩٦٩ م . صفحة ١٠٠ .

(٣) أبي يعلى . - المرجع السابق ، صفحة ١٠١ .

(٤) باير يوهنسن . مرجع سابق ، صفحة ٩٢ .

صلاة الجمعة فيها، في نهاية المطاف . وينبغي أن لا يغيب عن البال ، إن استخدام لفقهاء حجم الفناء للمصر وتوابع المدينة ، قد ساهم بدوره في التفريق بين القرية والمدينة : «فالواقع أن طوبوغرافيا المحيط الحضري للمدينة -وبشكل أكبر من نهضة المدينة الداخلية - كانت مناط التفرقة بين المدينة والريف»^(١).

ويمكننا التأكيد على أن للصلوات الخمس ، وصلاة الجمعة وصلوات الجماعة في الإسلام دوراً مميزاً في تحضر العرب والبدو المسلمين من باقي الشعوب ، حيث ساهمت الفرائض في استقرارهم وتنظيم مناحي حياتهم اليومية . حتى أنها كانت في البداية من إحدى الحوافز لبناء الحواضر والقرى . لكن تصاعد خط الاجتهاد الإسلامي ، في مجال الصلوات ، جاء في المحصلة لصالح المدينة أكثر مما هي لصالح القرية . وعلى الرغم من أننا لاحظنا أن مذهبين من أصل أربعة يجيز صلاة الجمعة في القرى ، ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أنه بمجرد ظهور بوادر فقهية تفضل صلاة الجمعة في المدن ، يتشجع جزء من المؤمنين في البلاد الإسلامية للسكن في مدن التي تتمتع في الأصل بمجموعة من المغريات الدينية والخدمات .

القرية ومفهوم المكان المقدس

وفي هذا السياق كان تطور مفهوم المكان المقدس في الإسلام أيضاً حافزاً لتشجيع السكن في جوار المساجد الكبرى ، قرب الأئمة والأضرحة ، في أغلب مدن الإسلامية ، وعلى مستوى أكثر حماسة ، لقد ظن الكثيرون أن من يدفن في بعض المقابر ، فهو من أهل الجنة ، أو سيلاقي معاملة حسنة في اليوم الآخر ، خاصة على صعيد الأوساط الشعبية -الدينية الأقل وعياً لجوهر الإسلام ، ومهما كانت هذه الأمور ضيقة النطاق والتأثير فهي ، أحد العوامل الروحية والنفسية التي شجعت الهجرة من القرى .

وقد ورد ذكر المكان المقدس في القرآن الكريم : «يا قوم ادخلوا الأرض مقدسة التي كتب الله لكم»^(٢).

(١) بايروهنسن . مرجع سابق ، صفحة ١٠٠ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٢١ .

وقد اختلفوا في الأرض المقدسة ما هي؟ وأين تقع؟ : «فذهب ابن عباس رضي الله عنه إلى أنها أريحا، وقال : «أريحا هي أرض بيت المقدس، وقال مجاهد : هي الطور وما حوله، وقال الضحاك : هي إيلياء وبيت المقدس، وقال الكلبي : دمشق وفلسطين وبعض الأردن، وقال قتادة : هي الشام كلها»^(١).

ومهما يكن فهذه الأمكنة المقدسة هي ليست قرى على أية حال، وإن افترض وجود قدسية دينية لقرية ما، ودام الاعتقاد بذلك، فإنها وللسبب نفسه تتحول مع مرور الزمن إلى مدينة، أو بلدة على الأقل.

إن الفلاسفة المسلمين قد عالجوا قضايا فلسفية عديدة، ويبدو أن أبا نصر محمد بن طرخان بن أوزلغ الفارابي الذي ولد في (٢٥٩ هـ - ٨٧٠ م)، كان من الأوائل الذين تطرقوا لموضوعات اجتماعية وعمرانية، من منظور فلسفي، وإن لم تكن بإسهاب. فحسب رأيه : كل إنسان مفطور على أنه محتاج، بل يحتاج إلى قوة يقدم له كل واحد منهم شيئاً مما يحتاج إليه . . . ولذلك حدثت الاجتماعات الإنسانية، وهي نوعان : «فمنها الكاملة، ومنها غير الكاملة، والكاملة ثلاثة : عظمى ووسطى وصغرى، فالعظمى اجتماعات الجماعة كلها في المعمورة، والوسطى اجتماع أمة في جزء من المعمورة، والصغرى اجتماع أهل المدينة في جزء من مسكن أمة .

أبو عبدو البغل

وغير الكاملة : أهل القرية، واجتماع أهل المحلة، ثم اجتماع في سكة، ثم اجتماع في منزل، وأصغرها المنزلة، والمحلة والقرية هما جميعاً لأهل المدينة، إذاً أن القرية للمدينة على أنها خادمة للمدينة، والمحلة للمدينة على أنها جزؤها. والسكة جزء المحلة والمنزل جزء السكة، والمدينة جزء مسكن الأمة والأمة جزء جملة أهل المعمورة»^(٢).

(١) النويري - نهاية الإرب، مرجع سابق، صفحة ١٣/١.

(٢) أبو النصر الفارابي . - آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق البير نصري نادر، بيروت، ٩٥٩، صفحة ٩٧.

وعلى الرغم من أن لهذا التصنيف طابعاً اجتماعياً - سياسياً حسب تعبير الفارابي نفسه ، فإننا نستشف مما سبق أن الفارابي كان من أنصار المدينة والمدينة الفاضلة بشكل خاص . وكان يطمح لمجتمع مديني متحضر ، فالقرية عنده الجزء غير الكامل وخدمة المدينة ، وقد تكون الكفة في عصره قد بدأت ترجح لصالح المدينة ، على الأقل من الناحية النظرية والفلسفية . لكن الباحث زيعور ، يصف الفلسفة الإسلامية التي أولت قطاع المدينة الفاضلة مكانة خاصة ، بأنها تنظرية وأن هذا قطاع شبه معدوم العلاقة مع شروطه التاريخية وبنيتها المادية ، ويبين أن في الفهم الإسلامي للمدينة ، ثمة تأثيراً في اللاوعي من قبل نموذج محدد هو «المدينة المنورة» . التي تفترض حضورها على أنها «البطل» و«الأب الحامي» والنبع والمثال الذي يحكم ويقود الرؤية المدينية في التجربة العربية الإسلامية داخل سيرورة الإنسان الحضارية^(١) . وبغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا مع هذا الرأي فالمدينة المنورة التي أوحى للمسلمين بالكثير عندما أنشئوا المدن الجديدة ، بقيت من الناحية النظرية والإيحائية «مدينة» .

وبشكل عام يمكن القول أن الفلسفة الإسلامية ، لم تأت بالجديد في المجالات المتعلقة بالعمران والتمدن ، لأنها لم تستمد عناصرها ورؤيتها من جوهر الإسلام ، ولم تطور تلك الفكرة الجينية التي تبلورت في ظل الإسلام ، حيث كانت إلى جانب النمط القروي للحياة وانحازت في المحصلة إلى المدينة ، لأن الفلسفة الإسلامية تواصلت مع الفلسفة اليونانية والمشرقية ، وخاصة في موضع التصنيف المديني والحضري ، ولقد كان الفلاسفة المسلمون متحمسين للمدن أكثر من الفقهاء .

وإن ارتقينا ببعض المفاهيم النظرية والاستنتاجات إلى سوية تعميمية ، فإن قراءة ما سبق توحي ، بأن كافة العوامل كانت تسير في الحضارة العربية الإسلامية لصالح إعادة التوازن لمفهومي القرية والمدينة ، لكي تطابق على ضوء المستجدات

(١) علي زيعور . -مكانة الصحة النفسية والعلاج النفسي في علم المدن الإسلامية ، مجلة الاجتهاد ، العدد السابع ، صفحة ١٠٧ .

الإسلامية نفس القيم والمعايير التي سبقت الإسلام، سواء كانت في الممالك المحلية، أم في حضارات الفرس والروم اليونان. بمعنى أن الفهم الخاص للحضارة ذات الطابع القروي، الذي كان من ضمن منظومة التفكير الحضاري الإسلامي، لم تتجاوز حدودها وصيغتها الجينية، وتوقف تطور هذا المفهوم بل تبددت ملامحه وانهارت أسسه تحت تأثير العوامل العسكرية ومتطلبات بناء المدن، ومستلزمات عمليات الفتوح والمعارك، ومن المعروف أن أغلب المدن التي بنيت في أيام الفتوحات كانت شبه معسكرات للجند، ولا يمكن أن تقوم القرى بوظائف عسكرية على أية حال.

وبالإضافة إلى ذلك ساهم كل من الفقه والفلسفة الإسلامية، وعلماء المنطق والكلام، في تقويض البعد القروي للإسلام إن جاز التعبير.

وتطلب بناء الدولة العربية الإسلامية، وحمايتها، اللجوء إلى مركزية من نوع خاص تداخل فيها الديني والدنيوي، بشقيهما المدني والعسكري.

ويبدو أنه جاءت مرحلة لم يبق فيها شيء، إلى جانب حياة البداوة والتشرف والبساطة، سوى بعض أشعار الحنين إلى البادية والفلاة. وساد نمط حياة المدن وسلطانها الحضري-السياسية.

دلالات القرية في التراث العربي

أحدثت التحولات الاجتماعية في الدولة العربية الإسلامية، تغيرات عميقة للصعيدين المفهومي والمعرفي، للحضارة والبداوة، وفي إطارهما القرية فإذا أخذنا على سبيل المثال سجلاً أدبياً-شعياً مثل ألف ليلة وليلة، يحتوي على الكثير مما هو حيائي وتاريخي وخيالي في قصصه المستمدة بصفة عامة من المجتمع الإسلامي. نجد أن المدينة هي مسرح أحداثها، والتاجر هو بطل القصص، بل نلاحظ ازدياد كراهية واضحتين للبداوة والبدو، كما تبقى القرية مهملة تماماً في أجوائها وفي السياق العام لجغرافية أحداثها^(١).

(١) آزاد أحمد علي، العمارة والمدينة في ألف ليلة وليلة، مجلة الوحدة، العدد ٧٠/٧١، المغرب-١٩٩٠، صفحة ٩٠.

ولعدم الإطالة فإن هذا الاستقرار النظري النسبي، الذي حدث في الفهم الاجتماعي للقرية بحيث عاد إلى سابق عصره، كوحدة سكنية - اجتماعية ناقصة، كان نتيجة منطقية - كما كررنا الإشارة إليه - لتراجع ما أفرزته وأنتجته العقيدة الإسلامية في هذه النقطة، وتوافق كل ذلك على الصعيد العملي، مع بقاء القرية في أدنى السلم الاجتماعي، كتابعة للمدن والقصبات، منتجة ومهملة، هشة البنيان وقصيرة العمر.

لذلك، ومهما نقبنا في بطون كتب التاريخ والأدب، فعلى الأرجح لن نتزود بالمزيد من المعلومات الجديدة - على ضوء اطلاعنا المحدود - والمفصلة عن خصوصية القرية بعمرانها وسكانها في المجتمعات الإسلامية، ومع ذلك ثمة معلومات متفرقة هنا وهناك، وهي كانت لازمة لإكمال اللوحة التاريخية العامة، كما في كتب الأخبار والفتوحات.

ففي كتاب فتوح البلدان، يشير البلاذري، إلى القرى الموجودة في مناطق لفتوحات: «وبلغ أبا عبيدة أن جمعاً للروم بين معرة مصرين وحلب، فلقبهم وقتل عدة بطارقة، وفض ذلك الجيش وسبى وغنم، وفتح معرة مصرين على مثل صلح حلب، وجالت خيوله فبلغت بوقا وفتحت قرى الجومة وسرمين ومرتحوان وتيزين»^(١).

وكذلك يستدل من حديثه عن فتح الرقة، على أهمية القرى المحيطة بها. وركب فطاف حول المدينة ووضع على أبوابها روابط ثم رجع إلى عسكره وبث السرايا فجعلوا يأتون بالأسرى من القرى وبالأطعمة الكثيرة وكانت الزروع مستحصدة»^(٢).

وإن لم يسبر المؤرخون مثل البلاذري غور القرى، ولم يسهبوا في وصفها، فثمة مفكرون وأدباء شغلت ذهنهم القضايا العمرانية، فتحدثوا عن خصوصية

(١) البلاذري . - فتوح البلدان، مرجع سابق، صفحة ١٥٤ .

(٢) البلاذري . - المرجع السابق، صفحة ١٧٧ .

العمران الإسلامي، وبلوروا أفكاراً علمية حول مشكلاتها، فقد تحدث الجاحظ عن تأثير المناخ في مجمل نشاط الإنسان، وخاصة البيئة المدنية.

لقد كانت آراء الفلاسفة والأدباء تختلف وتتضارب حول أفضلية القرية أم المدينة، حتى أن المقارنة بين هواء المدن الفاسد، وهواء البراري النقي، هي من أشهر مواضيع الأدب العربي، إذ كانت جزءاً من ذلك الصراع الشهير بين حياة البداوة وحياة المدن^(١) التي قد تكون نتيجتها غير المباشرة، أو معادلها على الصعيد الرسمي في الدولة ظهور قصور للخلفاء والولاة والأثرياء خارج المدن، دمشق وبغداد والفسطاط والرقّة وغيرها.

ومن خصائص الأدب العربي تناوله المجازي المجرد للعمارة والعمران المشخص وتحويلها من هياكل مادية إلى أخرى روحية، ورفع سوية اللغة الأدبية البلاغية إلى مستويات بنائية، في أنساق غنائية وخطابية بصورة عامة.

فأسامة بن منقذ، عندما خربت الهزة الأرضية المشهورة قلعة شيزر قرب حماه، وما نتج عنها من دمار وهلاك لأهله ولأصحابه، جمع لهذه المناسبة ديواناً شعرياً كاملاً «المنازل والديارات»، مخصصاً للوقوف على الأطلال، وجمع فيه كل ما استطاع من جمعه عن الديارات والمنازل، دون أن يقترب من الموضوع الأساسي. وهو هندسي - عمراني، ولا من علاقة الزلازل بشكل المساكن، ولا حتى من الكارثة الطبيعية التي حلت.

والحقيقة أن أغلب الكتب التراثية التي تتسم بطابع المصنفات والمنوعات، كان واضعوها يسعون جاهدين وراء نقل أخبار العجائب والغرائب من الأبنية والمدن. ويبدو أن المنهجية السائدة في المرحلة التاريخية. هي التي كانت تتحكم بتوجهات المؤلفين وناقلي الأخبار، وانحيازها لوصف ما هو عجيب ومدesh في العمارة، وإهمال عملية وصف الواقع المشخص ومن ضمنه القرى، فعلى سبيل المثال

(١) طريف الخالدي. - دراسات في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، مرجع سابق، صفحة ٧٣.

في الحصر، جاوز الأبشيهي في كتابه «المستطرف من كل فن مستظرف» في تخيلاته نصف ليلة. حيث خصص الباب السادس والستين لوصف المباني العظيمة وعجائب بنيان^(١).

القرية لدى المفكرين الاجتماعيين:

لقد برز مفكرون في الحضارة العربية الإسلامية تناولوا قضايا العمران بشقيها الريفي والبدوي، تناولوا تحليلياً يقارب كثيراً المنهجية العلمية، مثل زكريا القزويني (١٢٠٣ - ١٢٨٣ م) وقد تحدث عن الحاجة الداعية إلى إحداث المدن والقرى على ضوء الحاجات الاجتماعية: «... ثم عند حصول الهيئة الاجتماعية لو اجتمعوا في صحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح. ولو تستروا بالخيام والخرقات لم يأمنوا مكر اللصوص والعدو، ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب، كما ترى في القرى التي لا سور لها، لم يأمنوا صولة ذي البأس فألهمهم الله تعالى اتخاذ السور والخندق والفصيل، فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار، ثم إن الملوك الماضية لما أرادوا بناء المدن. أخذوا آراء الحكماء في ذلك... واتخذوا للمدن سوراً حصيناً مانعاً. وللسور أبواباً عدة حتى لا يتزاحم الناس بالدخول والخروج»^(٢).

وفي مرحلة لاحقة عالج مفكرون كبار قضايا التمدن بمنظار حسي وتحليلي يرتقي إلى مستوى مقارب للتفكير العلمي المعاصر، وخاصة عبد الرحمن بن خلدون (٧٧٩ هـ).

فالخطوة العلمية الجبارة التي قام بها وطورها عن سابقه، هي تلك التي تبين تأثير المناخ والبيئة على العمارة، بصورة مباشرة، وكذلك على سائر نشاطات الإنسان: «فالإقليم الرابع أعدل العمران والذي حافته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال... فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات

(١) شهاب الدين أحمد الأبشيهي. - المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة، ١٩٥٣، صفحة ١٥٧/٢.

(٢) زكريا بن محمد بن القزويني. - آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٦٠، صفحة ٨.

والفواكه . بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال . وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً حتى النبوءات فإنما توجد في الأكثر فيها وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين»^(١) .

ولم يكتف بذلك وإنما وضع وصفاً أساسياً لتصنيف المجتمع حسب نمط المعيشة . فصنف المجتمع إلى قسمين الأول هو البدوي ، أي «البدائي» بمعنى آخر هو الأصل ، وفي شمولية التصنيف هذه ، تضم البداوة حالتي الترحال والاستقرار القروي أيضاً . فيقول : «إن أهل البدو هم المتحللون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام وإنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد مقصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي . يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة ، إنهم هو قصد الاستظلال والسكن لا ما وراءه وقد يأوون إلى الغيران والكهوف وأم أقواتهم فيتناولون بها يسيراً بعلاج أو بغير علاج فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الطعن وهؤلاء سكان المدن والقرى والجبال»^(٢) .

من الملاحظ أن ابن خلدون قد صنّف السكان في التجمعات السكنية ، حسب أعمالهم ومهنتهم . فمن يعمل بالزراعة وتربية المواشي وهم من البدو ، لا بد أن يكونوا من سكان القرى والقصبات . وعمارتهم عندئذ تكون بسيطة وطينية ، أو من الحجارة غير المنجدة .

ويكمن جل أهمية تناول ابن خلدون للظاهرة العمرانية - المدنية في عصبية

(١) ابن خلدون . - المقدمة ، طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بلا تاريخ ، صفحة ٨٢ .

(٢) ابن خلدون . - المرجع السابق ، صفحة ١٢١ .

التصنيف الاقتصادي - الاجتماعي للتجمعات السكنية، حيث المدينة مركز للتجارة والحرف والقرية تتركز فيها النشاطات الزراعية وتربية الحيوانات، كما وضع سلماً اقتصادياً للقرى والمدن حسب تدرج دخل الفرد فيها، فالقرية تقع في أدنى السلم، ومن ثم يعلوها القصباء فالمدن. وأفضل المدن هي تلك التي يتمتع سكانها بأكبر دخل اقتصادي، وأكد أن المدينة هي تلك التي تلبي كل حاجات ومتطلبات سكانها من الضروريات والكماليات في حين أن القرية تؤمن أساسيات العيش فقط.

واقفاً تحدث عن الهجرة من القرية إلى المدينة، وفي إطار فهمه لعملية التحضر وتحول الجماعات البشرية من البداوة إلى الحضارة، يرى أن القرية هي الأساس وأن المدن تنشأ في أحضانها، وإن سكان المدن هم بالأصل من القرى المحيطة بها، وأدرك ابن خلدون التحول التدريجي للقرى إلى المدن، بكل ما يرافق عملية التحول هذه من تغيرات، إلا أنه أيضاً يؤمن بعملية التراجع العكسية، أي تحول المدن إلى قرى باضمحلالها وخرابها^(١).

وإن لم تكن هذه الفكرة صحيحة تماماً فإنها تبدو منسجمة مع منظومة الفكر الخلدوني الاجتماعية، حول تفكك الدول والحضارات بفقدانها «العصبية» تلك المرافقة للبداوة والموجودة في القرى، وعند الجماعات شبه القروية.

ولكن لا نغني بكل ما سبق أن ابن خلدون كان محبباً للحضارة ذات السمة القروية أو البدوية المبنية على أساس العصبية، ولم يكن أيضاً من أنصار المدينة المترفة التي تفقد العصبية. لقد كان مفكراً يفسر حركة التاريخ بتحليل اجتماعي متعمق. كما أن لفكره صفة تأملية تلقن الدروس والعبر، ولا يعتقد الباحث أن لمجمل الفكر الخلدوني تأثيراً فاعلاً على توجهات الدولة الإسلامية، ولا على المزاج الاجتماعي، حول أفضلية القرية أم المدينة. لأن هذا الفكر جاء في مرحلة متأخرة، وكان نتيجة لمحصلة التفاعلات التي حدثت والتي اتسمت بالاستقرار في مفاهيم التمدن.

(١) آزاد أحمد علي - العمارة في مقدمة ابن خلدون، بحث أنقي في المؤتمر الثالث عشر لتاريخ العلوم عند العرب، طرطوس، ١٨ أيار، ١٩٨٩.

كما أن المرحلة التي أسس ابن خلدون فيه فكره، مرحلة تراجع حضاري على أكثر من صعيد في المجتمعات الإسلامية، ومع ذلك تبقى لقوة أفكاره أهمية نظرية معرفية وتاريخية.

وعلى صعيد آخر، وفي معرض المقارنة بين مفهومي الماوردي وابن خلدون يعتقد الباحث رضوان السيد أن الماوردي أكثر منطقية في أفكاره من ابن خلدون: «ذلك أن التصور العضوي للاجتماعي البشري عنده تدرج فيه المدينة لكونها مرحلة الكهولة والشيخوخة. صحيح أنه يود لو كان الأمر غير ذلك. لكن هذه طبيعة التطور التي لا يمكن نقضها بل قدر المستطاع تلطيفها عن طريق مصر المزارع والسود. أما ابن خلدون الذي يرى الحضارة غاية للبداوة من ضمن تصوره العضوي المحتوم للاجتماع فإن المدينة تبقى على الرغم من ذلك عنده وجوداً صناعياً يرغب عليه الملك، ويتناقض هذا مع التصور العضوي الذي يمتلكه كما يتناقض مع المعطيات التاريخية الإسلامية التي تشهد بإقبال الناس على الأمصار سعياً وراء الحصول على الميزات المعيشية والثقافية التي تحققها لهم بخلاف الريف والبادية. وليس من تاريخ التحضر الإسلامي ما يؤكد كراهية الناس للمدينة إلا بعض أشعار الحنين في صدر الإسلام. ثم ما يقال من أن شيخ المرابطين الأول أبا بكر بن عمر خرج من الحواضر المغربية تاركاً السلطة فيها لقريبه يوسف بن تاشفين إثارةً لحياة البادية والريف الطليقة على حياة الحاضرة المقبضة»^(١).

فالجدید الذي قدمه الماوردي هو تفضيله لمصر المزارع والسود على غيرها من أمصار التجارة، بمعنى أن ما هو ريفي زراعي مفضل لديه على المدني التجاري. على الرغم من استخدام مصطلح المصر في الحالتين، وتوجد قواسم مشتركة عديدة بين الماوردي وابن خلدون خاصة تناولهما الاجتماعي - الاقتصادي لقضايا ومعضلات التحضر.

(١) رضوان السيد - دراسة في رؤيتي الماوردي وابن خلدون، الاجتهاد، العدد السابع، صفحة ٢٣٥.

الفصل السادس

القرى لدى الرحالة والبلدانيين

القرية في معاجم البلدان وتصانيف الجغرافيين:

لقد كانت الجغرافيا وتصانيف البلدان، من العلوم التي نالت الاهتمام في الحضارة الإسلامية وشجعت على تطوير الكتابة في مختلف مجالاتها، لأن الدولة العربية الإسلامية توسعت كثيراً، وكان من الضروري معرفة خصائص أصقاعها البعيدة، والطرق التي تصل إليها بسهولة، وإن كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه، من أوائل هذه الكتب، التي تعود إلى عام (٢٥٠هـ).

والقصد من وراء البحث في بطون هذه الكتب، هو معرفة وتعقب أخبار القرى. ومن ثم رسم صورة، قد تكون أوضح مما هي عليه، في حال الاعتماد على المصادر التاريخية العامة، وأخبار الأمراء، فكتابات البلدانيين تبدو أكثر اهتماماً بالمحيط المادي - الحضري.

ومع أن منطق كتاب المسالك ضعيف من الناحية العلمية، لاعتماده النقل عن المتحدثين إلا أنه مليء بالصور والأخبار المفيدة لموضوع البحث، فالكتاب يعج بأسماء البلدان وهو مركز في موضوعاته على التقسيمات الجغرافية، ومن ثم الطرق الواصلة باختصار بين المدن، ومما لاشك فيه أن العديد من القرى كانت موجودة على هذه الطرق، ولكن ليس بالضرورة أن تكون أهمها، أو أغلبها، لكي يتم الإشارة إليها، وينقل لنا أوصافها.

ومع ذلك يبقى هنالك العديد من المعلومات التي يمكن توظيفها في البحث،
للمساهمة في وضع ملامح النسيج الحضري في الريف، في تلك المرحلة المبكرة
نسبياً: «والرقعة وهي واسطة ديار مضر وهي الرافقة وحران وهي بالرومية
هالينوس . . . والرها وسميساط وسروج ورأس كيفا والأرض البيضاء وتل موزن
والروابي»^(١).

وعن بلدان الخابور يقول: «الصور والفدين وماكسين والشمسانية . .
والسكير وعرابان وطابان، وتنينير العليا وتنينير السفلى وسماعاً فهذه المدن على
الخابور والمنازل في الرقة إلى دوسر ثم إلى بالس، وقد عبرت الفرات، ثم إلى
خشاف ثم إلى الناعورة ثم إلى حلب ثم إلى قنسرين وكورها»^(٢).

ويستنتج مما سبق أن أغلب تلك البلدان ظلت كما هي، وبحدود متباينة ولم
تتطور كثيراً باستثناء حلب التي كانت مركز «كورة» مثلها مثل قنسرين، فتحولت
إلى مدينة كبيرة.

وفي كتاب الخراج وصناعة الكتابة الديوانية، باب حول ديوان البريد والسكك
والطرق إلى نواحي المشرق والمغرب، الذي يأتي في تاريخ كتابته بعد كتاب ابن
خرداذبه، أي حوالي عام (٢٦٦هـ) لذلك كرر قسماً من معلوماته: «هذا الباب
جامع للقرى والمنازل والبلدان، إلا أنه لم يترجمها بما ينسب إليها من النبات
والطباع والغرائب وإلى غير ذلك وإنما ذكر أسماءها على وفق غرضه»^(٣).

وكما نجد في التعليق السابق على الكتاب، لم تتوافر في الكتابين السابقين
صيغة معمقة لوصف الخواضر والأرياف، على الرغم من أن ابن خرداذبه خصص
فصلاً لعجائب البنيان، لكنه كالعادة كان يصف أبنية المدن. فقد تحدث من ضمن

(١) و(٢) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبه. - المسالك والممالك، طبعة ليدن، ١٣٠٩هـ،

صفحة ٧٤.

(٣) أبو الفرج. - قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، الخراج وصناعة الكتابة. طبعة ليدن، ١٣٠٩هـ،

صفحة ١٨٤.

ما تحدث عن عجائب العمارة . عن كنيسة الرها وكنيسة منبج ، المشيدة من خشب العناب^(١) . ولم يتطرق لأحوال القرى . في حين نجد اهتماماً ملحوظاً عند ابن حوقل بالقرى (٣٦٧هـ) وربما طرأ تغير على أحوال القرى ذاتها ثم تحسنت في عهده ، وفي معرض حديث ابن حوقل عن مدينة منبج - التي يبدو أنها كانت متميزة حتى عام ألف ميلادية - تطرق لوصف قراها : «ومنبج من الكروم ، الأعزاء - على وجه الأرض في سائر ضياعها ، ما يزيد على الكثرة ويحمل أربتهم إلى حلب وغيرها»^(٢) .

ويشير أيضاً إلى وجود قرى حول نصيبين : « . . . وكان لهم مع ذلك فيما بعد المدينة ضياع مباحس كبار جليلة عظيمة غزيرة السائمة والكراع ، دارة الغلاة والنتاج معروفة الفرسان مشهورة الشجعان ، إلى ديارات النصارى وبيع وقلايات ، تقصد للنزهة وتنتجع للفرجة والفرج»^(٣) .

وعلى الرغم من إشارات ابن حوقل الواضحة لوجود أهمية هذه القرى ، وفعاليتها الاقتصادية في شمال سوريا ، فإنه لم يذكر شيئاً عن عمارتها ، ومن المعتقد أنها طينية - لعدم ذكره لمادة أخرى - وإن دلت كثرة عددها على شيء فإنما تدل على الاستقرار الحضري بشقيه المديني والريفي ، وربما كان لاستقرار الأوضاع السياسية وسيادة الأمن دور في ذلك . واللافت للنظر أن جل اهتمام ابن حوقل مع معاصريه وسابقيهم من الجغرافيين قد انصب على معرفة الطرق والأقاليم والمياه (قليلة ، جارية ، عذبة ،) .

لأهمية هذين الشريانين الحيويين في الدولة ، وللحاجة الماسة لمعرفةهما بشكل دقيق ، ولكن ياقوت الحموي بمعجمه الموسوعي «معجم البلدان» قدم معلومات في غاية الأهمية ، لمعرفة القرى والمدن وعلى الرغم من منهجه الذي يعتمد بدوره على الروايات . وكذلك استنتاج أسماء القرى من أنساب العلماء والمشاهير تارة ، ومن

(١) ابن خرداذبه . - مرجع سابق . صفحة ١٦٢ .

(٢) أبو القاسم ابن حوقل النصيبى . - صورة الأرض . بيروت ، بلا تاريخ ، صفحة ١٦٦ .

(٣) ابن حوقل ، المرجع السابق ، صفحة ١٩١ .

الشعر تارة أخرى ، فإن استطراداته وقراءته التاريخية ومشاهداته ، تساهم في رسم الخارطة العمرانية لكثير من المناطق في الدولة العربية الإسلامية في القرن السابع الهجري ، كما قدم معلومات تاريخية عن القرى من المراحل التي سبقته اعتماداً على مصادر تاريخية سبقته ، ففي معرض حديثه عن القرى في ضواحي حلب يقول : «وقرأت في تاريخ ألفه أبو غالب بن المهذب المعري : إن سيف الدولة بن حمدان لما عبر الفرات في سنة ٣٣٣ هجرية ، ليملك الشام ، تسامع به الولاة فتلقوه من الفرات ، وكان فيهم أبو الفتح عثمان بن سعيد والي حلب من قبل الأخشيد ، فلقيه من الفرات ، فأكرمه سيف الدولة وأركبه معه وسائره . فجعل سيف الدولة كلما مر بقرية سأله عنها فيجيبه ، حتى مر بقرية ، فقال : ما اسم هذه القرية ؟ فقال : أبرم . فسكت سيف الدولة ، وظن أنه أراد أبرمه وأضجره بكثرة السؤال ، فلم يسأله سيف الدولة بعد ذلك عن شيء . حتى مر بعدة قرى ، فقال له أبو الفتح : يا سيدي وحق رأسك أن اسم القرية أبرم ، فاسأل من شئت عنها ، فضحك سيف الدولة وأعجبته فطنته»^(١) .

وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على كثرة القرى ، بين الفرات وحلب في تلك الآونة المبكرة من تاريخ الدولة الإسلامية ، وعن القرى التي كانت إقطاعات لبعض المشاهير يقول : «سبعين : قرية بباب حلب كانت إقطاعاً للمتنبّي من سيف الدولة ، وإياها عنى بقوله :

أسير إلى إقطاعه في ثيابه على طرفه من داره بحسامه^(٢)

والأهم من كل ذلك أن ياقوت سكن حلب ، ويبدو أنه كتب معجمه هذا فيها حيث يقول : «وكان فراغي من هذه المسودة في العشرين من صفر سنة ٦٢١ هجرية بثغر حلب»^(٣) .

(١) ياقوت الحموي . - معجم البلدان ، صفحة ١ / ٧٠ .

(٢) المرجع السابق ، صفحة ١٨٥ / ٣ .

(٣) المرجع السابق ، صفحة ٤٥٧ / ٥ .

ويشير في مناسبة أخرى إلى ذلك بقوله عن حلب : «وفي العام الماضي وهو سنة ٦٢٥ هجرية . . . » . لذلك فمن غير المستغرب أن حديثه عن معظم مناطق حلب ، ضواحيها وريفها مفصل ومسهب . ويدل على الثقة بمعلوماته ، ومؤشر على سعة اطلاعه . وإن عدد القرى التي نسبها إلى مناطق حلب ومحيطها كبير جداً ، لدرجة يضيق المجال ويصعب عن حصرها هنا . فبعضها اندثر وبعضها الآخر ما زال قائماً إلى يومنا هذا ، كقرية بزاعة وبلدتي تادف والباب والسفيرة وقرى تل عرن ودير حافر والنيرب وسيتم الاستشهاد بما أورده عند التطرق لهذه القرى ، في الدراسة الميدانية .

وكان ياقوت دقيق الملاحظة ، يراقب حياة القرى والمدن التي يمر بها ، ففي معرض حديثه عن «دنيسر» يبين كيف أن القرية انتعشت وتحولت إلى بلدة في غضون سنوات : «دنيسر : بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان ، لها اسم آخر يقال لها قوج حصار ، رأيتها وأنا صبي وقد صارت قرية ، ثم رأيتها بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة وقد صارت مصراً لا نظير لها كبراً وكثرة أهل وعظم أسواق ، وليس بها نهر جار ، إنما شربهم من آبار عذبة طيبة مريّة ، وأرضها حرة وهوأؤها صحيح»^(١) .

كما تابع ياقوت أسباب خراب واندثار بعض القرى مثل قرية بنارق وتفرق سكانها في البلاد : «قرية بين بغداد والنعمانية مقابل دير قني من أعمال نهر ماري على دجلة ، وهي الآن خراب ، وكان السبب في خرابها مداومة العساكر السلجوقية ومرورهم عليها ونزولهم فيها»^(٢) .

لا شك أن ياقوت قد أفادنا بمعلوماته عن القرى والمدن ، وخاصة تلك التي تندرج في إطار هذا البحث ، وعلى الرغم من معرفتنا وتصوراتنا لها ، على الرغم من أنه يعتمد على التقسيم الظاهري للقرى والمدن ، بمعنى الاعتماد على الحجم

(١) ياقوت الحموي . - معجم البلدان ، صفحة ٤٧٨ / ٢ .

(٢) المرجع السابق ، صفحة ٤٩٦ / ١ .

بشكل أساسي، فيسمى أحياناً تجمعاً سكنياً بقرية كبيرة وآخر بقرية فيها أسواق، ويسمى تارة بعض التجمعات بالبلدة دون ذكر الأسباب لتصنيفاته، فيبدو أنه لم يعط للنواحي الإدارية والاقتصادية أهمية توازي الخصائص المعمارية والسكانية.

القرية لدى الرحالة:

للرحلات موقع مميز في التراث الثقافي العربي الإسلامي، فهي مكحلة لنشاط البدائيين ومتداخلة مع كتاباتهم من جهة، وتعدّ الرحلة من مكونات القوانين الداخلية للحضارة الإسلامية من جهة أخرى، سواء كانت الرحلات تجارية، أم لطلب العلم والمعرفة وبغية لقاء المشايخ. ولقد كان لفريضة الحج دور مهم في إدراج ظواهر الترحال المنظمة في حياة المسلمين. وقد هيأت الدولة ما يلزم لسلامة هذه الرحلات على الطرق، ووفرت لها الخانات والسبل وغيرها، ولكن ليس كل من سافر في التاريخ الإسلامي خلّف أثراً مكتوباً عن رحلته، وبالتالي يوفر لنا معلومات عن رحلته ومشاهداته، ولقد أشار الباحث حسين فهم إلى أن الإسلام شجع الرحلات: «ونالت الرحلة الإسلامية حقها الكامل من الاهتمام والأمان من ناحية، واستحقاقها الفعال من قوة الدفع والخوافز على الطريق في البر والبحر من ناحية أخرى، وواصل نفر نشيط من المسلمين أصحاب الخبرة في الرحلة أداء دورهم الوظيفي والخروج في الرحلة لإنجاز المهام المنوطة بهم»^(١).

ولكن للأسف لم يكن وصف القرى وعمارتها من ضمن تلك المهمات، إلا ما ندر. فكان هاجس الرحلة البحث عن الجديد بكل ما فيه من غريب ومجهول. بالنسبة للآخرين. ولكن الرحالة ابن جبير الذي عاصر صلاح الدين الأيوبي قد تحدث بشكل واضح عن القرى التي مر بها، وقد يعود ذلك إلى حبه للقرى، أو الاستقرار السياسي والأمن الذي ساد المنطقة في عهد الأيوبيين قد ساهم في انتعاش الحياة الريفية، كما أنه من المتوقع أن خط سير الرحلة الذي اتخذه هو خط سير الحجاج. وبالتالي فهو طريق له مردود تجاري واقع تحت حماية الدولة وبالتالي

(١) حسين محمد فهم. - أدب الرحلات، الكويت، ١٩٨٩، صفحة ٩٣.



الشكل رقم (٦-١)

قبا ب من حران - عن جريدة «أضواء الأنباء» التركية - حزيران ١٩٨٨ م.

متنّش من الناحية العمرانية: « . . . والقرى والعمائر من هذا الموضع إلى الموصل متصلة ومن هنا ينتشر انتظام الحاج في المشي . فينبسط كل في طريقه، متقدماً ومتأخراً، وبطيئاً ومستعجلاً، آمناً مطمئناً»^(١).

وللحقيقة فإن ابن جبّير لمحب لوصف العمائر والأبنية، فقد أسهب في وصف أسواق حران «المسقوفة كلها بالخشب» وكذلك أسواق حلب الشهيرة. وقده ملاحظات حول كثافة وجود القرى، أو عدم وجودها في المناطق التي مر بها، وبين أنه لا توجد قرى بين رأس عين وحران، وهي قليلة جداً حتى الآن لكون هذه الرقعة ذات مناخ شبه صحراوي، وكذلك كانت القرى قليلة بين حمص ودمشق للسبب ذاته. في حين قدم تفصيلات عن قرى أخرى مر بها، فإثر وصوله إلى نصيبين أبدى الملاحظات التالية: «فكان نزولنا بها في خان خارجها، وبتنا بها ليلة الأربعاء ورحلنا في صبيحته في قافلة كبيرة من البغال والحمير حرانيين وحلبيين وسواهم من أهل البلاد، بلاد بكر وما يليها . . . ورأينا عن يمين طريقنا، بقرب من سفح الجبل مدينة داري العتيقة، وهي بيضاء كبيرة، لها قلعة مشرفة، ويليهما بمقدار نصف مرحلة ماردين».

ثم يتابع: «فاجتزنا على قرية كبيرة لها حصن، تعرف بتل العقاب - وهي للنصارى المعاهدين الذميين، ذكرتنا القرية بقرى الأندلس حسناً ونضارة، نخيل البساتين والكروم وأنواع الأشجار، وينسرب بإزائها نهر ترف الظلال عليه، وخض متسع، والبساتين قد انتظمت وشاهدنا بها من الخنايص - ولد الخنزير - أمثال عد كثرة وأنسنا بأهلها، ثم وصلنا عشيّ النهار إلى قرية أخرى تعرف بالجسر هي . . . لناس من المعاهدين وهم فرقة من فرق الروم . . . ووصلنا مدينة رأس عين في الظهر»^(٢). وعن بلدة رأس عين يقول: «وشأن هذا الموضوع عجيب جداً - حسن القرى بشرقي الأندلس أن يكون مثل هذا الموضع جمالاً . . . وأما -

(١) ابن جبّير - رحلة ابن جبّير - تحقيق: حسين نصار، دار مصر . ١٩٥٩، صفحة ٢١٩.

(٢) ابن جبّير - المرجع السابق، صفحة ٢٢٧-٢٢٩.

فللبداوة بها اعتناء، وللحضارة عنها استغناء، لا سور يحصنها ولا دور أنيقة البناء تحسنها، وهي مع ذلك كاملة مرافق المدن، ولها جامعان حديث وقديم»^(١).

ونستشف من وصفه أن عمارة رأس عين كانت بسيطة وقروية في حينها. ومن الواضح أن ابن جبير كان يمتلك حساً دقيقاً للتمييز بين المدن والقرى، فعدم وجود سور في رأس العين جعله يشك في مشروعية عدّها مدينة في حين وجود مسجدين فيها حسم الموقف لديه، وعلى نفس المنوال يصف «بزاعة» بأنها تصغر عن مدن وتكبر عن القرى. ولكنه يصف بلدة الباب «بأنها قرية كبيرة»^(٢).

بعد هذه المرحلة بمدة قصيرة نسبياً، مر الرحالة ناصر خسرو بالمناطق السابقة في أعوام (٤٣٨هـ - ٤٤٤هـ)، ويستنتج من وصفه، أن العمران الريفي كان قد تراجع عن سابق عهده، بالمقارنة مع ما أورده ابن حوقل وابن جبير، «وفي يوم السبت ثنائي من رجب ٤٣٨هـ / ١٠٤٧م بلغنا مدينة سروج، واجتزنا الفرات في اليوم التالي ونزلنا في منبج وهي أول مدن الشام. . . والطقس هناك معتدل جداً، ولم يكن خارج المدينة عمارات قط، وقد سرت منها إلى حلب»^(٣).

إن قلة اهتمام كل من ناصر خسرو وابن بطوطة في مرحلة متأخرة من بعده (٧٥٦هـ) بالقرى وانصباب اهتمامهما على المدن الكبيرة والمشهورة، قد يكون لها سببان: الأول: تراجع في بنية النسيج العمراني الريفي، وانكماش القرى على محاذاة الطرقات، التي مروا بها. وهذا التراجع بدوره كان نتيجة لتدهور الظروف المعاشية والاقتصادية في الحضارة العربية الإسلامية خاصة في الأرياف. والثاني: أنهما أرادا على ضوء منهجهما، تسجيل المسائل والأمور الغريبة في رحلتيهما - وهذا واضح من عنوان رحلة ابن بطوطة - لذلك تحدثا عن المدن والبلدان لأجنبية. وعن المدن الإسلامية الهامة، فوصفا أوابدها، وخاصة الدينية منها

(١) المرجع السابق، صفحة ٢٣١.

(٢) المرجع السابق، صفحة ٢٣٨.

(٣) ناصر خسرو - سفرنامه. ترجمة: يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥، صفحة ١٠.

والمقدسة، لقد كرر ابن بطوطة الحديث عن أسواق حلب المسقوفة بالخشب، وعن محيط المدينة: فقال: «أما خارج المدينة فهو بسيط أفيح عريض به المزارع العظيمة وشجيرات الأغاب منتظمة به والبساتين على شاطئ نهرها»^(١).

ويبدو أن العمران الريفي تراجع بدءاً من عهد المماليك، ففي رحلة قايتهاي إلى بلاد الشام (٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م) التي دونها ابن الجيعان، وعلى الرغم من مروره بكل من حلب وانطاكية والفرات وحمص وحماء فإنه لم يُشر إلى وجود القرى إلا بإشارات خاطفة، وانصب كل اهتمامه على حياة السلطان، أثناء السفر. ونشاطاته ولقاءاته مع الولاة والوجهاء، فكان «الملك الأشرف» محور الرحلة الرئيسي، وعند ذكره لاسم بعض القرى المشهورة كمرج دابق وخان طومان وغيرهما لا يتحدث عن عمارتها نهائياً. وفي كل الرحلة ثمة ثلاث إشارات إلى المسائل المعمارية الأولى إن عمارة البيرة على الفرات من الحجر وفي الثانية بين أن شوارع حماة مرصفة بالحجر الأسود، وفي الثالثة يخبرنا عن أسقف بيوت انطاكية على أنها بشكل جمالونات^(٢). لقد كان الزمن ودقة قيام وعود الملك هما الأهم بالنسبة إليه، على الرغم من أن الرحلة بدأت في القاهرة إلى فلسطين فالساحل السوري فالمناطق الشمالية منها من الفرات ودامت أربعة أشهر، وكان من الممكن أن تحوي أخباراً مهمة عن القرى لولا أسلوب الكاتب، وتراجع أهمية القرى.

ولم تكن القرى بخير في العهد العثماني على الرغم من توافر إشارات عديدة لوجود القرى ونظام تابعيتها للمدن، وأشكال ملكيتها لخواص الفرسان والإقطاعيين، والقرى التي هي وقف للحرمين الشريفين أو للجوامع والأضرحة.

(١) أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، المعروف بابن بطوطة، تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٢٢، صفحة ٤٩.

(٢) ابن الجيعان. - القول المستطرف في سفر مولانا الملك الأشرف «رحلة قايتهاي إلى بلاد الشام»، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. جروس برس. ١٩٨٤، صفحة ٦١.

كما أوضح الباحث العطار نقلاً عن أمين العمري ، بمعلوماته عن القرى في شرق الموصل التي بغت أكثر من مئتي قرية ، وهي في الواقع ترسم النموذج العام لوضع القرى في العهد العثماني^(١) .

وفي كتب الرحالة الأوروبيين أوصاف دقيقة للقرى والأبنية ، ولكنها منحازة ، حتى تلك القديمة منها ، كرحلة بنيامين اليهودي ، التي لا ترد فيها سوى أرقام مبالغه جداً عن عدد اليهود في القرى والمدن ، عن نصيبين يقول : «بلدة عامرة وفيرة المياه فيها نحو ألفي يهودي وعلى مسيرة يومين منها . . . جزيرة ابن عمر . . . وقيم فيها نحو أربعة آلاف يهودي»^(٢) .

ومن أفضل الأوصاف التي قام بها الرحالة الأوروبيون هو وصف الرحالة الفرنسي تافر نيه والذي يغطي القرن السابع عشر الميلادي ، وكثيره من الأوروبيين يبدو منحازاً ومتحاملاً على عمران المنطقة ، فيصف القرى والبلدان بأنها «حقيرة» . وإن كان ثمة أرضية موضوعية لهذا الوصف بسبب اندثار القرى العامرة شرق مدينة حلب : «إنك بعد أن تبعد فرسخين (٥ كم) أو ثلاثة فراسخ من حلب تدخل البادية فلا يقع نظرك على غير الخيم المنصوبة بدلاً من المساكن المشيدة»^(٣) .

وعن رحلته الثالثة إلى الهند ومروره بحلب عام (١٦٤٣م) يصف إحدى المحطات في الطريق إليها : « . . . وهو كهف يلجأ إليه غالباً البدو أو رعاة البقر الذين يعيشون عيشة الأعراب ، إما في كهوف أو في أكواخ حقيرة»^(٤) .

ويبدي ضجراً من عمارة أورفا فيقول : «وأسوار المدينة مبنية بالحجارة وكذلك الشرفات والأبراج ، أما البيوت ضمن المدينة فصغيرة الحجم حقيرة البناء ، مهدامة» .

(١) عماد عبد السلام العطار . - الموصل في العهد العثماني ، النجف ، ١٩٧٥م ، صفحة ٢٧٠ .

(٢) بنيامين بن يونه التطلي النباري الأندلسي ، ترجمة : عزرا حداد ، بغداد ، ١٩٤٩ ، صفحة ١٢١ .

(٣) تافر نيه . - العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافر نيه ، ترجمة : بشير فرنسيس ، وكوركيس عواد ، بغداد ١٩٤٤ ، صفحة ١٧ .

(٤) المرجع السابق ، صفحة ٤١ .

ويتابع الوصف خارج أورفا «غادرنا أورفا فحللنا بعد ست ساعات في قرية حقيرة فيها خان خرب، وفسقية ذات ماء ثير وهذا ما يرتاح إليه المرء في تلك القرية»^(١).

فمن المعتقد أن تدهوراً وتراجعاً قد حدثا للعمران الريفي منذ مطلع العهد العثماني، باستثناء بعض التجمعات السكنية على الطرق وكذلك بعض الخانات التي تخدم المسافرين والقوافل»^(٢).

ومع ذلك لا يمكن الاعتماد كلياً على أوصاف الرحالة، وآرائهم التي قد لا تكون صحيحة بالضرورة، ولكن تمحيص تلك الآراء هو الذي يحدد في النهاية التصور العام للمحيط الريفي، وعن السيريين نصيبين والموصل يقول: «وقد مكثنا في هذه المدينة ثلاثة أيام بلياليها، لتزود بالطعام الذي يكفيننا حتى الموصل التي تبعد مسيرة خمسة أيام عن نصيبين لأن المنطقة بين هاتين المدينتين مقفرة خالية من السكان، ولا يوجد الماء إلا في موطنين... سرنا عشر ساعات، ثم نزلنا قرية حقيرة لم نجد فيها ما نأكل»^(٣).

أما في القرن الثامن عشر، فقد وصف الرحالة الفرنسي أوليفيه عمران المنطقة، إثر مروره بكل من أورفا وماردين ونصيبين، وكذلك يؤكد على قلة القرى، وبساطة أبنيتها إن وجدت. ويقول عند وصفه لنصيبين: «وهي ليست سوى قرية مزرية لا يكاد سكانها يبلغون ألف نسمة، معظمهم تقريباً من الأكراد والعرب، كما أن فيهم بعض الأرمن واليعاقبة الذين يعتاشون على مرور القوافل. والقرية هذه مشيدة على مقربة من النهر في موقع المدينة القديمة. أزقتها ضيقة جداً وغير متناسقة إطلاقاً كما أنها ليست مبلطة البتة، والبيوت واطئة، وغير مريحة، وليست مشيدة بشكل جيد، تشتمل على فناء غير مبلط ولا مسيح، الحيطان من

(١) تافرنيه. - مرجع سابق، صفحة ٤٩.

(٢) إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني. - تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، تحقيق: رجاء محمود السامرائي.

(٣) تافرنيه. - مرجع سابق، صفحة ٥٨.

طين، والسقوف من قش، يضعون فوقها طبقة من طين يخلطونه بطين اتقاء المطر»^(١). ويشير باقتضاب إلى وجود بعض القرى المتناثرة بين نصيبين والموصل يسكنها العرب والأكراد مع كثرة وجود قطعان أغنام الرحل^(٢).



الشكل رقم (٦-٢)
قرية دوكر

ومما سبق يتم التأكيد على التراجع العمراني في شمال سوريا في العهد العثماني بالمقارنة مع أوصاف البلدانين في عهودها السابقة، كما نستفيد من وصف

(١) أوليفيه. - رحلة أوليفيه إلى العراق (١٧٩٤- ١٧٩٦م) ترجمة: يوسف حجي، بغداد، ١٩٨٨، صفحة ٣١.

(٢) المرجع السابق، صفحة ٣٩.

أوليفيه الدقيق لأبنية نصيبين بأن طريقة البناء هي ذاتها حتى يومنا هذا في قرى الجزيرة بشكل عام .

وفي مرحلة لاحقة مر مفتي بغداد الألوسي سنة ١٢٦٩ هجرية من الجزيرة السورية في طريقه إلى استنبول . ويتحدث في رحلته عن عدة قرى مازالت قائمة حتى الآن : «وسرنا في طريق وعرة فزلنا في الساعة التاسعة قرية تسمى عبوده .

وتشتمل من البيوت على نحو سبعين وكلها على ما أخبرت من المسلمين وفيها جامع تقام الجمعة والجماعة فيه وهذه القرية قرب قرية دارا»^(١) .

وينبغي ألا يغيب عن الذاكرة أن دارا كانت مدينة ، فالقرية إذا قامت على أنقاضها ، وهذا مؤشر على اضمحلال وتراجع أغلب المدن ، إلى حالة قروية كما حدث لنصيبين ودارا بشكل خاص . ومن الأهمية القول أن الألوسي عندما غادر نصيبين إلى الموصل توقف في قريتين مازالتا قائمتين على نفس طريق الموصل ، وهما دوكر وجل آغا : « . . . حللنا قرية دوكر . . . وتشتمل من البيوت على نحو مائة وقد بلغ كل منها في الضيق الغاية وهي على هام تل كبير عال وبينها وبين نصيبين تل الذهب وتل الشعير» ثم يتابع : « . . . جئنا جلغا . . . قرية تشتمل من البيوت على نحو تسعين ومعظم أهلها والحمد لله تعالى من المسلمين ، ولها ماء غير يجري وهواء لطيف»^(٢) .

وفي الواقع لم تتطور قرية دوكر لكن جل آغا التي سميت مؤخراً «الجوادية» قد تحولت إلى مركز ناحية ، وأنشئ على نهرها سد ترابي .

(١) محمود أفندي آلوسي زاده . - رحلة الألوسي للأستانة ، طبعة بغداد ، ١٢٩٣ هـ ، صفحة ٩٠ .

(٢) المرجع السابق ، صفحة ٩٢ .

الفصل السابع

القرية في العصر الحديث

إن النسيج القروي الراهن، هو في الواقع وريث، واستمرارية للاستقرار العمراني الذي تم في أواخر العهد العثماني، لذلك ستكون هذه الفقرة عبارة عن مدخل للدراسة الميدانية، الهندسية - الاجتماعية للقرى في مناطق شمال سوريا، شرق مدينة حلب.

في الواقع: المعلومات متوافرة عن القرى في أواخر القرن الماضي وبدايات هذا القرن. فعندما مر سون من حلب على تخوم هذا القرن أثار انتباهه عمارة قراها: «غادرنا حلب في عربتنا، وعلى مسيرة دقائق قليلة خارجة، وعلى الرتبة، لو أرسل المرء نظره إلى ما حوله لما رأى إلا الصحراء السورية الصفراء المجردة إلا من تلال تتناثر على أديمها، وقد تعكر هذا الخلاء في الأحيان، قرى الأعراب، وكأنها ركام مساكن النمل، إن طراز العمارة حتى الفرات يشبه كلات السكر دوماً»^(١).

وعند عبوره الفرات، يعيد نفس الملاحظة عن المنازل المبنية على شكل قباب: «... حين أبصر السائق سقوفاً تشبه (كلات سكر) خارج الطريق توقفنا لمحادثة سكانها، وجاء رجлан، والظاهر أنهما كانا من العرب، وما إن كلم أحدهما صاحبه بكلمات قليلة، حتى وجدناهما من الأكراد... وكان أن نزلت ثلاث

(١) أي. بي سون. - رحلة متكر إلى بلاد ما بين النهرين وكردستان، ترجمة: فؤاد جميل، بغداد، ١٩٧٠، صفحة ٤٧.

درجات ، ثم مررت من دهليز مظلم لأجد نفسي ، بعد ذلك ، في حجرة مدورة ، سقفها أشبه شيء بكرة السكر ، لكنه غير منظور في ظلمة ، لم تبددها لمبة من وقيد يحترق»^(١).

ومن تحديده للمكان والمسافة التي قطعها بعد الفرات شرقاً ، نتبين أنه بات ليلته في إحدى قرى منطقة «عين العرب» حالياً التي ما زالت تحتفظ في الغالب بنفس الطراز من الأبنية الطينية ، إلا أن مقطعها من الأسفل ، أي المسقط الأفقي للحجرات أصبح مضلعاً ، وليس دائرياً كما وصفه سون .

ويعيد الرحالة المصري محمد ثابت نفس الملاحظة عند مروره بجرابلس : «وعند بلدة اسمها جرابلس ، عبرنا نهراً باسمها عظيم الاتساع . . . وهنا تغيرت القرى فأضحت بالطين بدل الحجارة»^(٢).

ويورد معلومات مشابهة لمعلومات سيب روك في كتابه «مغامرات في بلاد العرب» ويشبه منازل قرى محيط حلب بخلايا النحل : «قرى بمنازل شبيهة بخلايا النحل - مبنية بالطين»^(٣).

ولكن أحمد وصفي زكريا ، لا يصف هذه القرى فحسب بل يبدي رأيه ، في كيفية تشكيلها ، ويبحث في تاريخها ، ولقد ساعدته كثيراً مهنته في ذلك ، حيث كان يعمل مراقباً وضابطاً في الجيش العثماني ، ومن ثم مدرساً في المدارس الزراعية العثمانية . لذلك اقترب كثيراً من حقيقة أصلها ، والنتائج التي توصل إليها مقنعة . وفي الحقيقة قد يكون من أفضل من تطرق لهذا الموضوع . فقد كتب كتاباً عن الريف في محافظة دمشق «المحافظات الجنوبية» ، ويبدو أن الظروف لم تساعد لتخصيص كتاب عن ريف حلب والمناطق الشمالية ، ومع ذلك ، أورد الكثير من المعلومات ، عن التحولات الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية التي طرأت على أرياف حلب

(١) المرجع السابق ، صفحة ٥٩ .

(٢) محمد ثابت . -جولة في ربوع الشرق الأدنى ، مصر ، ١٩٥٢م . صفحة ٦٢ .

(٣) سيب روك -مغامرات في بلاد العرب ، باللغة الانكليزية . لندن ، ١٩٣٦ ، ص ٢٦٩ .

ومنطقة الفرات الأوسط، ففي كتابه «ذكريات عن وادي الفرات» الذي وضعه عام ١٩١٦م، يتحدث عن الأسباب الاقتصادية - الزراعية لتشكل القرى والتحضر الريفي في شرق حلب: «وانتبه تجار الحبوب الأوروبيون إلى جودة القمح القاسي الذي تنتجه هذه الأنحاء فطلبوه. وبدأ تصديره عن طريق الاسكندرونة. فانتعشت الزراعة وحرثت هذه البراري البور، وعمرت الخرائب تدريجياً وقطنها الأعراب المذكورون وأكثرهم من عشيرة الولادة الكبيرة الذين صاروا حضراً بعد أن كانوا رحلاً. والعمران هنا يدوم ويمتد نحو البادية القفراء بنسبة امتداد رواق الأمن والعدل. وهطول الأمطار وخصب المواسم. وينقلب الأمر إلى عكسه ويعود الخراب والإفقار ويرجع من تحضر من أولئك الأعراب إلى البداوة إذا حدث خلاف ما ذكرناه كما جرى خلال الحرب العالمية الأولى»^(١).

كما تابع زكريا تاريخ القباب، وقال في سياق حديثه عن قرية النيرب في ضاحية حلب الشرقية: «... فقال هي النيرب، ثم مررنا وسط قرية اسمها جبرين دورها قباب من الطين مخروطة الشكل، مكتظ بعضها على بعض شأن كل القرى في مشارف حمص وحماه وحلب التي اعتمدت على هذا الطراز من المساكن، وقد علمت فيما بعد أن هذا الاعتماد الذي لا يعرف من أي عصر بدأ، إنما حصل بحكم انقراض الحراج وفقدان الأشجار والأحجار، أو صعوبة نقلها وجلبها ونحتها، وقالوا: إن هذه القباب القبيحة الشكل، الشبيهة بأكوخ زنوج مجاهيل أفريقية يرغبها الفلاحون في البلاد المذكورة لأنها سهلة العمل باللبن، الذي يعمل من التراب الجاهز في كل مكان، ويجفف بالشمس، فهي بالتالي أسرع نوالاً وأرخص ثمناً من الدور الحجرية، وأرطب في الصيف وأدفأ في الشتاء. وأمنع للوكف وإذا حدثت كارثة أو فتنه، واقتضى أن يخليها أصحابها ويجلوها كما كان يجري مراراً في العهود الماضية لا يؤسف على تركها كما هي»^(٢).

(١) أحمد وصفي زكريا، -ذكريات عن وادي الفرات. تحقيق: عبد القادر عياش، دير الزور، ١٩٦٨م صفحة ٤٦.

(٢) أحمد وصفي زكريا. - المرجع السابق، صفحة ٣٣.

ويحلل زكريا بجرأة أسباب تراجع ظاهرة العمران الريفي في ضواحي حلب الشرقية والجنوبية، فيقول: «وأكبر الظن أن خرابها الأخير حدث على أيدي التتار والمغول الذين جاؤوا عدة مرات واكتسحوا مدينة حلب وقراها، الشرقية والقبلية، وعاشوا وأفحشوا، وقد ظلت هذه القرى على ما يظهر خراباً يباباً ستة أو سبعة قرون طوال عهد السلاطين المماليك والعثمانيين أي قبل نصف قرن أو أكثر حوالي سنة ١٢٦٧ هجرية، حينما نظمت الدولة العثمانية الولايات ونشرت لواء الأمن والعدل هنا وفي وادي الفرات»^(١).

لقد رسم زكريا خارطة شبه كاملة لتوزيع الأبنية الطينية المخروطية في الريف السوري، منذ مطلع هذا القرن، بل تغطي السنوات التي قبلها، فعندما كان مديراً للمدرسة الزراعية في المسلمية عام ١٣٣٧ هجرية - يشير إلى أن أغلب دورها قباب: «وأكثر دور سلمية قباب مخروطية الشكل من اللبن والتراب، كما هو الحال في القرى الممتدة شرقي حمص وحماه وحلب، على أنها صارت تبدل منذ ربع قرن بدور حجرية جلها من الطراز القروي البسيط»^(٢).

ومعنى ذلك أن هناك قباباً اندثرت في السلمية بدءاً من مطلع هذا القرن وكذلك في مناطق أخرى تعدّ من الأطراف بالنسبة لوجود وتمركز طراز القباب الطينية.

وعن نفس المدة تقريباً يقول لويس شيخو اليسوعي: «... أما القرى فقليلة في تلك البراري... فوصلنا في ضحى النهار إلى طيبة، وهي قرية متوسطة في الكبر على ربوة تحديق بها الكروم لها جامع وأهلها مسلمون، وبيوتها على شكل المخروط أو أقراص السكر المستديرة في أسفلها مروسة في أعلاها. وكذلك أكثر القرى بين حماه وحلب. وهم يتخذون لبنانها رجيع الدواب فيخلطونه بالتبن ثم

(١) أحمد وصفي زكريا. - المرجع السابق، صفحة ٣٤.

(٢) أحمد وصفي زكريا. - جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، دمشق، ١٩٣٤ م. صفحة ٢٦٩.

يجعلونه أقراصاً . يجففونها في الشمس فإذا أرادوا ابتناء دار ركبوا الأقراص على بعضها ، على سعة معلومة ثم طلوها بالملاط .

ودفعاً لحرارة القيظ وبرد الشتاء يقيمون في باطن الدار جداراً ثانياً من الأقراص . ينتهي إلى سقف الدار ويملطونه من داخله ، كما فعلوا من خارجه ، وهذه البيوت عادة لا منفذ لها غير بابها . وإذا أرادوا أن يتخذوا دارين أو ثلاثة دور ، أو أكثر . جمعوا بينها بسور ، وفتحوا لها منفذاً في وسط السور ، ومن رأى هذه القرى من بعيد ظنها مقبرة ، وقد سألت أهل تلك القرى عن سبب اتخاذهم هذه الهندسة لدورهم ، فأجابوا أنها زيّ من الأزياء اتخذها أجدادهم فجروا عليه تشبهاً ، ولعل أولئك اتخذوا الشكل المخروط لئلا ينفذ المطر والثلج في سطح الدار أو بالحري لقلّة الخشب اللازم لوضع السقف»^(١) .

وعن المرحلة اللاحقة من التاريخ العمراني للريف كتب عياش الكثير عن قرى وادي الفرات وعمارتها ، وغطى بأبحاثه الميدانية الغنية النصف الأول من هذا القرن . ففي كتابه «البيت في حياة العرب» يتحدث بإسهاب عن بيوت الريف ، على ضفاف الفرات وروافده وسهول الجزيرة الفراتية . ويعدّ أول هذه البيوت بيت الشعر خاصة لأولئك الذين يعتمدون في معيشتهم على تربية الأغنام والإبل . وأكد على ناحية ، ألا وهي أن بيوت الشعر لم تكن تخص البدو فحسب ، وإنما اعتمد عليها سكان القرى نصف الرحل أيضاً ، حيث كانت بيوت الشعر تنصب في النجعات الربيعية ، وأحياناً في القرى إلى جانب البيوت الطينية ذاتها .

ويشير أيضاً إلى أن بيوت الشعر كانت موجودة في دير الزور نفسها بين البيوت المبنية يسكن فيها فقراء أتوا من الريف»^(٢) .

ويصف نوعاً آخر من البيوت الخفيفة في ريف الفرات فيقول : «السيباط : مسكن صيفي مستطيل الشكل غالباً له ثلاثة جدران تبنى من اللبن بارتفاع مترين أو

(١) لويس شيخو اليسوعي ، من حمّاه إلى حلب ، مجلة المشرق ، ١٩٠٥ م ، صفحة ٩١٩ .

(٢) عبد القادر عياش . - البيت في حياة العرب ، دير الزور ، ١٩٦٦ م ، صفحة ٨٤ .

ثلاثة فيها منافذ - طوق صغيرة - في الجهة الغربية مثلثة إطارها من اللبنة نفسها، الجهة الشمالية مكشوفة لاستقبال الهواء الشمالي البارد في الصيف، تقوم في وسط السيباط عمد من شجر الغرب تسمى الواحدة شدحه، جمعتها شدح، وعلى رؤوس الجدران عیدان من الغرب، وتوضع فوقها عیدان وسوس تفوح منه رائحة زكية، طول السيباط ثلاثون متراً وعرضه (٥ - ٦ أمتار). ترش أرضه بالماء وتبنى بجانب جدران السيباط دكات للجلوس. ويستعمل للقبولة للرجال والضيوف حيث يفرش باللباد. وفي وسط السيباط موقد النار تكون فيه آلات القهوة وداخل السيباط خوابي الماء - الحب - على كراسي من خشب. ويقسم السيباط بحائط إلى قسمين يكون المتأخر منهما للنساء ويسمى الخزنة يكون أثاث البيت والمونة فيه، ويبنى أمام السيباط من الجهة الشمالية فناء له جدران بارتفاع نحو متر وربع المتر يُسمى الربعة، ينون لصيق الجدران دكات لجلوس الزوار والضيوف في المساء، وتكون الربعة بلا سقف. وفي وسطها موقد للنار تكون فيه آلات القهوة المرة، وتفرش الربعة باللباد. . . على أنه ليس لجميع سكان الريف في الفرات سيابيط لما تتطلب من تكاليف»^(١).

ويعزو عياش اختفاء هذا النمط من الأبنية الريفية إلى توسع الزراعة واستثمار أماكنها للتشجير والفلاح، وعن دور الفرات الطينية يقول: «وغالب الدور عبارة عن غرفة أو غرفتين بارتفاع أربعة أمتار تسقف بجذوع شجر الغرب وعيدانه يعلوها الطين. ويكون سطح السقف محدودباً. وللغرفة باب ساذج من الخشب الساذج بلا نوافذ، وفي الدار غرفة للحيوانات، وللدار فناء محاط بجدران من اللبن بارتفاع متر»^(٢). وينبغي ألا ننسى أن هذه البيوت عائدة للشريط المحاذي لضفاف الفرات.

وعن نوع آخر من الأبنية خاص بمنطقة الفرات، يصف الدبدابة فيقول: «كما تسمى في جهات دير الزور، ودبابة كما تسمى في جهات الرقة، ودامة كما تسمى

(١) عبد القادر عياش، المرجع السابق صفحة ٨٤.

(٢) المرجع السابق، صفحة ٨٥.

في جهات أبو كمال ، حفرة مستطيلة في الأرض ، طولها نحو ستة أمتار وعرضها نحو أربعة أمتار بعمق متر ونصف ، بغير جدران ، يرتفع في وسطها جذع شجرة الغرب ، أو جذعان وتسقف بالأغصان والقش والتراب ، وسقفها محدودب ، ينزل إليها بدرج ، ليس لها نوافذ . يدخل إليها نور قليل من المدخل .

دخلت إلى عدة دبدابات في أنحاء مختلفة من الفرات ، ولم أشاهد داخلها أثاثاً ، أو مؤونة تذكر ، ولم أشاهد قنديلاً ولا سراجاً ، وإنما شاهدت داخلها أطفالاً ونساء ورجالاً منهم المريض . يلجأ إلى هذا النوع من السكن الفقراء^(١) .

وهذا يدل على حالة الفقر التي كان يعيشها أهالي القرى ، والبدائية المفرطة لحياتهم وبالتالي عمارتهم .

ولم يكن عياش بدوره متحمساً للقباب الطينية ، التي حدد مناطق وجودها في منطقة تل أبيض وقرب البليخ ، لأنها سريعة السقوط في الشتاء - حسب رأيه - تحت تأثير المطر ، ويلاحظ أيضاً الدور المشككة من القباب ليست لها أفنية داخلية .

ويختتم كل من الباحثين عياش وزكريا أبحاثهما بأحاديث عن بوادر تغير العمارة الريفية ودخول الإسمنت والبناء بالحجر والأسقف المسلحة بالحديد (المستوية) إلى القرى كتقليد للعمارة المدنية ، وكتيجة لتحسن الأحوال المعيشية وخاصة لدى الميسورين من أبناء الريف ، فلم يكونا ضد هذه التحولات ، فكانا من محبي العصرية والحداثة ، ضمن منظومة التفكير السائدة في عهديهما .

(١) عبد القادر عياش . - البيت في حياة العرب ، صفحة ٨٦ .

الفصل الثامن

قرى مناطق شرقي حلب

قرية تياره:

قرية تقع شرق حلب بعد حوالي ١٠ كم، إلى شمال الطريق العام الذي يصل حلب بالرقعة على السفح الغربي لتل هرمي الشكل يبدو طبيعياً في شكله العام. الشكل رقم (٨-١) منظر عام للقرية.

معظم أبنية القرية من القباب الطينية المتميزة. ويبدو أن عمر القرية أيضاً بحدود مئة سنة أو أقل حيث لم أطلع على إشارة إليها في الكتب وفي الكتابات التي تعود إلى النصف الأول من هذا القرن على الرغم من أنها على مقربة من الطرق المؤدية إلى حلب شرقاً.

ما هو غريب في هذه القرية أنها أصبحت شبه مهجورة منذ حوالي عشر سنوات، ومعظم سكانها هاجروا إلى حلب، ولا يسكن فيها إلا قلة من الناس، وقد التقينا شاباً من أبنائها عمره (٢٥) سنة يعمل مزرّق باطون، فأبدى إعجابه بالقباب، لكنه عزى سبب تغير أسلوب البناء إلى وفاة أولئك الذين كانوا يعتنون بها، ولا أحد يعرف الآن بناءها من جيل الشباب، والملاحظ أن الأبنية الطينية المسقوفة على شكل قبة، أغلبها مهجور منذ عشر سنوات ولم تنهر على الرغم من عدم وجود أي صيانة.

الشكل (٨-١) مبين فيه منزل بقبتين، مقسم في وسطه بواسطة قنطرة حجرية، ويبدو أنه كان لأحد الميسورين في القرية.

قرية بزاعة:

قرية قديمة تقع شرق بلدة الباب بعدة كيلومترات تقع في وادٍ زراعي خصب، سكانها فلاحون عرب، غير متجانسي الأصول، كان يمر بها نهر سابقاً. ورد ذكرها في أغلب المصادر التاريخية في مختلف العهود الإسلامية، وعنها قال ياقوت الحموي: «سمعت من أهل حلب من يقوله بالضم والكسر، ومنهم من يقول بزاعاً بالعطر، وعليه قول شاعرهم:

لو أن بزاعاً جنة الخلد ما وفي رحيلي إليها بالترحل عنكم

وهي بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبع وحلب، وفيها عيون ومياه جارية وأسواق حسنة^(١). وعنها يقول ابن جبير: «تصغر عن المدن وتكبر عن القرى، فيها سوق تجمع بين المرافق السفرية، والمتاجر الحضرية، وفي أعلاها قلعة كبيرة حصينة . . . ولهذه البلدة عين منيعة، يخترق مأوها بسيط بطحاء ترف بساتينها خضرة ونضارة . . . ويناظرها في جانب البطحاء قرية كبيرة تعرف بالباب، هي باب بين حلب وبزاعة، وكان يعمرها منذ ثمانين سنوات قوم من الملاحدة الإسماعيلية لا يحصي عددهم إلا الله، فطار شرارهم، وقطع هذه السبيل فسادهم . . . وسكانها اليوم قوم سنون»^(٢).

كان أغلب منازلها من القباب الطينية، ولكن بعد تنظيم شوارع البلدة هدم قسم منها، ودخلها طريقة البناء بالبلوك والإسمنت، ومن خلال عملية التحقيق الميداني تبين أن ربات البيوت يفضلن البلوك لسهولة تنظيفه، علماً أن قسماً منهن لا يرغبن ترك القرية، وترغب واحدة منهم في السكن في قبة من البلوك والإسمنت لأن ذلك سيكون أفضل للاستعمال والخدمة.

(١) ياقوت الحموي. - معجم البلدان، صفحة ١/٤٠٩.

(٢) ابن جبير، مرجع سابق، صفحة ٢٣٨.

الفتيات يقمن كل سنة بتلبس القباب من الخارج بالحوار وجهين الأول خشن والثاني ناعم ، وكل أربع أو خمس منهن ينجزن قبة واحدة باليوم .

أهم مشكلة تعترض البلدة اليوم هو الجفاف الذي انعكس على الاستقرار وأدى إلى تراجع الزراعة وعلى عملية البناء بالطين التي تتطلب كميات كبيرة من الماء ، وهو غير متوافر في المنزل حتى بات بناء القبة أكثر تكلفة من البناء بالبلوك الإسمنتي .

للقرية جامع كبير من الحجر الكلسي ، أعمدته من طرز مختلفة ، ويبدو أنها تجمع من بعض الآثار المندثرة ، واللافت للنظر أن القباب التي تركز على العقود لتسقيف الجامع هي مخروطة على نفس طريقة القباب الطينية . مثدنة المسجد مربعة الشكل على الطراز الأموي ، لذلك من المعتقد أن تاريخ بنائه يعود إلى تلك المرحلة ، أو إلى المراحل المبكرة من العهد العباسي .

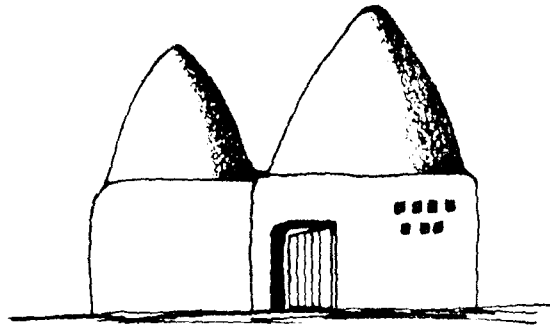
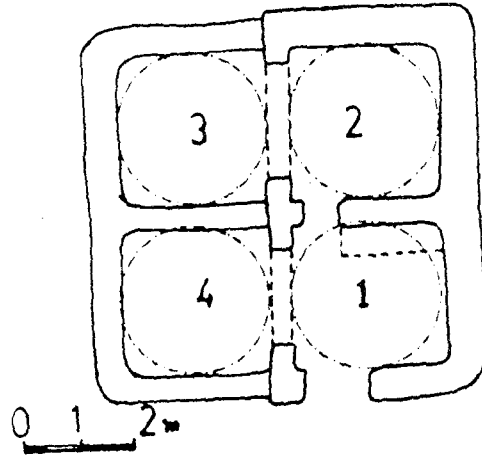
وقد تكون بزاعة من القرى النادرة التي حافظت على حجمها فلم تندثر ، ولم تتطور إلى مدينة على الرغم من عمرها الحي الطويل .

وثمة نموذج للبناء الريفي فيها ، تتكون من أربع قباب مترابطة تستخدم كوحدة مستقلة نسبياً للحيوانات ، التي تلزم الفلاحة بالمحراث ، أو بقرات منزلية ، وكان الرجل الذي يرعاها يسكن إلى جوارها في قبة المدخل ، لحراستها ورعايتها ، وكنموذج أخذنا منزل جميع محمد يوسفان المخطط رقم (٨-٢) .

قرية صوران:

قرية صغيرة تقع بين بلدة الباب ومدينة حلب على الطريق العام ، يسكنها الفلاحون منذ أكثر من مئة عام ، سكانها العرب من قبيلة أو فخذ : البطوش .

التقينا فيها برجل كبير السن يدعى «مراد الرجب» ، عمره حوالي (٨٥) سنة

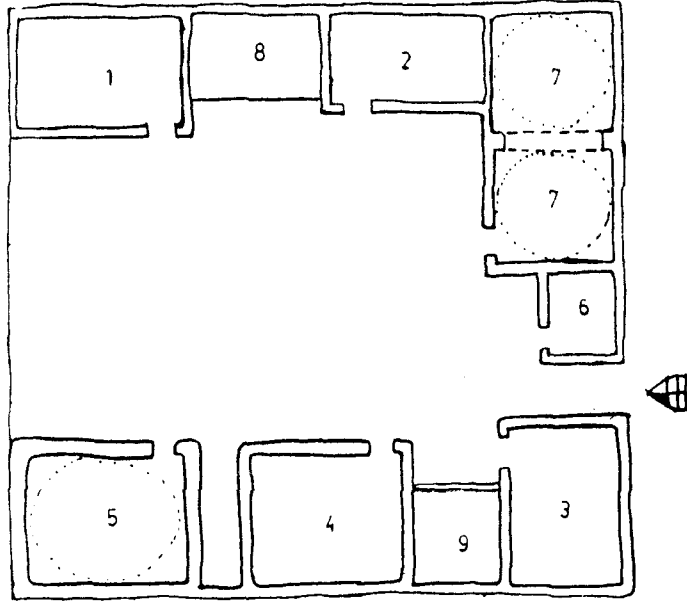


الشكل (٨-٢)

قرية بزاعة - منطقة الباب

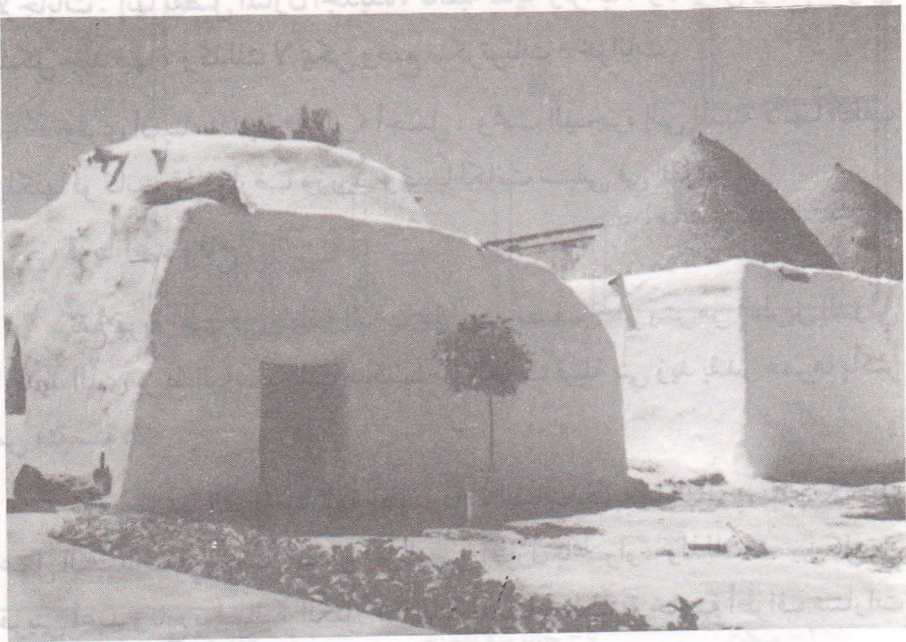
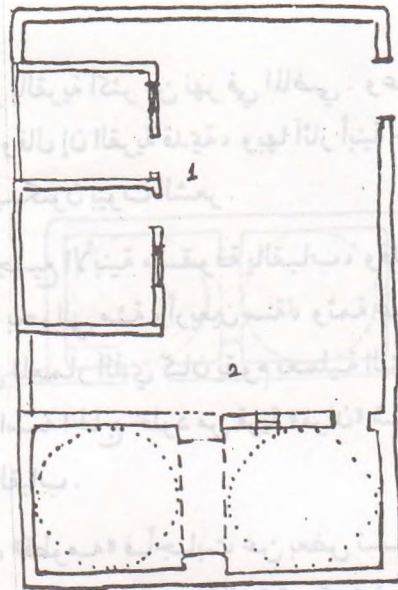
منزل : جميع محمد يوسفان - نموذج مستقل للحيوانات .

١- العامل/ الحارس ٢- كدش/ بغل ٣- خزن العلف/ تبين ٤- البقر



الشكل (٨-٣)

قرية بزاعة ١- غرفة حجر ٢- غرفة من البلوك الطيني ٣- غرفة من البلوك الإسمنتي
 ٤- غرفة ذات قبة مكسورة ٥- غرفة مونة ذات قبة ٦- اسطبل ٨- دكة
 ٩- حوض الزهور ومنزل حاج تركي باشا.



الشكل (٤-٨)

قرية بزاعة - الباب . منزل ابراهيم عمر العلو الزعير ١٢ : ١٠ - قرى اللد حاص

١ - قسم حديث من البلوك .

٢ - قديم قباب .

وقد أخبرنا أنه كان يمر بالقرية أكثر من نهر في الماضي . وعن تسمية القرية «صوران» لم يعرف السبب^(١) ، وقال إن القرية قديمة ، وبها آثار أبنية حجرية ومعاصر الزيتون ، وكان أهلها في البدء يسكنون بيوت الشعر .

البناء طيني وجميع الأبنية مسقوفة بالقباب ، وقد قدر عمر بعض القباب الطينية السيد رجب بحوالي مئة وأربعين سنة ، وثمة عدة منازل أو غرف حديثة ظهرت مؤخراً وعن المعمار الذي كان يقوم بعملية البناء ، فقد قال إنه من نفس القرية ، وثمة معمار اسمه الحاج خلود من قرية «مران» شمال صوران بمسافة ٢ كم ، هو أشهرهم في بناء القباب .

أما ربة المنزل «فطوم» فأجابت عن بعض تساؤلاتنا وكانت خلاصة الإجابات : إنها تفضل المنازل الجديدة ، فالقبة قديمة وتراب ، ولا يمكن وضع الفرش بشكل جيد فيها ، وكذلك لا يمكن وضع سكرتونات - خزانات .

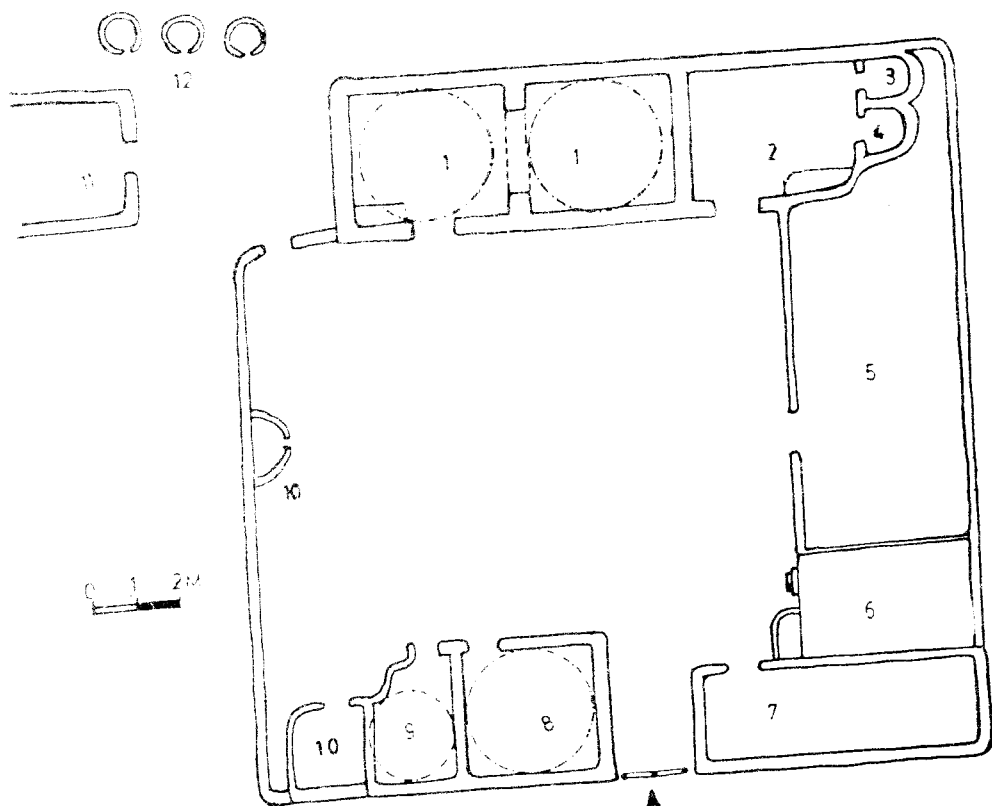
وترى أن بناء المدينة «أحلى» أجمل . وتحب الهجرة إلى المدينة لأنها أنظف ولكنها لو كانت تملك أرضاً وزرعاً وغنماً لكانت ستبقى في القرية .

قريتا أعبد وفاح:

تقع قرية أعبد في منطقة الباب على بعد نصف كيلو متر من الطريق الدولي الجديد الذي يربط الباب بحلب سكانها من العرب قبيلة بني زيد يقدر عمرها بأكثر من مئة سنة .

وأهم ما يميز القرية منازلها الطينية ذات القباب بطابعها الفطري ، ثم ملاحظة عمل السيدات في مجال التطين وتلييس المنازل بالحوار ، ولذلك تتميز كل من قريتي أعبد وفاح بجمالية الكتل الداخلية للعمارة الطينية خاصة أطراف ستارات

(١) صوران : من الآرامية : صورنا : العنقي ، كما يرى الأب أرملة في «المشرق» س ٣٨ ص ١٨٩ (عن موسوعة حلب للأسدي) .



الشكل (٥-٨)
قرية صوران - الباب
منزل إبراهيم العلي

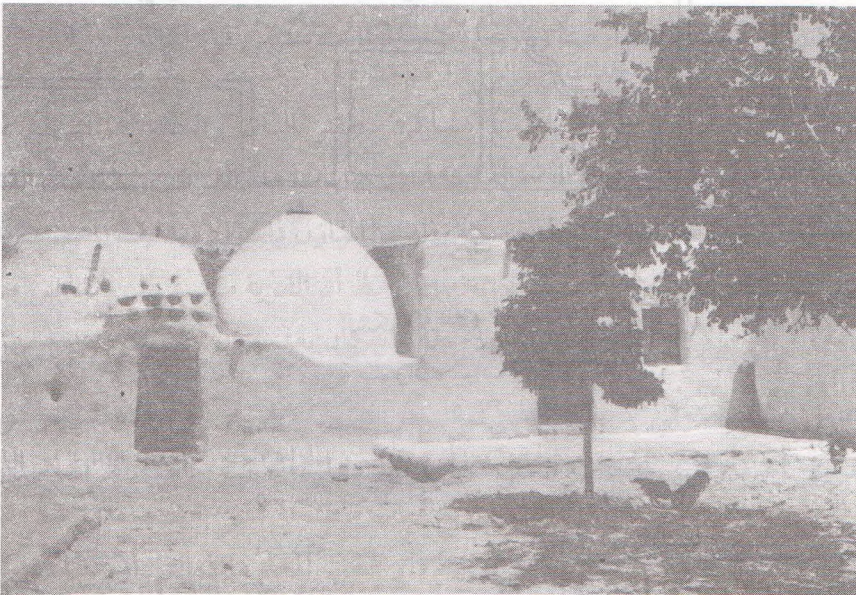
- | | | |
|---------|------------------|---------------|
| ١- سكن | ٥- حابوسة للماعز | ٩- علف |
| ٢- مطبخ | ٦- دكة | ١٠- قن للدجاج |
| ٣- مونة | ٧- دواب | ١١- جوار |
| ٤- حمام | ٨- علف | ١٢- اهراءات |



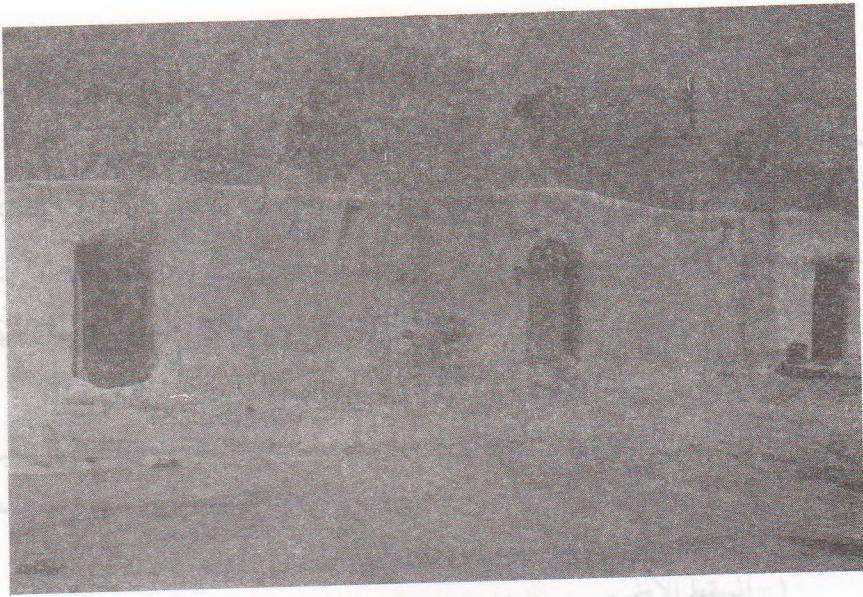
الشكل (٦-٨)

قرية صوران

١- منزل ابراهيم العلي



٢- منزل أحمد الهواش .



منزل محمد ابراهيم الحسين



مخازن : اهرءات خارج أحد المنازل شمالي القرية

الشكل (٧-٨)

الأحواش ، وثمة زخارف جصية حول النوافذ وفوق الأبواب .
وكان رأي معظم النساء والفتيات اللواتي تحدثنا إليهن أنهن يفضلن منازل
الإسمنت والبلوك ، لأن الطين عذاب على حد تعبيرهن .
الشكل (٨-٨) يبين كتلة معمارية - خدمية للحيوانات والأعلاف كانت
غربية ولم تصادف ما يماثلها في القرى المجاورة .

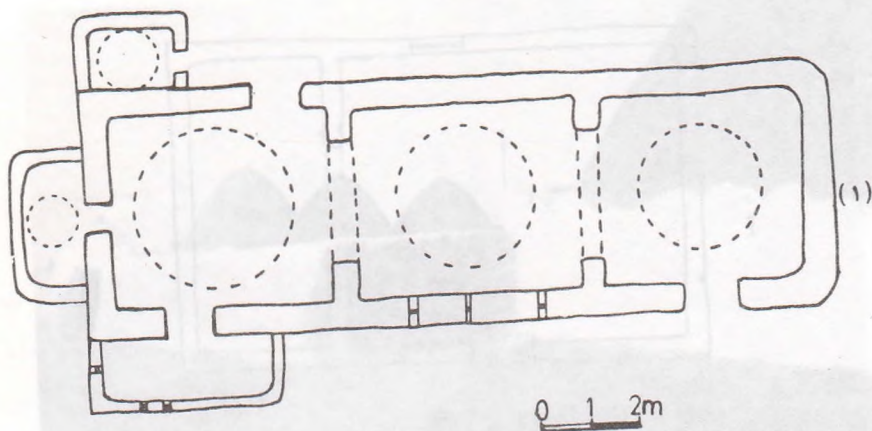
أما قرية فاح فتقع جنوب أعبد بمسافة ٢ كم ، ولا تختلف عمارتها عن عمارة
أعبد في الخطوط العامة ، فشمة أحواش للمنازل في الغالب ، وليس مجرد
« حابوسة » صغيرة للحيوانات والمنزل غير منفتح على الجوار بشكل عام .

قبابها كبيرة الحجم ومعتنى بها بشكل جيد ، وتبدو أبنية القريتين من أفضل
القباب في قرى الباب التي زرناها . الشكل (٨-٩) قباب منازل من فاح .

قرية العريمة :

قرية قديمة على الطريق العام بين الباب ومنبج ، وقدر سكانها عمر القرية
بمئتي عام ، تبعد عن حلب حوالي ٦٠ كم شرقاً ، سكانها عرب من قبيلة كيّار ،
الأبنية طينية من النوع الكبير المتميز كما في منطقتي الباب والسفيرة ، لم تقع على
ذكر لها في كتب المعاجم والرحالة وكتابات بدايات هذا القرن ، وبعد هذه القرية
تقل القباب باتجاه منبج ، حيث تظهر المنازل ذات الأسقف المستوية .
الشكل (٨-١١) منظر عام للقرية ، من الملاحظ أن القرية مبنية على أنقاض قرية
قديمة ، وكثرة الأحجار الكلسية فيها جعل السكان يعتمدون عليها في بناء الجدران
القائمة مع مونة من الطين .

أهم منزل شاهدناه فيها هو منزل محمولا الحاج جنيد بن عبد الرزاق الذي
يقدر عمره بستين سنة ، مؤلف من أربع قباب منفتحة على بعضها ، وتركز على
قناطر حجرية وعمود حجري في الوسط ، وحسب المعلومات التي أوردها صاحب
المنزل أن المعمار الذي بناها جاء من جنوب حلب ، لا توجد في المنزل - القباب



قرية أعبد منطقة الباب (غرف للدواجن والعلف)

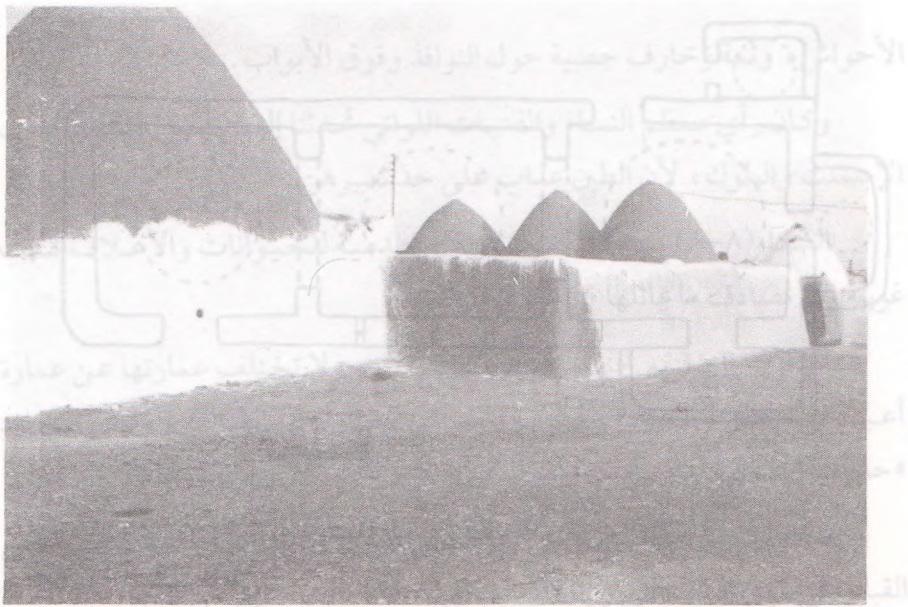
١- المسقط الأفقي

٢- المنظر العام



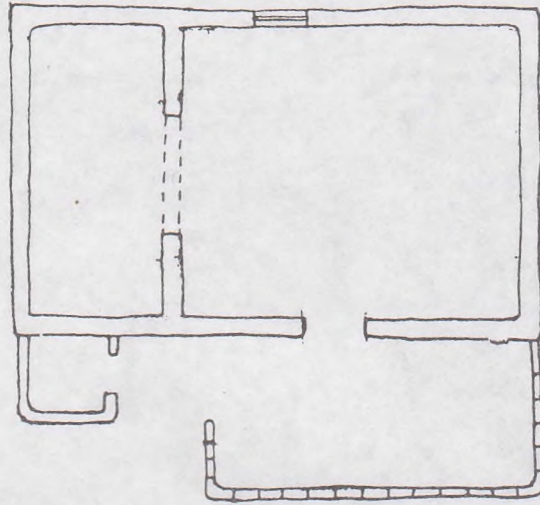
الشكل (٨-٨)

- ١١٧ -



الشكل (٨-٩)

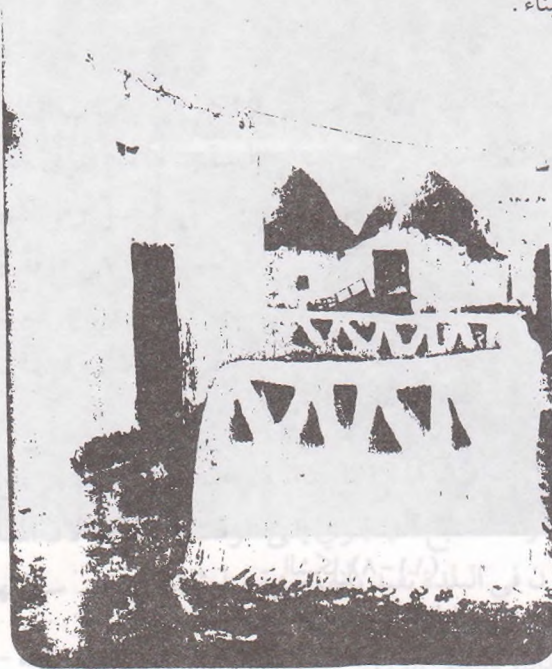
قرية فاح - منطقة الباب - مناظر عامة للمنازل ذات القباب المتميزة.



قرية أعبد - منطقة الباب . السقف خشبي مستوي مع عدسة بيتونية .

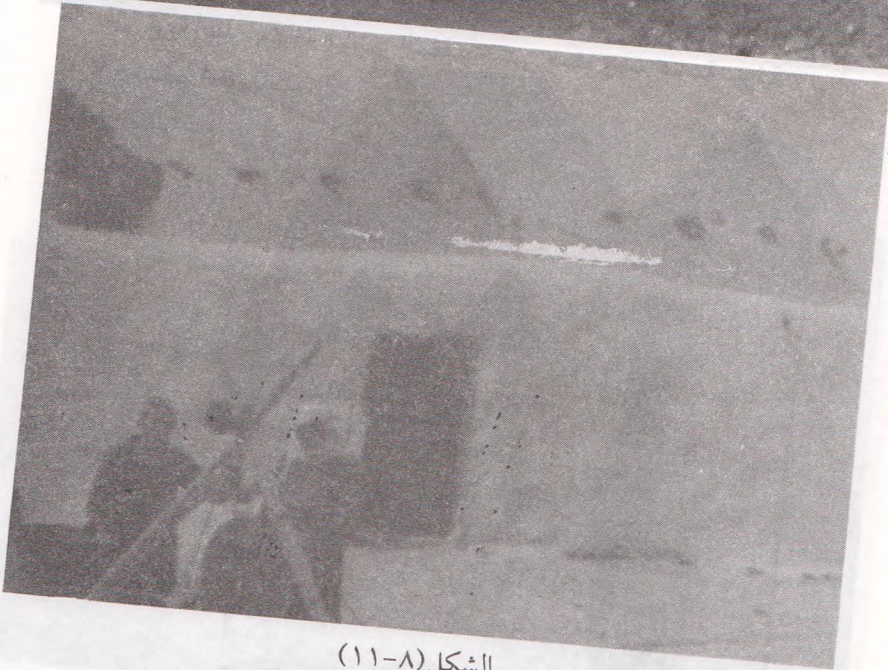
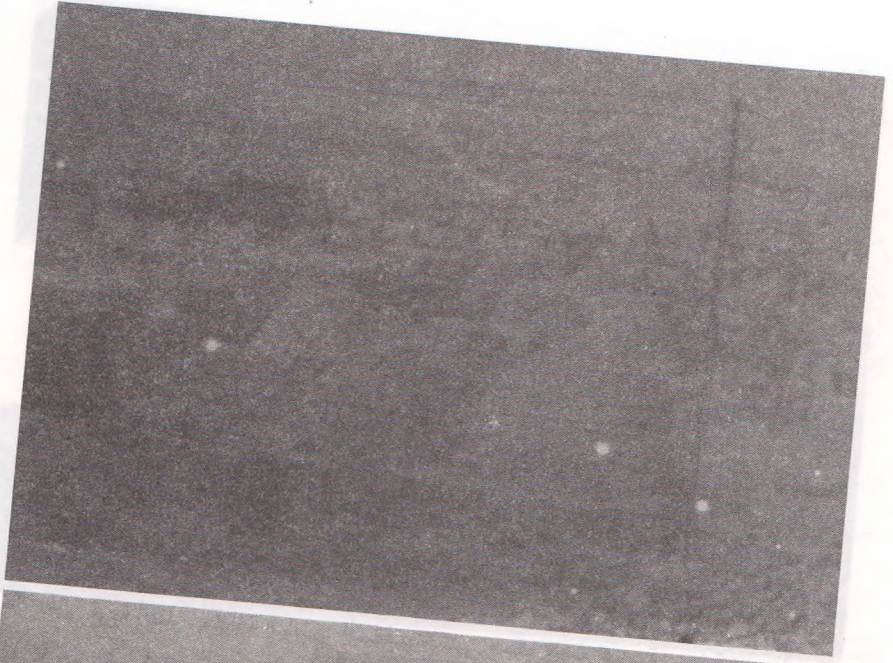
١- مسقط أفقي للبناء .

۱- منظر عام



(۲)

(١) بالقرن الحادي عشر، معجم البلدان
(٢) أحمد وصلي زكريا، سجلة أثرية في بغداد، الشكل (٨-١٠) مرجع سابق، ص ١٠٤-١٠٥



الشكل (٨-١١)

قرية العريمة - منطقة الباب

١- منظر عام للقرية

٢- أحد مساكن القرية

نوافذ سوى عدة فتحات صغيرة في أسفل الجدار الغربي (طوق) للتهوية، والإشارة تتم عن طريق الباب الوحيد (١٩٠×١٠٠سم) ولقد زرقت القباب بطبقة إسمنتية من الخارج منذ عدة سنوات، ويبدو أن أساساتها من الحجر.

وكانت كلفة البناء حينذاك عشر ليرات ذهبية. الشكل (٨-١٢).

وفي حديث مع عدة نساء مسنات تتراوح أعمارهن بين (٧٠-٨٠) سنة بينت واحدة منهن أنهم كانوا سابقاً يربون الغنم في البادية، ثم استقروا فيما بعد هنا، وهن يفضلن البناء الحديث، من البلوك والإسمنت والبورسلان، كما يفضلن البقاء في القرية لو توافرت الخدمات، وكانت القباب من الإسمنت.

وبشكل عام من الملاحظ أن أهالي الريف لا يقدرّون القيمة الجمالية والتاريخية لمساكنهم، وثمة تداخل وربما تطابق بين مفهومي الجميل والجديد، لديهم، وبالتالي النافع والسهل التنظيف والخدمة.

بلدة السفيرة وقراها:

السفيرة قرية قديمة تبعد عن حلب حوالي ٢٥ كم إلى الجنوب الشرقي وقد وردت في معجم البلدان كإحدى قرى حلب: «السفيرة: من قرى حلب»^(١). وكذلك تحدث عنها زكريا «ثم في كم ١٧ يمر السائح من تل حاصل وفي كم ٢٢ بتل عرن وأهل هاتين القريتين أكراد... وفي كم (٢٥) بالسفيرة وهي قرية جسيمة وسكانها (٤٠٠٠) مسلم عربي، باحات دورها واسعة جداً، في طرف كل باحة صف من القباب المخروطية الواسعة، منها ما هو للبقر والغلال وفيها سوق ذو حوانيت...»^(٢).

أما استمرارية بنائها فيبدو أنها لم تظل قائمة وحية بشكل مستمر من الوقت الذي ذكره ياقوت في القرن السابع الهجري إلى الوقت الراهن، لأن المعلومات التي أفادنا بها رجال مسنون في البلدة تفيد بأنها مبنية منذ ثلاثة قرون. سكانها عرب

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، صفحة ١٨٠/١.

(٢) أحمد وصفي زكريا. - جولة أثرية في بعض البلدان الشامية، مرجع سابق صفحة ٢٠٨.

قسم منهم من قبيلة «البوشعبان» من الحمرات وأصلهم من نواحي الرقة، ولقد عملوا في تربية الماشية والإبل بشكل خاص مما انعكس على عمارتهم، التي تتميز بقباب متجاورة كثيرة تشكل بحد ذاتها حدًّا للحوش، والقسم الآخر جدار عال فأحواشها كبيرة جدًّا، وكذلك البوابات التي تسمح بمرور السيارات الآن، وكانت مخصصة لدخول الإبل منها.

الأبنية طينية مقببة، بقباب -يطلقون عليها أحياناً اسم «البيضة» كبيرة نسبياً تصل أقطارها إلى أكثر من أربعة أمتار.

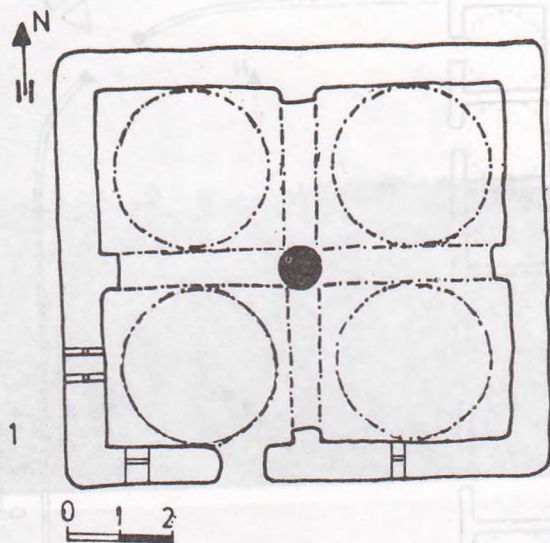
وبناء القباب كانوا من السفيرة ذاتها، وتدل كافة المؤشرات على تراكم خبرة محلية في مجال بناء القباب، قد تكون مكتسبة من الجوار، وأشهر معماريهم «أبو صبيحة» الذي توفي منذ سنوات.

وفي السفيرة غط آخر للبناء يعتمد على التسقيف المستوي بالعوارض الخشبية ومع أنها طينية إلا أنها ذات طابقين.

في الأسفل القبو، المؤلف من سقف طيني على شكل نصف اسطوانة منزل خلف العدول. الشكل (٨-١٧)

وإلى الشمال من السفيرة تقع قرية العزيزية، التي يقدر عمرها بخمس وسبعين سنة، جاء معظم سكانها من السفيرة وينتسبون إلى قبيلة «عقادلة». وهم فلاحون في الأصل مما انعكس ذلك على عمارتهم أو خبرتهم في الزراعة، في القرية قباب مشابهة لتلك الموجودة في السفيرة، ولكن ثمة منازل ذات أسقف مستوية، منمقة من الداخل، حيث توجد خزائن خشبية داخل الجدران، لها حافات مطلية ومزخرفة تتصل بدورها برفوف خشبية جميلة.

ولقد أفادنا السيد عمر غازي (٧٥) سنة، بأن بناء القباب تراجع منذ (١٥) سنة بسبب صعوبة الصيانة وصعوبة بنائها بالأصل، حيث يلزمها نوع من التقنية الفطرية، فالجدران الشاقولية، التي تشكل أضلاعاً مربعة ينبغي تحويلها في الأعلى

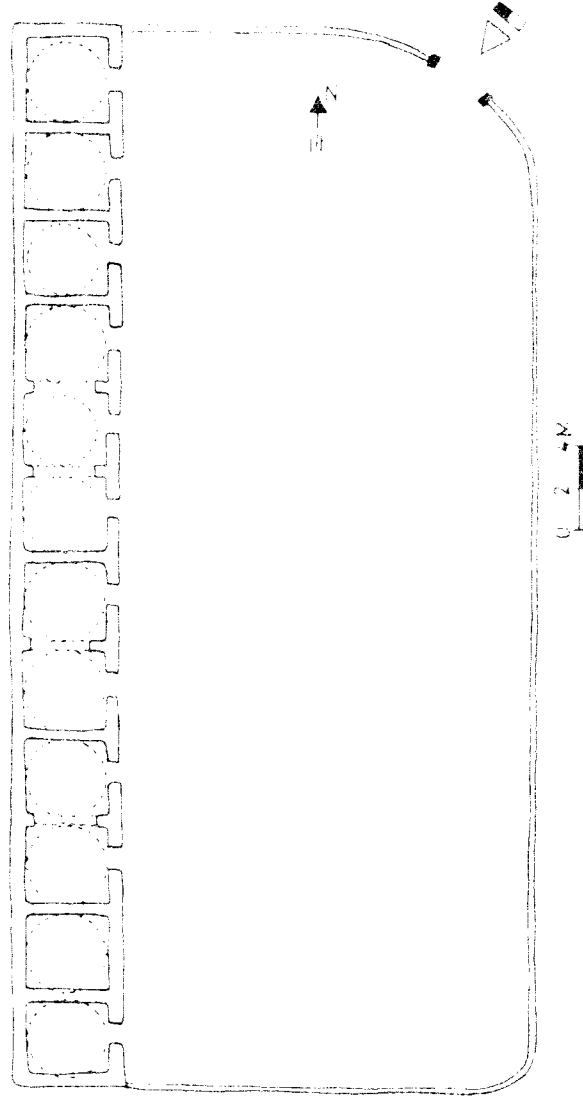


الشكل (٨-١٢)

قرية العريمة - منطقة الباب - منزل محمود الحاج جنيّد بن عبد الرزاق .

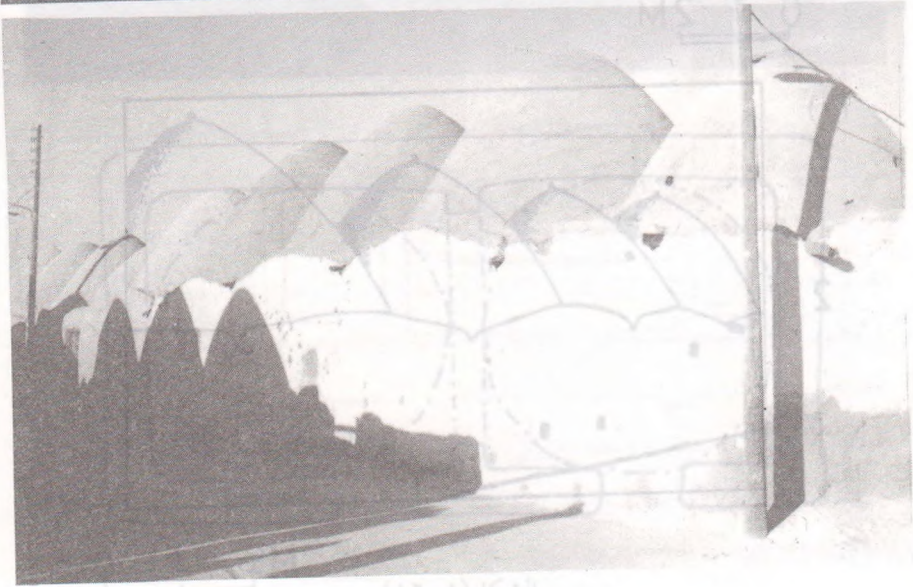
١- المسقط الأفقي

٢- المنظر العام .



الشكل (٨-١٣)

بلدة السفيرة - منزل السيد حمود أحمد الحمدو الخطيب .

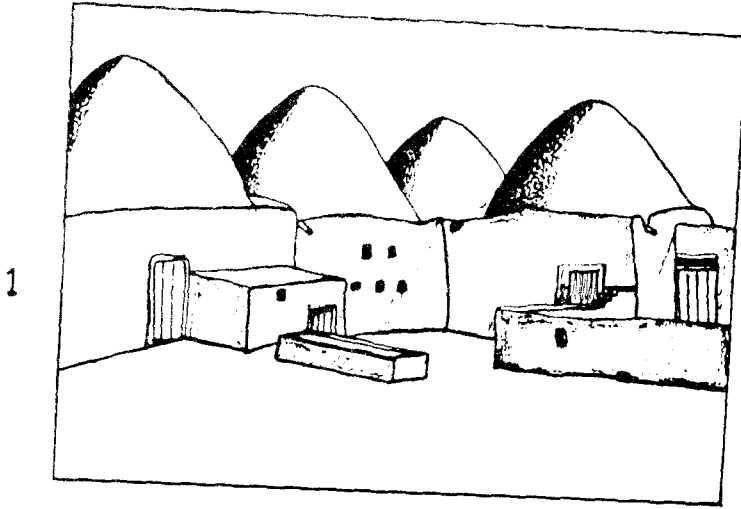


الشكل (٨-١٤)

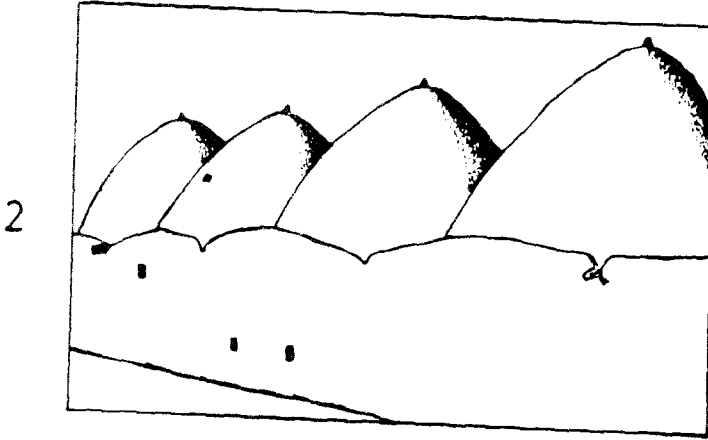
بلدة السفيرة - حلب .

١ - منظر عام للبلدة تظهر فيها القباب الكبيرة .

٢ - منزل : حمود أحمد الحمدو الخطيب .



0 1 2M

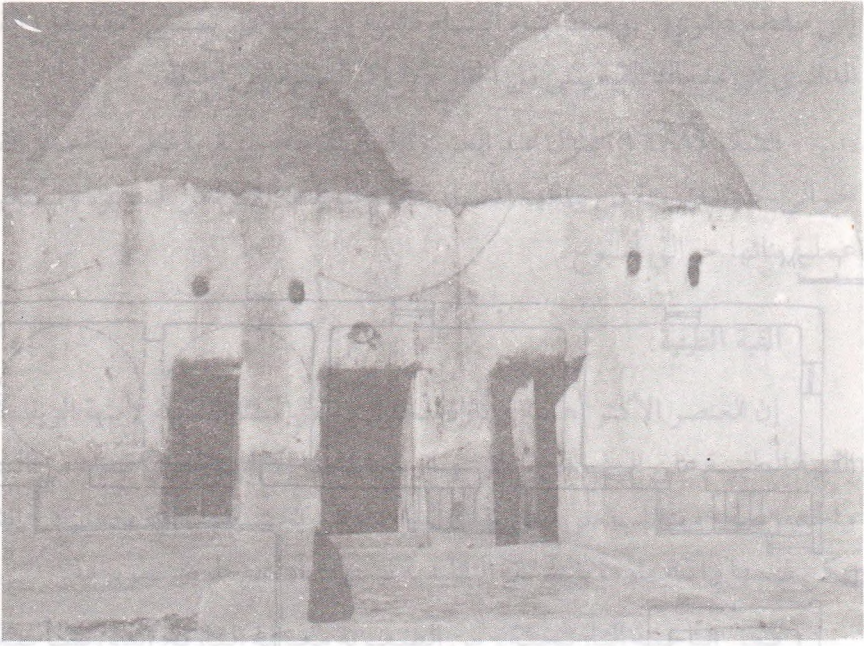


الشكل (٨-١٥)

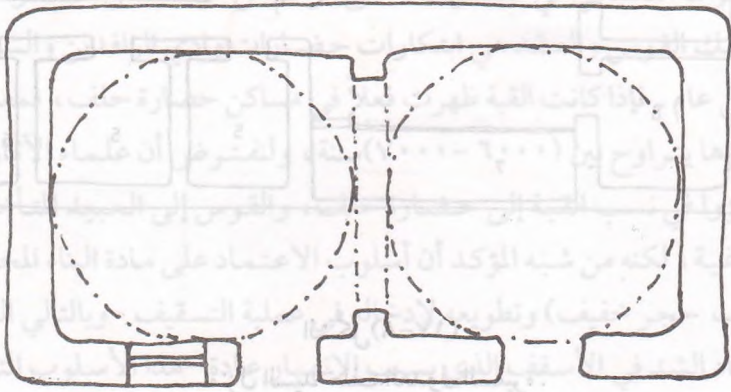
منزل محمد العبد الله الأحمد/ العمر ١٠٠ سنة - بلدة السفيرة

٢- منظر خارجي

١- منظر داخلي



(٢)



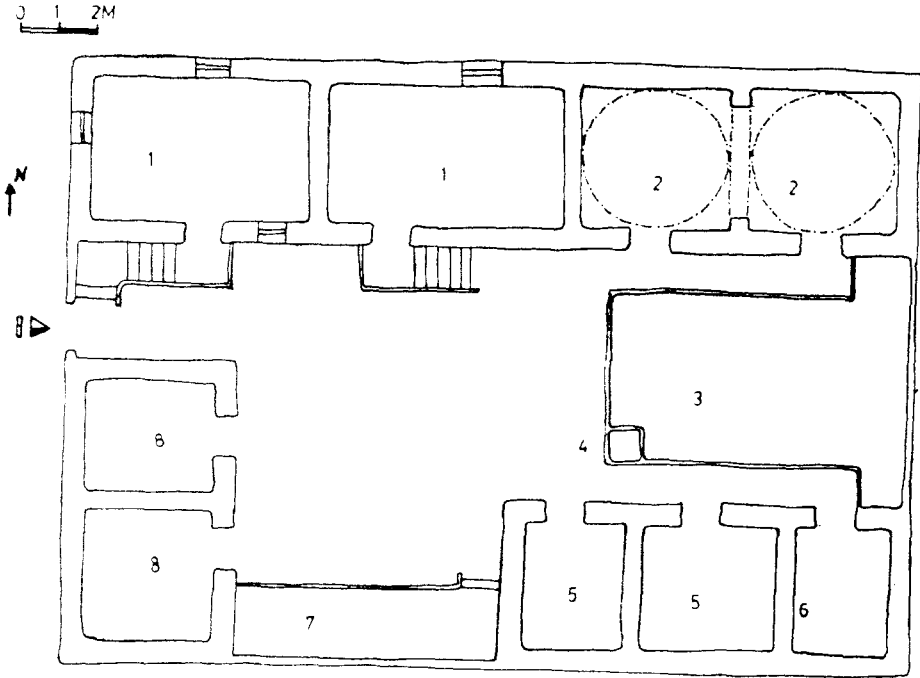
0 1 2M

الشكل (٨-١٦)

قرية العزيزية - السفيرة - منزل عبد العزيز الجفال

١- الواجهة الجنوبية

٢- المسقط الأفقي



الشكل (٨-١٧)

منزل السيد خلف العدول السفيرة.

- ١- سكن رجال ٢- سكن ومعيشة ٣- جنيبة ٤- بئر ٥- مونة.
٦- علف ٧- دكة ٨- غرف خدمات

إلى مقطع دائري . بواسطة بناء أقسام نافرة إلى الداخل تسمى «ثعلبة» والقسم الدائري أي مدماك القبة يبنى من الخارج بدون اللجوء إلى الخيط .

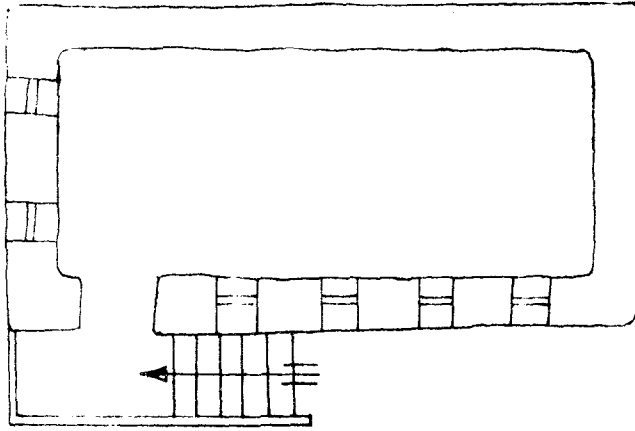
الشكل (٨-١٦) منزل عبد العزيز الجفال نموذج من قرية العزيزية عمر القباب حوالي خمسين سنة قام ببنائها المعمار قاسم المحمد القس من السفيرة واستغرقت عملية بنائها حوالي أسبوع .

القبة الطينية:

إن العنصر الأكثر أهمية وإثارة للجدل في دراستنا السابقة لأبنية الريف ، هو القبة الطينية على الرغم من بدائيتها وبساطتها إلا أنها تحوي قدراً من التميز والخصوصية ، وتتطلب سوية من تقنية البناء ، وهي بحد ذاتها تقنية معمارية -إنشائية يمكن فهمها واستثمارها بالطريقة التقليدية نفسها ، أو عن طريق تطويرها .

فمن الناحية التاريخية ، من الصعوبة معرفة التاريخ الذي نشأ فيه هذا الأسلوب التقليدي في التسقيف ، على الرغم من أنه بات من شبه المؤكد أن القبة وكذلك القوس والعقد هي ابتكارات حضارات وادي الرافدين والشرق الأدنى بشكل عام . فإذا كانت القبة ظهرت فعلاً في مساكن حضارة حلف ، فمعنى ذلك أن عمرها يتراوح بين (٦٠٠٠ - ٧٠٠٠) سنة ، ولنفترض أن علماء الآثار بالغوا أو أخطؤوا في نسب القبة إلى حضارة حلف ، والقوس إلى العبيد المتأخرين في أم الدباغية ، لكنه من شبه المؤكد أن أسلوب الاعتماد على مادة البناء المحلية (طين ، قرميد ، حجر خفيف) وتطويره لإدخاله في عملية التسقيف -وبالتالي التغلب على إجهاد الشد في الأسقف الذي يسبب الانهيار عادة -هذا الأسلوب التقليدي في البناء يتراوح (٤-٥) ألف سنة .

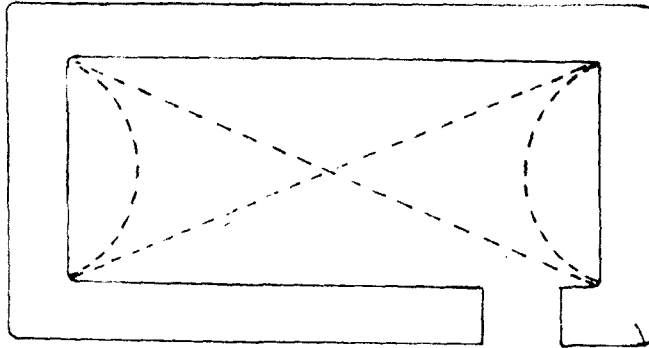
فهل يفترض كل ذلك أن عمر القبة الطينية المخروطية التي ندرسها والتي توجد بكثرة في القرى المحيطة بحلب والمناطق الشمالية والوسطى من سوريا بشكل عام أيضاً طويل إلى هذا الأمد؟ من الصعب الإجابة عن هذا السؤال على أساس أن



1



0 1 2 m



2

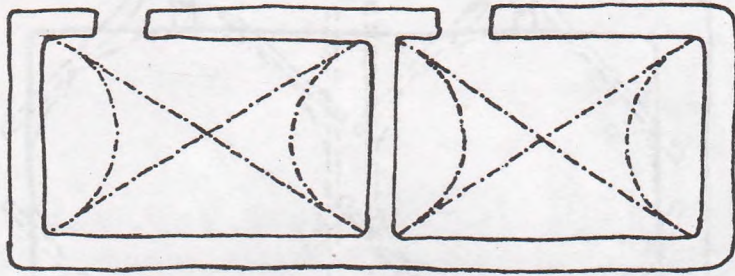
منزل السيد خلف العدول - بلدة السفيرة .

٢- القبو .

١- الطابق الأول

الشكل (٨-١٨)

-١٣.-



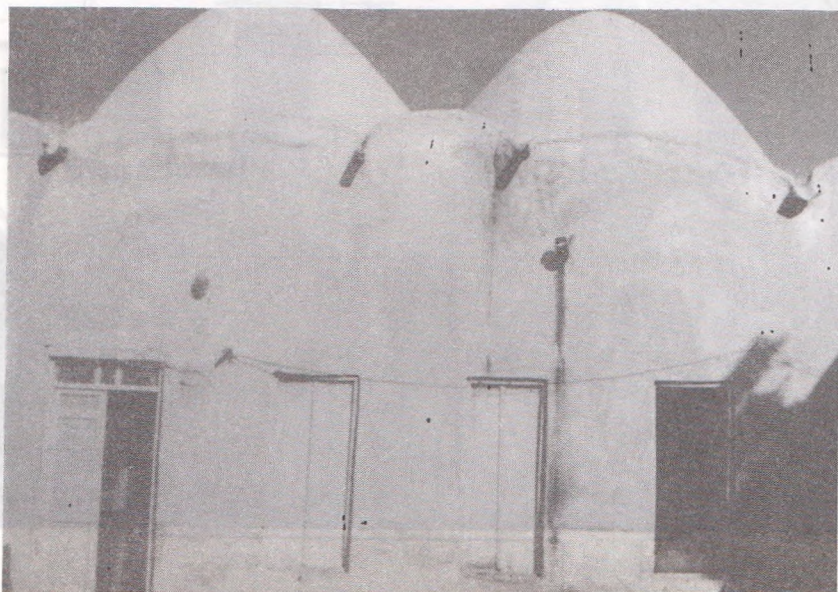
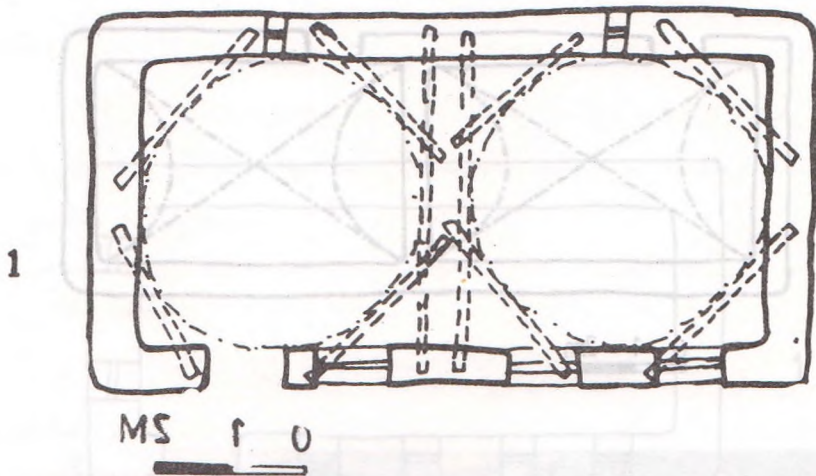
0 1 2m



الشكل (٨-١٩)

منزل السيد خلف العدول - بلدة السفيرة .

- ١- مسقط أفقي للقبو .
٢- الواجهة الجنوبية من الداخل .



الشكل (٨-٢٠)

(٤)

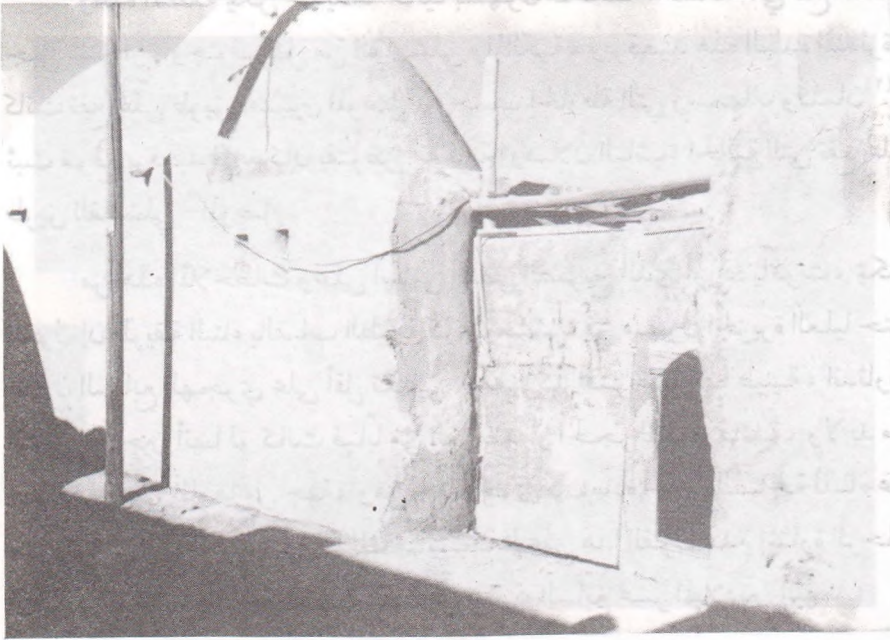
بلدة السفيرة - منزل - مضافة حسن حاج محمود بركات

٢ - منظر أمامي للمضافة .

١ - المسقط الأفقي



قرى الطين - م ١٠



الشكل (٨-٢١)

بلدة السفيرة

- ١- منظر عام لقبابها
- ٢- البوابة الكبيرة للأحواش .

القرى قصيرة العمر من جهة ومادة الطين مادة غير حضارية إن جاز التعبير ، إنها تفتقر إلى الديمومة ، والبناء الطيني في الحالات القصوى مع الاستثمار والصيانة لا يتجاوز عمره ثلاثة قرون .

ومع ذلك يظل احتمال انتقال هذه الطريقة من البناء من حقبة إلى أخرى ، ومن منطقة إلى أخرى تجاورها وارداً .

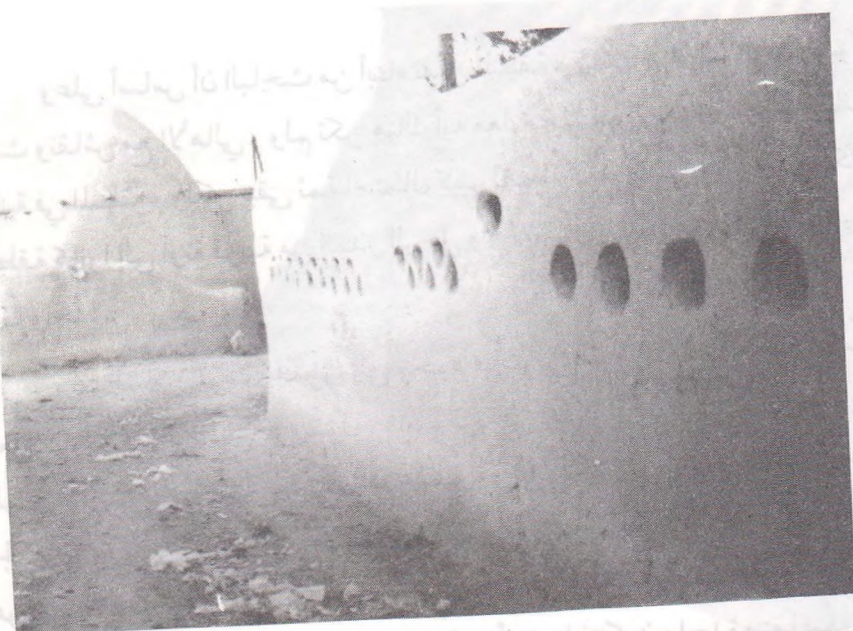
فيذا حاولنا تقصي أخبار القباب في القرى ، إبان العهود الإسلامية لانصادف إشارات واضحة تؤكد على وجود قباب مبنية من الطين باستثناء ما أورده ياقوت عن قرى منطقة برقعيد : «والبقعاء : كورة كبيرة من أرض الموصل وهي بين الموصل ونصيبين ، قصبته برقعيد فيها قرى كثيرة ، بناؤها كلها قباب»^(١) .

وهذه المنطقة يمكن تحديدها حالياً بسهولة محافظة الحسكة التي تقع شمال جبل سنجار ، وجنوب كل من القامشلي والمالكية ، وبرقعيد هذه البلدة المندثرة ، كانت تقع على طريق نصيبين الموصل ، وحسب الخارطة التي رسمها بروكلمان^(٢) . ثبت موقع برقعيد في مكان يفترض أنه قرية «رميلان الباشا» الحالية التي تقع على طريق القامشلي - الموصل .

من هذه الملاحظات وعلى أساس النص الصريح الذي أورده ياقوت ، يمكننا القول إن طريقة البناء بالقباب الطينية كانت منتشرة في سهول الجزيرة العليا حتى القرن السابع الهجري على أقل تقدير . وما يؤكد افتراضنا إنها طينية ، اندثارها التام ، في حين أنها لو كانت قباباً من القرميد أو الحجر لظلت قائمة ، ولا بد من مصادفة بعض آثارها من جهة ، ومن جهة أخرى فإن مادة الحجر الصالحة للبناء غير متوافرة في تلك المنطقة ، وكذلك ما يشجعنا على هذا القول عدم إشارة الرحالة الذين مروا في المنطقة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين إليهما .

(١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، صفحة ٤٧٢ / ١ .

(٢) كارل بروكلمان . - تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : منير بعلبكي .



الشكل (٨-٢٢)

قباب متميزة

- ١- من قرية تياره - شرق حلب
- ٢- من قرية صوران - الباب

وعلى أساس أن الباحث من أبناء نفس المنطقة، كانت هذه المسألة موضوع بحث ونقاش مع الأهالي، ولم تكن هناك أية معلومة تشير إلى بناء قديم من قباب طينية في المنطقة، ولكن يبقى ثمة احتمال كبير لصحة معلومات الحموي، فسكان المنطقة كانوا إلى أونة قريبة من البدو الرحل ولا تتجاوز مدة استقرارهم الأخير قرناً واحداً.

ولقد أشار ياقوت الحموي إلى وجود قباب في القرى المحيطة بحلب أيضاً، فعند حديثه عن قرية أندرين يقول: «اسم قرية في جنوب حلب بينهما مسيرة يوم للراكب في طرف البرية ليس بعدها عمارة وهي الآن خراب ليس بها إلا بقية الجدران...» ويتابع شرح معنى كلمة الأندرين: «قيل: إن الأندر بلغة أهل الشام هو البيدر فكان هذا الموضع ذا بيادر، والبيادر هي قباب الأتعمة، فنظروا إلى تأنيثها ووجب أن تكون فيها تاء تدل على تأنيثها فتكون واحدة منها بيدرة أو قبة»^(١).

وأشار أيضاً إلى أنه بقرية كفرنبو قرب حلب قبة عظيمة^(٢)، كما أننا نجد ذكراً للقباب في وصف قرى شرق حلب: «دير حافر، قرية بين حلب وبالس ذكرها أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني في قوله يمدح علي بن مالك بن سالم العقيلي، صاحب قلعة جعبر:

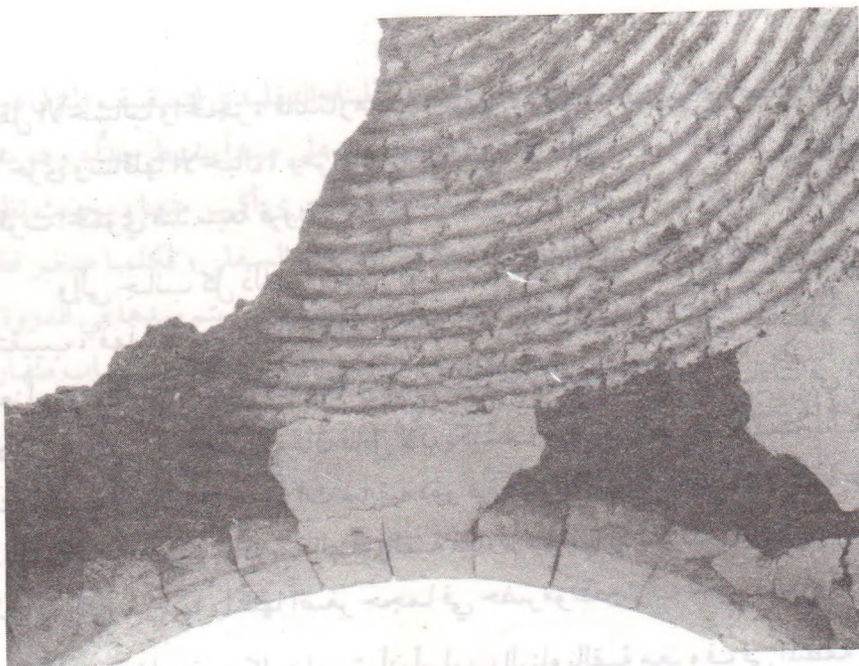
ألا كم ترامت بالس بمسافر	وكم حافراً دميت يا دير حافر
وبين قباب المنجيين مجبة	أبت أن تظا إلا بأجفان ساهر ^(٣)

فثمة احتمال أن يكون هذا النمط من القباب، سائداً في بناء الكثير من القرى في سهول الجزيرة وأواسط بلاد الشام، في تلك المناطق التي يتوافر فيها الطين،

(١) ياقوت الحموي - معجم البلدان، صفحة ٢٦١/١.

(٢) المرجع السابق، صفحة ٤٧١/٤.

(٣) المرجع السابق، صفحة ٥٠٤/٢.



الشكل (٨-٢٣)
مناظر لقباب متهدمة



١- من قرية تياره - شرق حلب .

٢- من قرية العزيزية - السفيرة .

وتقل الأخشاب والحجر، فاندثارها في الجزيرة لا يمنع أن تستمر في بعض المناطق الأخرى وتتناقلها الأجيال، ومن المعتقد أن تكون هذه القباب هي تلك التي قصدها ياقوت الحموي منذ سبعة قرون.

وإلى جانب كل ذلك، وحتى لو مرت آلاف السنين على اكتشاف طريقة التقبيب، فهذا لا يمنع من أن يكتشفها الإنسان في مناطق أخرى في مرات لاحقة بمعزل عن الأولى. بنفس الطريقة وضمن شروط مشابهة لتلك التي سادت في المرة الأولى، حيث أن عقل الإنسان قابل لأن يكتشف ويسخر الطبيعة لخدمته بآليات متشابهة، دون أن يكون لخبرات سابقه دور في هذه الاكتشافات فالأمثلة كثيرة على ذلك، وما دمنابصدد طريقة البناء بالقبة فقد تم مؤخراً اكتشاف مقابر تشبه هذه القباب التي ندرسها ولكنها أصغر حجماً في حضرموت جنوب الجزيرة العربية^(١).

ونستخلص من كل ما سبق أن أسلوب البناء بالقبة معروف في المنطقة منذ أقدم العصور، ولكنه لا يمكننا أن نقدم دلائل واضحة وثابتة على استمرارية نفس النمط خاصة في الريف. ولأنه ثمة فارق تقني بين طريقة بناء القبة المنحنية (الكروية) والمخروطية التي ندرسها، حيث أن في القبة المخروطية تكون المداميك أفقية تماماً في حين في الكروية تميل المداميك على الأفق تدريجياً حتى زاوية قريبة (٩٠°) في الذروة. ولأن هذه التفاصيل لم تذكر، وكذلك كانت الأساليب التقليدية في البناء وليدة الحاجة، فإن احتمال كشف طريقة البناء بالقبة المخروطية محلياً، وفي مرحلة متأخرة احتمال وارد، خاصة بعد أن تأكدنا من الانقطاع الحضاري في العمران الريفي في منطقة البحث لعدة قرون وسيادة نمط حياة البداوة.

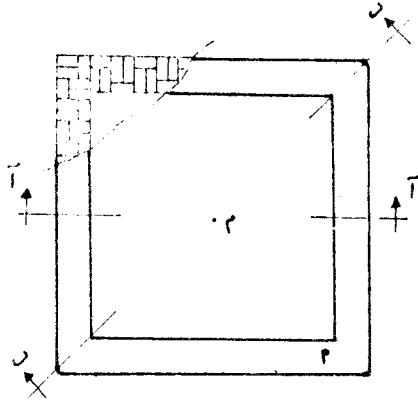
فقد أصبح من المؤكد أن القبة الطينية موضوع الدراسة كانت موجودة منذ حوالي قرن وربع القرن أو أكثر، في هذه القرى القائمة حالياً، وقد تكون تلك بدايتها بمواصفاتها الراهنة.

(١) الجديد حول الشرق القديم.

والقبة المخروطية الطينية هي أسلوب للبناء التقليدي لتسقيف المنزل دون اللجوء إلى مادة الخشب أو غيرها، وهي تعتمد على مبدأ بسيط جداً، وهو بناء مداميك دائرية من اللبن كل واحدة تستند على أخرى أكبر منها، بحيث تظل المداميك متوازنة تحت قوة الثقالة ورد فعل المدامك السفلي، فكلما صغر قطر المدامك مال السقف نحو الداخل وتم تضيق الفتحة، حتى يتم سدها في الذروة، وفي الشكل التالي رسم توضيحي للقبة مع بعض الصور الملتقطة لقباب منهارة لزيادة الإيضاح.

عناصر قبة طينية نموذجية

1



١- المسقط الأفقي .

١- القبة في الأسفل

٢- المسقط الأفقي :

القبة في الأعلى ، أسفل السقف .

٣- المسقط الأفقي

في بداية القبة/ أسفل البيضة

- عناصر المنزل المقبب :

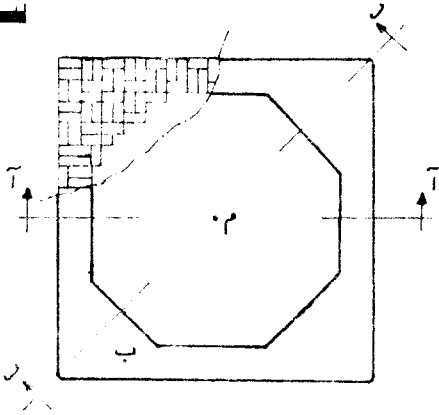
أ- الجدار الشاقولي .

ب- الثعلبة .

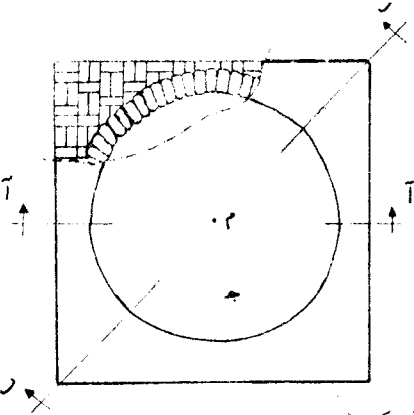
ج- البيضة/ القبة .

0 1 2 M

2

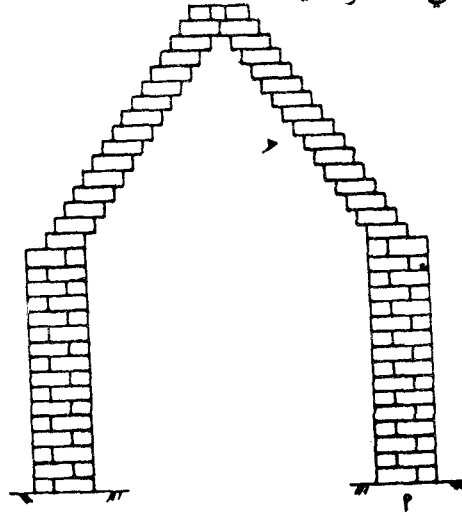


3

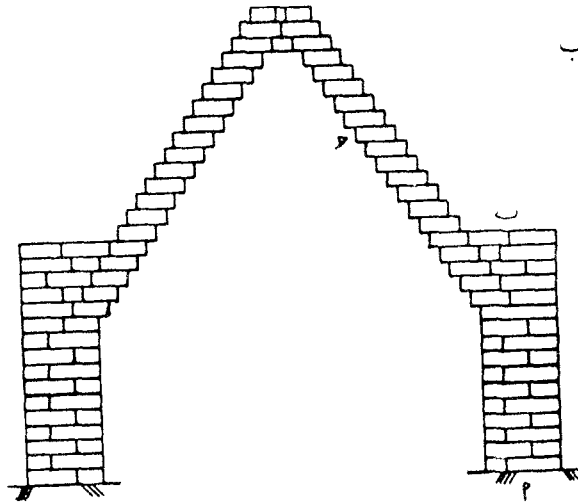
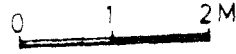


الشكل (٨-٢٤)

مقاطع توضيحية في قبة نموذجية



المقطع أ - أ



المقطع ب - ب

الشكل (٢٥-٨)

الفصل التاسع

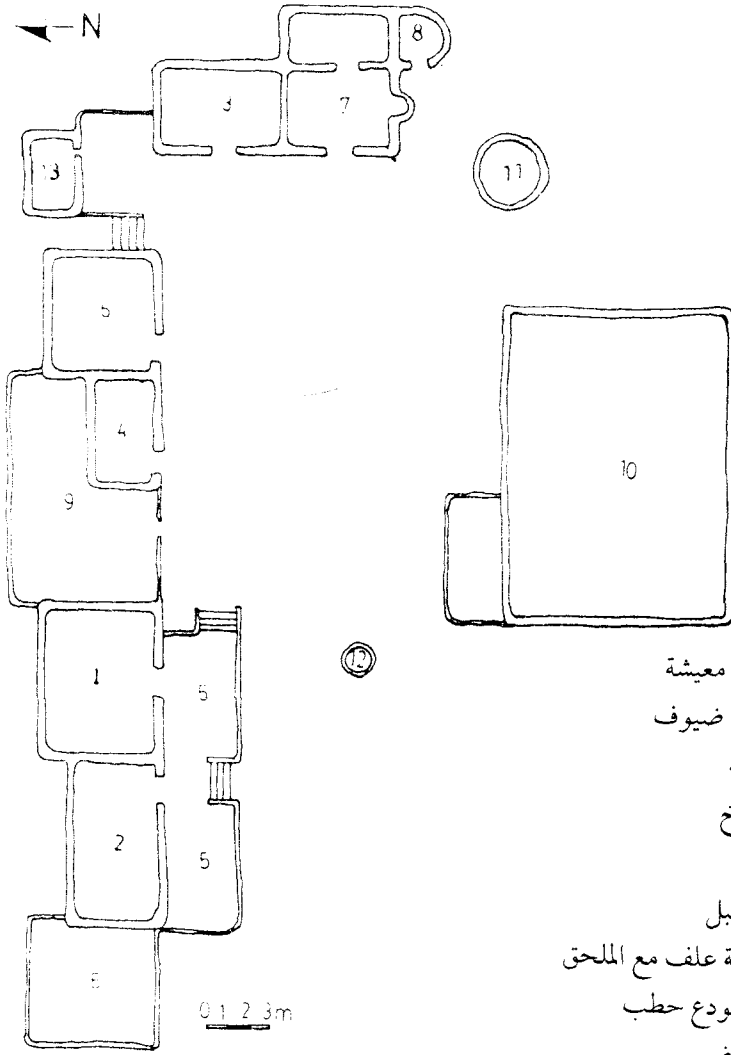
قرى منبج وجرابلس

قرية السعيدية:

تقع قرية مزرعة السعيدية على بعد حوالي ٧٠ كم من حلب شرقاً، حوالي ١٠ كم غرب منبج، القرية حديثة البناء إذ بنيت منذ مطلع السبعينات، جاء أهلها من الشمال من عدة كيلومترات من قرية الصعيدية الأصلية وكذلك من قرية غويران وليكونوا قرب الطريق العام وكذلك بجوار أراضيهم، السكان عرب من قبيلة «بني سعيد» و«الحمدون» ويبدو أن اسم القرية جاء من اسم القبيلة.

وعلى الرغم من أن القرية حديثة العهد إلا أن طراز البناء هو ذاته المتبع في القرية الأصلية منذ أكثر من خمسين عاماً، وقد أكد الأهالي أنهم نقلوا النماذج وأحياناً نفس ترتيب وحجم المنزل. سمة القرية أن أسقفها مستوية من العوارض الخشبية الرئيسة والثانوية وعليها عيدان ومن ثم طبقة تربة، مع إعطاء ميل كاف لتصريف مياه الأمطار، والطبقة الأخيرة كساء من المونة الإسمنتية في الغالب، أو طين مدكوك أو لين.

اللون غصاري، وأحياناً كريمي جميل، تتم طريقة التطين على خبرة طويلة في هذا المجال، وكذلك الترتيب الداخلي للمنازل، حيث ثمة توزيع لغرف السكن فهي بالعادة أكثر من غرفة (معيشة + ضيوف، وغرف العلف والدواب) الغرف



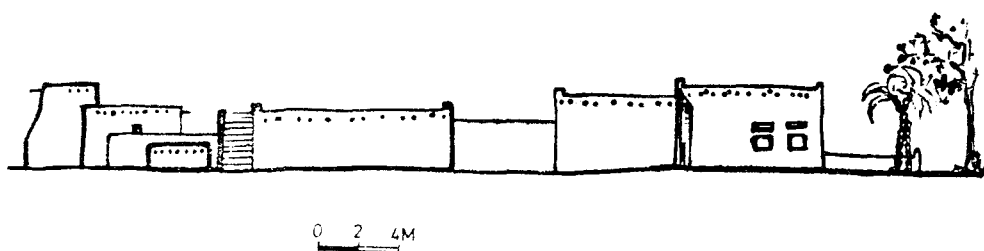
- ١- غرفة معيشة
- ٢- غرفة ضيوف
- ٣- غرفة
- ٤- مطبخ
- ٥- دكة
- ٦- اسطبل
- ٧- غرفة علف مع الملحق
- ٨- مستودع حطب
- ٩- حوض
- ١٠- حاكورة
- ١١- مستودع شعير
- ١٢- بئر
- ١٣- قن دجاج

مزرعة السعيدية : منزل السيد عبد السلام الحمادي العلي

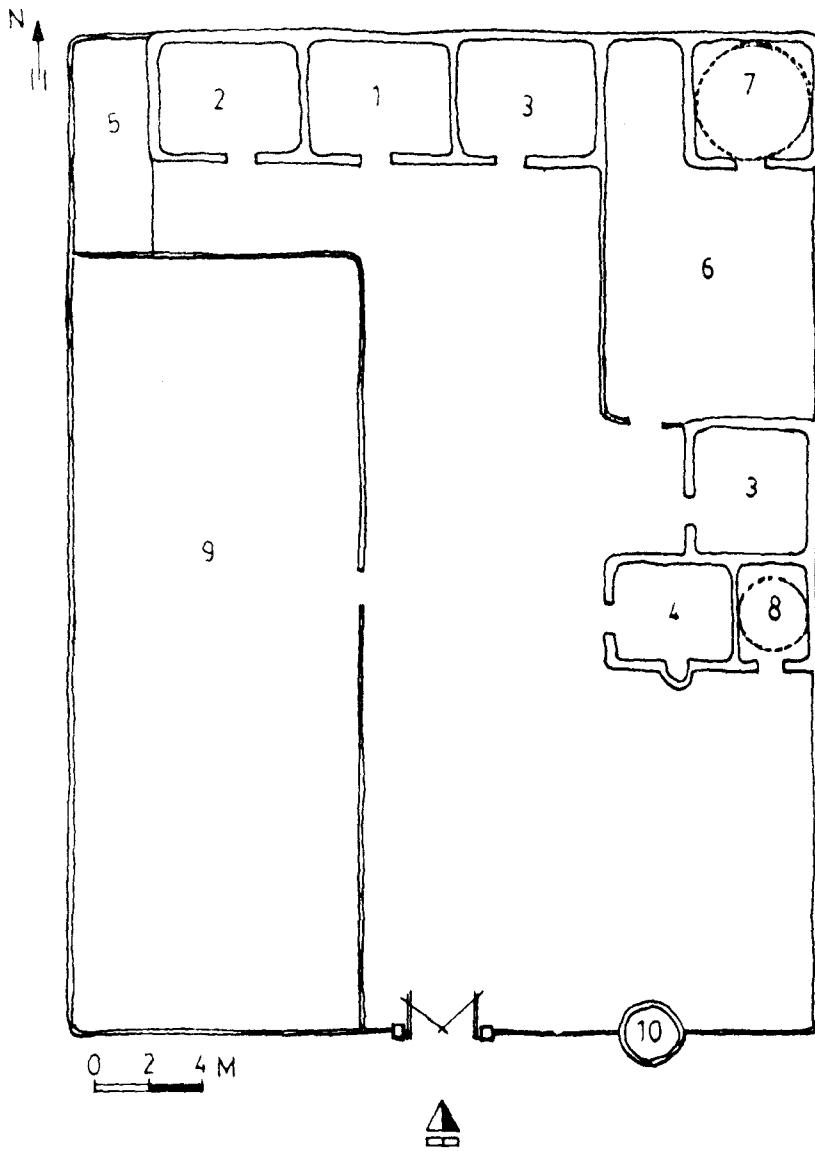
الشكل (٩-١)



الشكل (٢-٩)
مزرعة السعيدية - عبد السلام الحمادي العلي - الواجهة الأمامية .



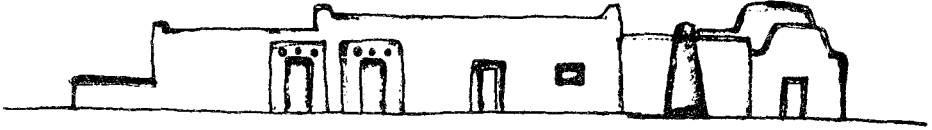
الشكل (٣-٩)
مزرعة السعيدية - عبد السلام الحمادي العلي - الواجهة الخلفية .



الشكل (٩-٤)

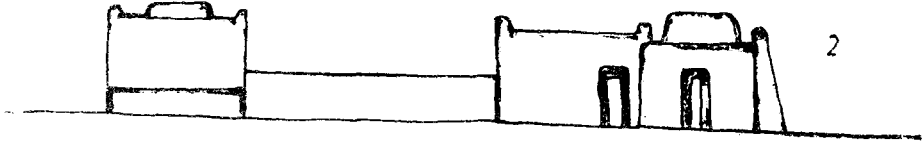
- | | | | | |
|----------------|-------------|-------------|---------|--------|
| ١- معيشة | ٢- ضيوف | ٣- نوم | ٤- مطبخ | ٥- دكة |
| ٦- حوش حيوانات | ٧- غرفة علف | ٨- مخزن حطب | | |
| ٩- حاكورة | ١٠- بئر. | | | |

قرية السعيدية - منبج - منزل حاج إبراهيم



1

0 2 4M



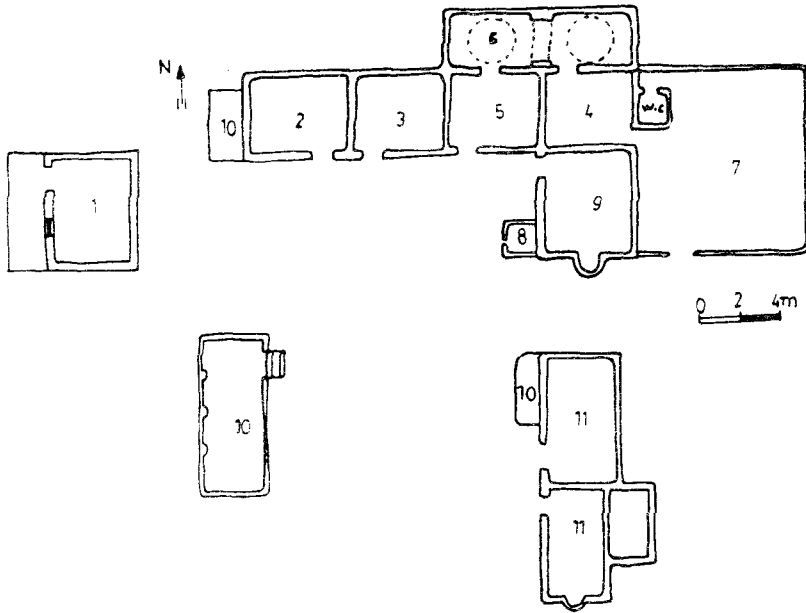
2

الشكل (٩-٥)

قرية - السعيدية - منطقة منيج - منزل حاج إبراهيم

١ - الواجهة الأمامية / الجنوبية .

٢ - الواجهة الغربية



الشكل (٦-٩)

مزرعة السعيدية - منزل علي الحسين

- | | |
|---------------------------|-----------------|
| ١- غرفة بلوك حديثة - ضيوف | ٢- معيشة . |
| ٣- معيشة | ٤- علف . |
| ٥- حيوانات | ٦- أنصاف قباب . |
| ٧- حوش للحيوانات | ٨- قن للدجاج . |
| ٩- مطبخ | ١٠- دكة . |
| ١١- غرف خدمات . | |



0 2 4M

الشكل (٩-٧)

قرية - السعيدية - منزل علي الحسين - الواجهة الغربية .

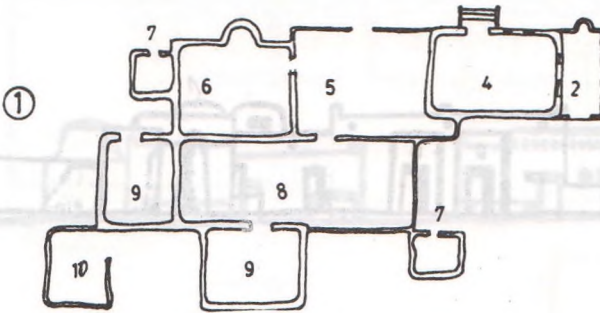
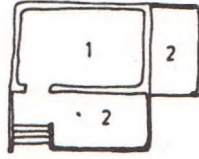


0 2 4M

الشكل (٨-٩)

قرية - السعيدية - منزل علي الحسين - الواجهة الجنوبية .

- ١- غرفة مضافة ٢- دكة ٣- حوض زهور
 ٤- معيشة ٥- حوش للمواشي ٦- غرف علف
 ٧- قن دجاج ٨- غرفة خزن.
 ٩- متبن/ علف ١٠- مرحاض.



الشكل (٩-٩)

قرية -السعيدية --منزل شيخ جنيد .

- ١- مسقط أفقي للمنزل ٢- منظر للغرفة رقم (٤)

متسعة في بعضها خاصة غرف المعيشة : عمود خشبي في الوسط تركز عليه عوارض «الجسور» الخشبية الرئيسة، المنازل متفتحة على الخلاء، وثمة «حابوسة» حوش للمواشي وحاكورة للخضار والأشجار إن وجدت. والنوافذ كبيرة في تصميمها إلا أنها تسد جزئياً، وثمة نوافذ في الواجهة الشمالية مؤقتة تفتح صيفاً فقط.

ومن استحصاء واستطلاع الآراء، كانت النساء يبدن إعجابهن بأبنية المدينة البلوك والإسمنت، ويفضلنها على المنازل الطينية، بسبب معاناتهن من النظافة والصيانة اللتين تستلزمان المنازل الطينية، وأغلبهن يحملن منزل حديث له «برندا» حتى أن إحداهن (وهي مسنة) تمنت لو تملك تسعين ألف ليرة لتبني «فله» حجرية كذلك التي بدأت تظهر في الجوار في القرى المحاذية للطريق العام. ولا يشعرون مع الرجال بالقيمة الجمالية للمساكن التي هي نتاج ذوقهم، وبالنسبة للسفر أو الهجرة إلى المدينة فعلى الرغم من وجود طموح عام حول الظاهرة، إلا أن الخدمات التي يسهلها الطريق العام المار من القرية، وكذلك امتلاكهم للأرض قد خفف كثيراً من هذه الرغبة.

وثمة أنصاف قباب في القرية، معظمها غرف للعلف والدواب، كما هو ظاهر في الأشكال التالية، وبيوت الدجاج التي هي في الغالب من تصميم النساء الصرّف لها طابع فطري أكثر من المنازل الكبيرة، معظم الأعمال الإنشائية تساهم فيها المرأة إلى جانب الرجل. انظر الأشكال القادمة.

قرية مغر الصريصات:

تقع القرية على ضفة الفرات الغربية جنوب مدينة جرابلس حوالي ١٢ كم تقع على حافة الانهدام الكلسي، قسم من القرية في سهل حوض الفرات، والقسم الآخر في الأعلى، عدد المنازل حوالي ستين، وعدد السكان يقارب (٧٠٠) نسمة، السكان عرب قبيلة الصريصات «فخذ من قبيلة طيء». وهم فلاحون يعملون في الأرض وتربية المواشي. مستقرون منذ حوالي مئة سنة.

كانوا في البدء في منطقة تبعد عن القرية حوالي ٣ كم، القرية تكونت حول المغارات الكلسية، واستخدمت المغارات للسكن ولإيواء المواشي. لذلك من الملاحظ أن اسم القرية عبارة عن دمج بين اسم القبيلة، وجغرافية المكان «المغاور». خرجوا من الكهوف منذ حوالي خمسين سنة، وكان عدد المنازل في البداية سبعة فقط.

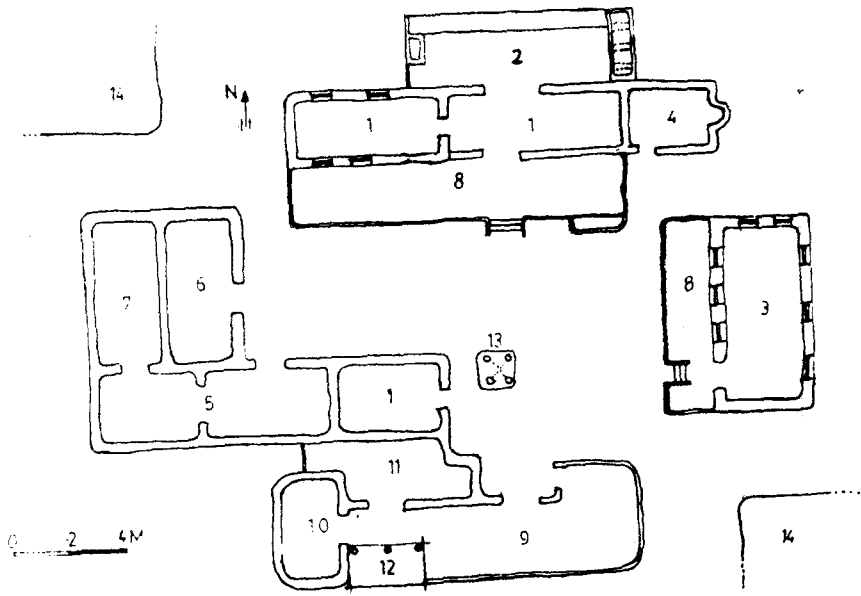
عملية البناء تمت بواسطة الفلاحين أنفسهم وساعدوا «المعمار» الذي استقدم إما من جرابلس أو أحياناً من منبج، وقد يكون في بعض الحالات من القرى المجاورة، لذلك لا تبدو الفوارق كبيرة بين عمارة قرى ضواحي منبج، وحوض الساجور، وقرى جرابلس.

البناء طيني، قوامه أحجار كلسية صغيرة غير منجدة، تربط بينها مونة طينية، ثم تليس بالطين، الأسقف مستوية، من العوارض الخشبية وعيدان متوافرة في ضفاف الفرات، طبقة إكساء السطح طينية، وأخيراً، طبقة إسمنتية، وعندما تكون طينية تدحل بواسطة حجر يدعى «الملوق».

اللبن قليل في القرية ولا توجد قباب أصلاً.

المسقط الأفقي للأبنية متميز ومعقد يتمتع فيها قسم الحيوانات والعلف باستقلالية نسبية مع «حايوسة» و«أخور» معلق، المسكن في القرية منفتح على الجوار من جهة واحدة أو عدة جهات، والمضافة منفصلة عن بيت المعيشة في الغالب. تكثر في المنازل «الدكك» للجلوس والنوم عليها صيفاً وتسمى محلياً «ساكية».

النوافذ صغيرة، وقد أخبرنا الحاج حسن محمد الجاسم، عن السبب بأن الجلسة عربية في المسكن وارتفاع النافذة عن الأرضية (٢٥) سم، أي مساو لارتفاع الوسادة وكل نافذة ينظر من خلالها شخص واحد، ومن الملاحظ أن التصميم الأصلي للنوافذ كبير نسبياً، إلا أنها مسدودة جزئياً ومعدلة، بحيث تسمى عندئذ بـ«طاقة».



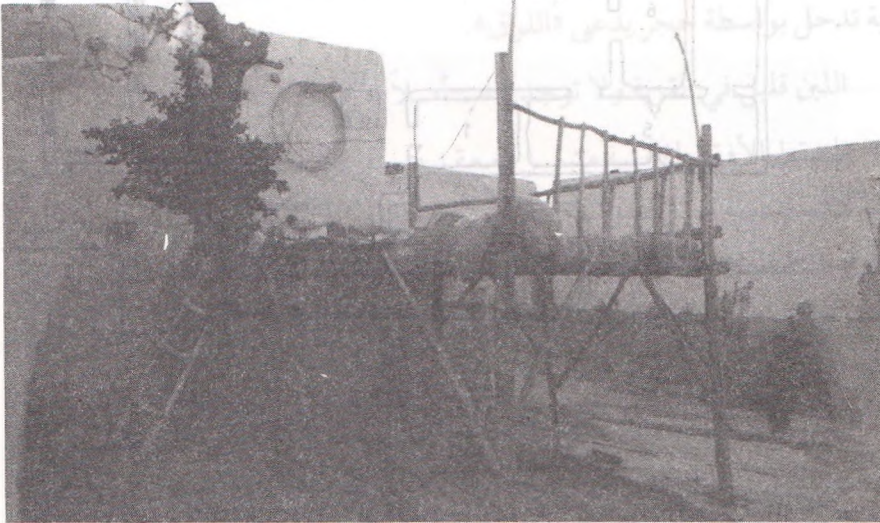
الشكل (٩-١٠)

قرية مغر الصريصات - منطقة جرابلس .

- ١- غرف ٢- البالق ٣- المضافة ٤- المطبخ ٥- اصطبل ٦- غرفة المونة
 - ٧- غرفة التبن ٨- دكة ٩- حوش للحيوانات ١٠- قن للدجاج
 - ١١- حوش للدجاج ١٢- مظلة ١٣- سرير من القش ١٤- جوار
- منزل السيد سليمان حمد الجاسم



١- منظر عام للقرية تظهر فيها أسطح المنازل.



٢- منظر داخلي لمنزل سلمان حمد الجاسم (١٩٩٠م).

الشكل (٩-١١)

قرية مغر الصريصات - منطقة جرابلس

كما عبّر بعضهم الآخر عن رأيه بأن الخوف من اللصوص هو الذي جعل من النوافذ لدينا صغيرة، والمنازل مرتبة من الداخل ونظيفة.

أهم عنصر جديد يميز منازل قرى جرابلس، هو الغرفة الخلفية الشمالية التي تتصل مع موزع - صالون وغرفتين - بواسطة قاطع غير مكتمل، والغرفة متطاولة باتجاه شرق - غرب أي باتجاه البناء، وظيفتها حفظ الفرش والمخدات التي هي كثيرة في منازل ريف جرابلس لدرجة تحتاج فعلاً لغرفة خاصة. في الغرفة دكة أو ما شابه، تصف وتوضع عليها الفرش حتى علو مقارب للسقف، هذه الغرفة تسمى البالق، وهي واضحة من المنظر العام للقرية في خلفية الكتلة الأساسية للمنازل. شكل (٨-١١) منظر عام لقرية «مغر الصريصات».

قرية العمارة:

تقع القرية جنوب جرابلس على الطريق العام منبج - جرابلس، حيث تبعد ٩ كم عن جرابلس، تقع أيضاً على الضفة الغربية للفرات، وفي المنعطف الذي يشكله الطريق ليوازي الفرات متجهاً شمالاً إلى جرابلس.

القرية كبيرة تقع على سفح هضبة انهدام حوض الفرات الكلسية. عدد منازلها حوالي (١٥٠) منزلاً يقارب عدد سكانها ألفاً وخمسمئة فرد. أهل القرية من عشيرة «البرق»، وقد يكون أصلهم تركمانياً، حسب ما أوضح بعض أهاليهم على الرغم من اللهجة البدوية التي يتحدثون بها، ولكن ثمة كلمات تركية باقية.

عمر القرية أكثر من مئة سنة، ولقد قال الحاج محمد البرهو (٧٥) سنة: «إنه لم يسمع إن كان أهل القرية رُحلاً في الأصل»، لذلك فالاعتقاد السائد أنهم يعملون في الزراعة منذ مدة طويلة.

إن طراز أنبتها هو في الحقيقة نموذج لقرى جرابلس، مع أنها تميل في تكوين نسيجها لأن تكون «بلدة» فالمنازل كبيرة نسبياً بغرفها وملحقاتها وتعلو كثيراً عن

الأرض سواء كانت الأرضية عبارة عن ردم، أو قد تكون أقبية في بعض الحالات، وقد وصفوها «بأنها أشرح».

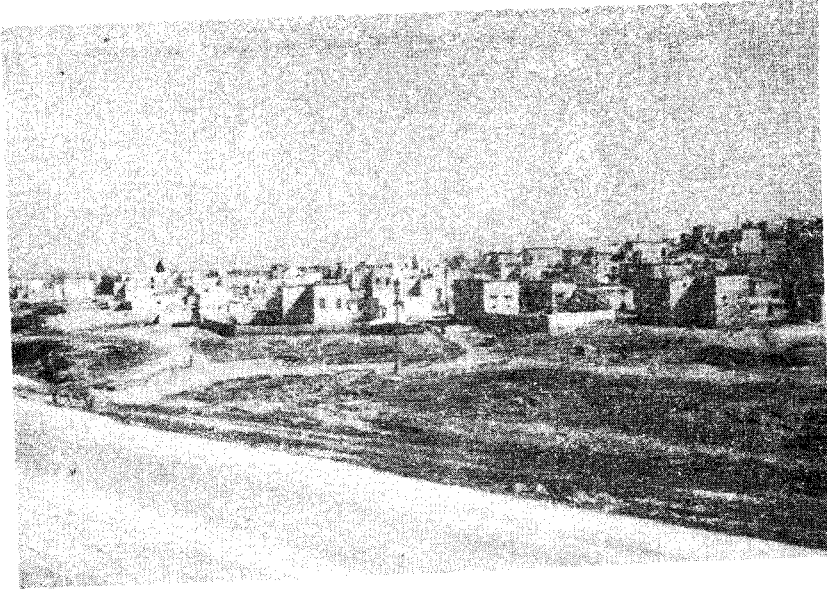
يستخدم في البناء اللبن، ولكن الأساسات حجرية، وثمة غرف من الحجر الكلسي، المعماريون كانوا في السابق من القرية وأشهرهم «زكو الخلاوي» و«أحمد المحمود».

حيث كان الواحد منهما يبني ألف لبنة في النهار الواحد، لكن مؤخراً صادف أن استعان أهل القرية عند البناء بمعماريين من القرى المجاورة.

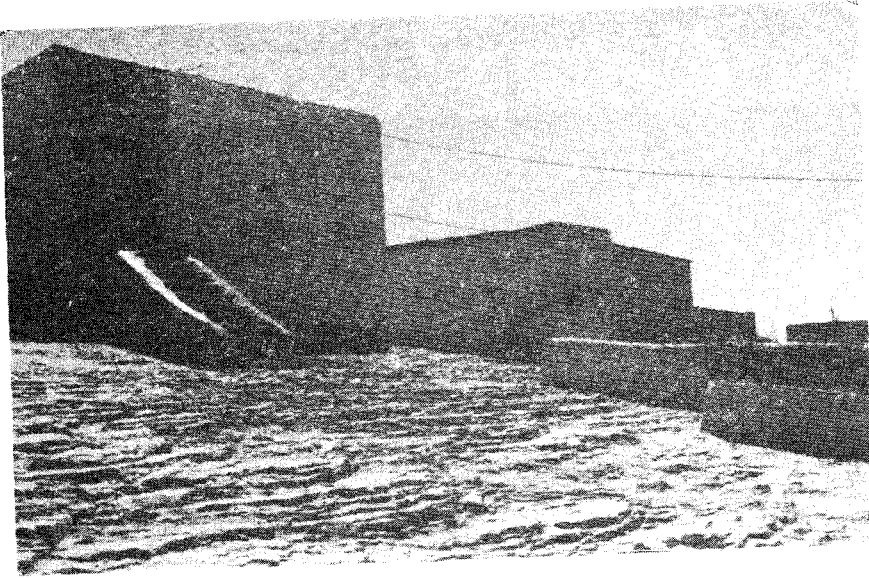
وعن صغر النوافذ، أبدوا نفس الملاحظات حول الخوف من اللصوص الذين كانوا سابقاً يخلعون النوافذ ويأخذون من المنزل المسروق حتى البرغل والسمن. ولكنه سبب غير كاف خاصة بعد زواله فالتقاليد المحلية جاءت من تأثيرات المناخ وخاصة استمرارية هبوب الرياح الغربية.

نماذج منازل القرية لا تختلف من حيث المسقط الأفقي إلا جزئياً عن منازل قرية مغر الصريصات المجاورة، فإنها أوسع وأعلى، والأسقف مستوية من عوارض خشبية فوقها طبقة من «زرب» وهو نوع من القصب يزرع على ضفاف الفرات، ويستخدم «جناب» سواتر لبيوت الشعر أيضاً، الأسقف مائلة لتسهيل تصريف مياه المطر.

المنازل منفتحة على بعضها، فالأزقة تختلط مع الساحات عامة وفسحات الدور الداخلية، لكل منزل أكثر من مخرج على الجوار، ثمة «حواييس» أحواض صغيرة للمواشي وحواكير للخضار والأشجار مستقلة. لذلك تبدو القرية كلها متداخلة ومتراصة، وإن دل ذلك على شيء فعلى الترابط الاجتماعي وعلاقات القرى الحميمة بين الأهالي. ومشاركة المرأة عمل الرجل وعدم تحجبها عن الرجال نهائياً.



١- منظر عام للقرية .



٢- منازل من القرية «مضافة» .

الشكل (٩-١٢)

قرية العمارة - جنوب جرابلس

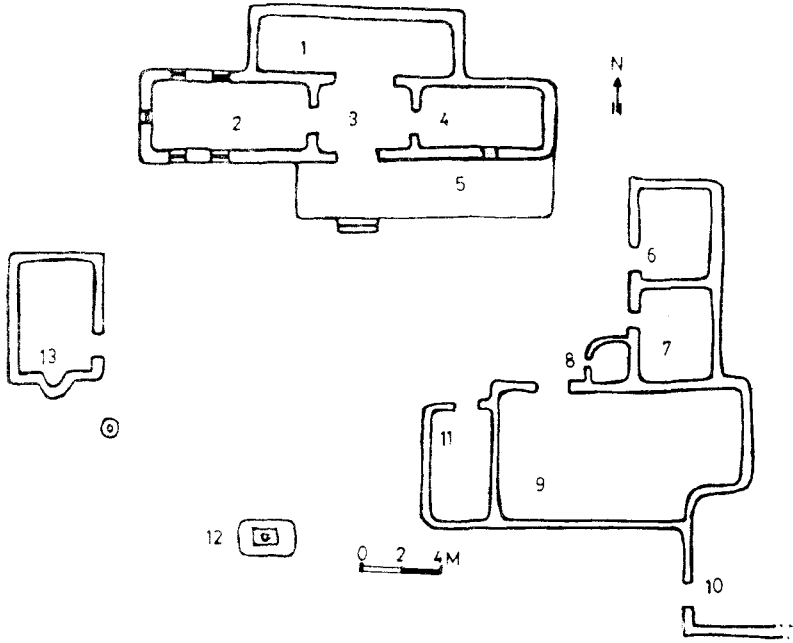


تابع الشكل (٩-١٢)

٣- أثناء صيانة الأسطح في قرية العمارنة - جرابلس



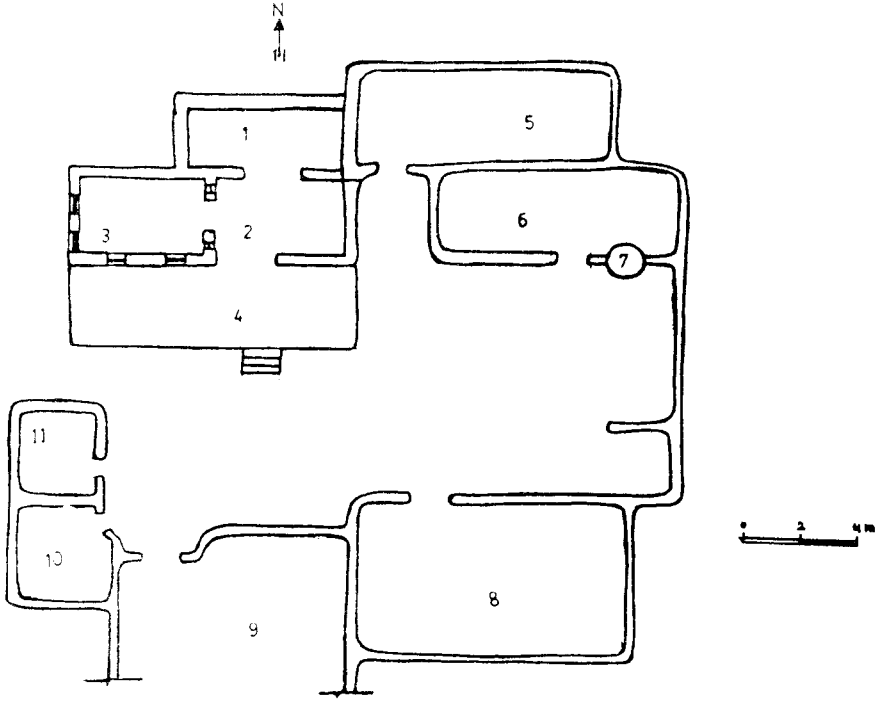
منزل من قرى الساجور - جرابلس



الشكل (٩-١٣)

قرية العمارنة - منطقة جرابلس - منزل أحمد المحمود

- ١- بالق ٢- ضيوف ٣- صالون ٤- معيشة ٥- دكة ٦- مونة ٧- علف ٨- قن ،
٩- حوش للمواشي ١٠- جوار ١١- دواب ١٢- بئر ١٣- مطبخ .



الشكل (٩-١٤)

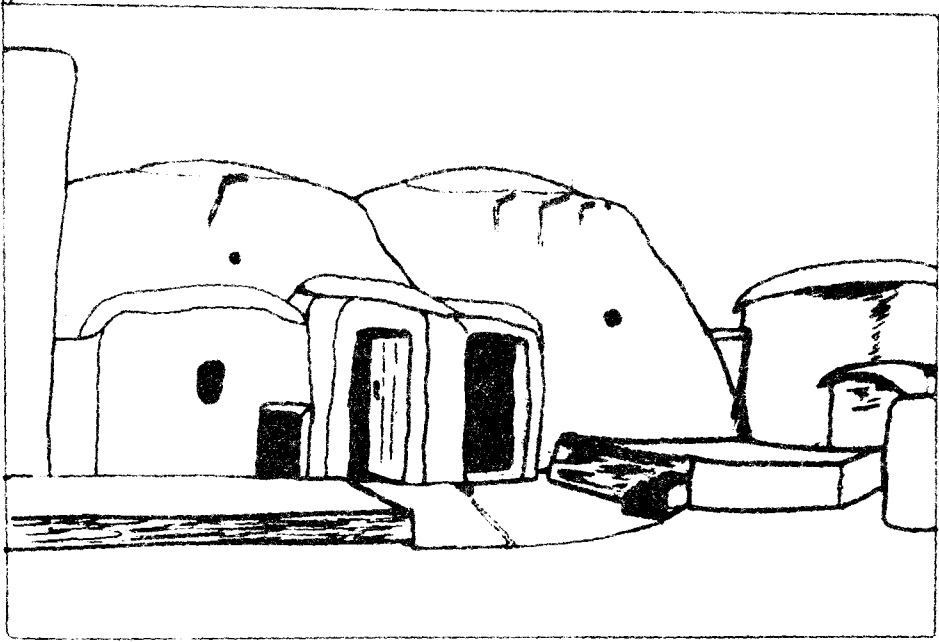
قرية العمارنة - منطقة جرابلس - منزل محمد البرهو
 ١- بالق ٢- صالون ٣- ضيوف ٤- دكة ٥- اسطبل، ٦- مطبخ
 ٧- مدخنة ٨- حوش للمواشي ٩- حاكورة ١٠- خزن ١١- علف

قرى مسكنة وضواحيها:

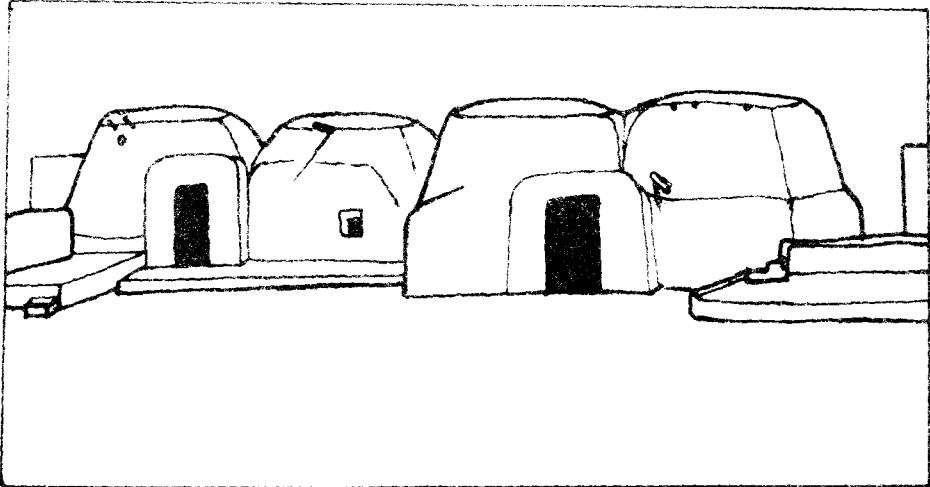
تكثر في شرق حلب بعد مسافة تتجاوز ٥٠ كم أنصاف القباب، وهي في الواقع عبارة عن تعديل للقباب، فعندما يطول بها العمر، وتصبح عرضة للانهييار، يلجأ السكان إلى قص المداميك العلوية من القبة، ومن ثم يتم تغطية الجزء العلوي ذي الفتحة الصغيرة نسبياً، بعوارض خشبية، هذه في الحالة العامة.

ومن جهة أخرى تكثر في بعض المناطق أنصاف القباب، كما في ضواحي مسكنة وقرب قرية المهذوم، ويبدو أن هذه القباب التي تشبه جذع المخروط الدوراني، ليست مجرد تعديل للقباب المخروطية وإنما هي نموذج مستقل بذاته حاول المعمار القروي بفطرته أن يستفيد من خصائص القبة وفوائدها، ومن ثم تغطية الجزء العلوي من القبة ببعض العوارض الخشبية الرخيصة الثمن.

وفيما يلي نموذجان من المنازل ذات أنصاف القباب من قرى غرب مسكنة.



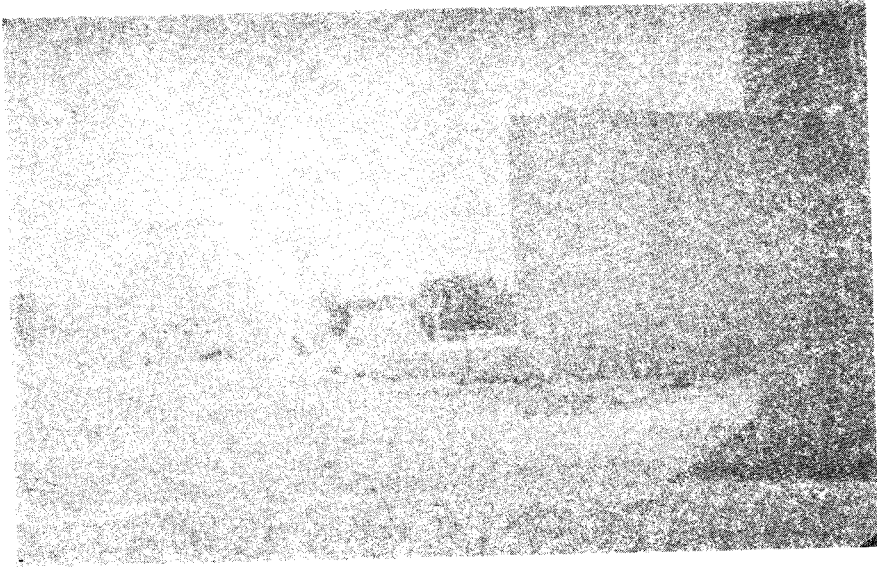
0 2 4M



الشكل (٩-١٥)
أنصاف قباب من قري - غور مسكنة



١- منظر عام لإحدى قرى غرب مسكنة.



٢- أنصاف قباب من القرية، وتظهر في جوارها العربي «الطوق» -أنوافذ الصغيرة.
الشكل (٩-١٦)

الفصل العاشر

قرى الجزيرة: عين العرب ومحافظة الحسكة

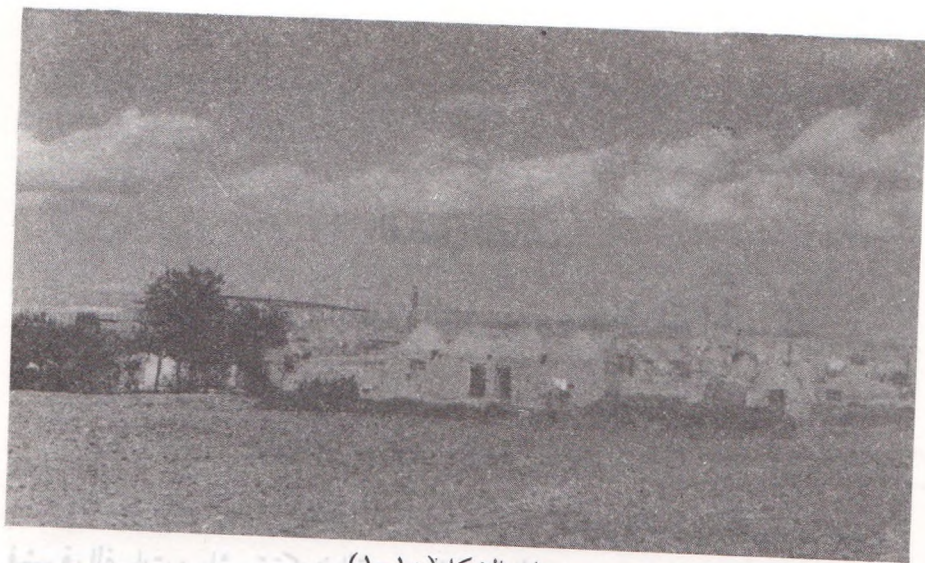
قرية رقاص - جبلي جنوب عين العرب:

تتميز قرى الجزيرة (شرق الفرات) بطابعها الطيني، لعدم توافر مادة الحجر. فشرق الفرات مباشرة تكون القرى مشابهة إلى حد معين لقرى منبج وجرابلس



الشكل (١٠-١)

قرية شرق الفرات - منطقة عين العرب



تابع الشكل (١٠-١) قرية ذات قباب صغيرة - جنوب منطقة عين العرب



منزل ذو طابع فطري - قرية رقااص - جنوب عين العرب

على الضفة الغربية للفرات . خاصة من حيث التسقيف، فالأسقف مستوية، مبنية من عوارض خشبية، وكذلك انفتاح المنازل على بعضها البعض . شكل رقم (١٠-١) قرية من منطقة عين العرب شرق الفرات ٥ كم.

ولكننا عندما نتجه شرقاً، وكلما ابتعدنا عن الفرات قلّت النماذج ذات الأسقف المستوية وظهرت القباب، حتى تصبح هي السائدة في المناطق الوسطى بين الفرات والبلخ . فمعظم المنازل الريفية في منطقة تل أبيض هي قباب طينية وتمتد لتصل إلى الخابور .

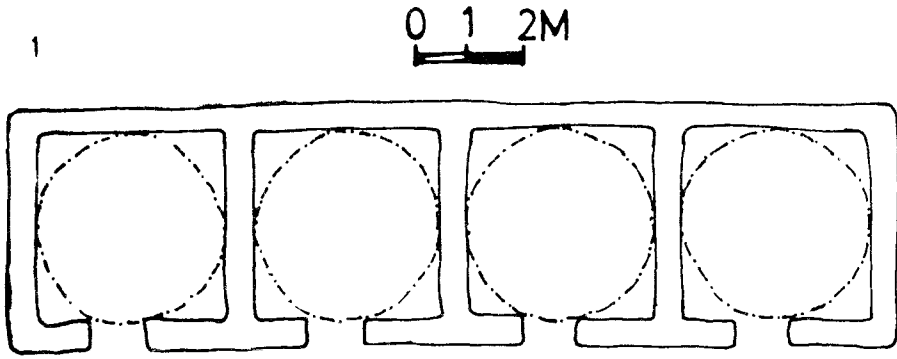
بالنسبة للقباب في قرى عين العرب هي صغيرة، أصغر بكثير من تلك التي صادفناها في قرى السفيرة والباب، مما يولد لدينا الاعتقاد بأن تقنية بنائها لم تكن متطورة، كما في قرى شرق وجنوب شرق حلب، وتبدو القبة في هذه القرى عبارة عن ضرورة للتسقيف فقط، فالجدران الشاقولية عالية نسبياً، وتبدو القباب صغيرة، ولا تتناسب مع الحجم الكلي للمنازل .

وفي كثير من القرى نصادف طابعاً فطرياً بدائياً لهذه المنازل ذات القباب، كما في الشكل (١٠-١) من قرية رقاص حيث القباب صغيرة، والحوش عبارة عن ستارة منخفضة من اللبن تحدد مساحة من الأرض أمام القباب، وتمنع دخول وخروج المواشي .

وإذا اتجهنا شرقاً أكثر، ومررنا بقرى تل أبيض ذات القباب الصغيرة والكثيرة نلاحظ عدة صفوف من القباب متوازية، وتشكل كتل معمارية كبيرة . حتى نصل ضفاف الخابور حيث تظهر قباب طينية أكبر في بلدة تل تمر .

قرية تل تمر - الحسكة:

هي في الواقع بلدة، وتعود قصة بنائها إلى الثلث الأول من هذا القرن . فإثر الأحداث والمشكلات التي حدثت في جنوب شرق تركيا وشمال العراق، وتم فيها اضطهاد الآشوريين ودون الخوض في خلفيات هذه المسألة وجوانبها، اتفقت كل

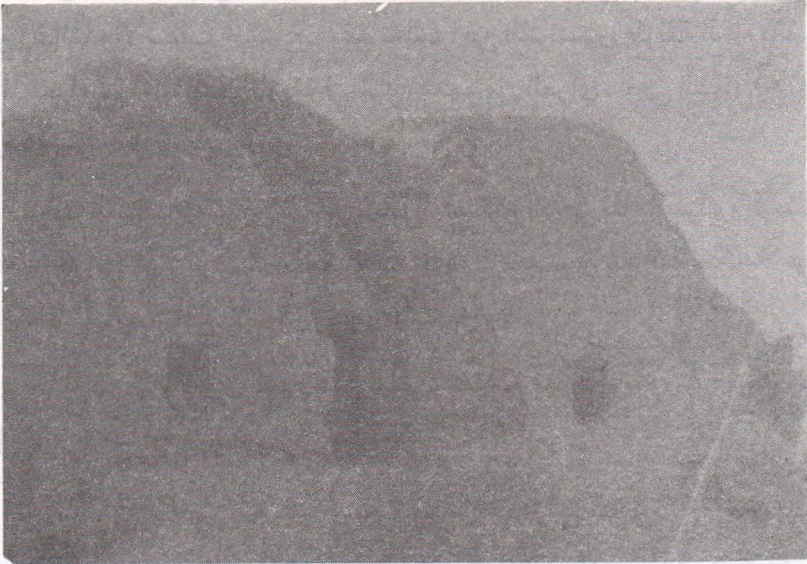


الشكل (١٠-٢)

نموذج للقباب في بلدة تل تمر على الخابور - محافظة الحسكة

١- المسقط الأفقي .

٢- منظر لهذه القباب المهجورة .



الشكل (١٠-٣)

١- قرية تل تمر أيام إنشائها (١٩٣٥م)

٢- قبة متهدمة من تل تمر.

من فرنسا وانكلترا على نقلهم إلى الجزيرة السورية وحددت ضفاف الخابور ذات الكثافة السكانية القليلة، وحيث الماء الوفير والأراضي الخصبة لسكانهم.

وما يهمننا من كل ذلك هو كيف انتقلت القباب إلى القرى الآشورية المستخدمة؟ وهذا ما حاولنا البحث فيه والإجابة عن السؤال الذي يثير اللبس، عن طريق الأهالي والمسنين منهم، ولذلك أخذنا معلومات من رجل آشوري مسن (٩٥) سنة يدعى «برخوتوما توما».

قال فيها إنهم جاؤوا إلى هنا على دفعتين (١٩٣٢ - ١٩٣٦) من زاخو ودهوك ورواندوز والسليمانية في شمال العراق، جاءوا من الأرياف والمدن على السواء. ولم يحملوا معهم إلا بعض أغراض المنزل وكذلك الدواب. ولم تكن هناك قرى على حد علمه عند مجيئهم، فكانت في المنطقة بعض بيوت الشعر.

وعن عمارتهم في مواطنهم الأصلية قال: إن البيوت كانت من الحجر والطين غالباً والأسقف خشبية. وقد تعلموا من الفرنسيين طريقة البناء بالقباب وفي المحصلة لم تأت هذه الطريقة في البناء معهم من العراق، وفي الشكل (١٠-٣) صورة لتل تمر حين تأسيسها.

بدأت القباب تندثر في تل تمر بشكل متسارع ودخل بناء البلوك والإسمنت إليها منذ حوالي عشرين سنة تقريباً، حتى أنك لم تعد ترى بناء قبة متكاملًا في تل تمر، وعدد القباب الباقية الآن لا يتجاوز العشرين قبة.

أما أشهر المعمارين الذين كانوا يبنون القباب فهم، نويا ورده - ينخونيسان من تل تمر ويوحنا أوديشو من تل نصري.

قرية تل نصري:

تقع شرق تل تمر ٢ كم باتجاه الحسكة على ضفاف الخابور، التقينا فيها بمختار القرية: بيتو ابن صورو (٧٠) سنة وهو متنور واستفدت من معلوماته الدقيقة، فقال إن تل نصري بنيت عام ١٩٣٤.

وقام الأهالي بعملية البناء ، إلا أن الفرنسيين استقدموا بنائين من حلب لبناء القباب ، فكان الأهالي يبنون القسم الشاقولي «الجدران» والمعمار يون الحلبيون يبنون القبة «البيضة» . وبذلك تم التأكد من أن نموذج القبة انتقل إلى الخابور من حلب . وكانت كل قرى الآشوريين قباباً إلى قبل ثلاثين عاماً فبدأ قسم من الأهالي ببناء بيوت أفضل وتحويل القباب ، إلى بيوت للماشية . وقد صادفنا بعض أنصاف القباب ، وهي كانت قباباً كاملة ، وبعد أن تقدم بها العمر ، قام السكان بقص قسمها العلوي ، وتم وضع عوارض خشبية لتغطية الجزء المقصوص «المهدوم» خوفاً من أن تنهار .

وعن تراجع بناء القباب في قرى الخابور بين أن السبب الأساسي هو أن وجودهم هنا كان بشكل مؤقت في البداية ، وكان ثمة تأهب دائم للرحيل . أما اليوم فإن نقص المياه وعدم توفر التبن وصعوبة بناء القبة وصيانتها وتنظيفها هي السبب في التحول إلى البناء الحديث .

وقد يكون لنزعة ورغبة الآشوريين القوية في التحديث ، في كافة مناحي الحياة أيضاً دور رئيسي في زوال القباب الطينية .

قرية دوكر:

تقع شرق القامشلي بحوالي (١٥) كم وهي قرية قديمة ورد أول ذكر لها منذ حوالي مئة وثلاثين سنة في رحلة الألوسي ، كما رأينا في الفصل السادس ، ويبدو أن الحياة فيها لم تنقطع منذ عدة قرون ، قابلنا فيها الرجل المسن أحمد مراد (٩٠) سنة ، فأبدى المعلومات التالية عن تاريخ القرية : كان في القرية أكراد ومسيحيون سريان . أول من بناها خلف آغا ، وكان يسكن قرية «أزناور» التي تقع حالياً داخل الحدود التركية شمالاً مسافة عشرة كيلومترات وكان يحكم هذا الآغا حتى سنجار ، لذلك كانت المنطقة تدعى «سنجق خلف آغا» . ومن ثم ابنه محمد عباس الذي بنى قصراً على التل الشرقي ، وكانت مبنية باللبن . وتتسع المضافة فيها لأكثر من مئتي رجل ، ومن بعده جاء أبنائوه على التوالي ، ولم يصدف أن جاوز عدد المنازل -العائلات المئة .

في البدء كان في القرية مخفر للأتراك، ومن ثم نقطة للفرنسيين في عهد الانتداب، ثم نقلت النقطة الفرنسية إلى ترب سبي (قبور البيض القحطانية) ومن بعد ذلك لم ينشأ أي مركز إداري في القرية، وكان الأهالي يتسوقون في نصيبين قبل مجيء الفرنسيين، بل أضاف مراد أنه ذهب كثيراً إلى الطاحونة في نصيبين في صباه.

وعن هجرة السريان من القرية قال: منذ حوالي ثمانين سنة وإثر مجازر المسيحيين لم يقتل الأعماق قرويه وإنما طلب منهم الرحيل ولم يسلمهم للحكومة التركية، فغادروا لآخر مرة، إلى جبل الطور شمالاً وهناك تحصنوا وقاوموا الحكومة ولم يستسلموا حتى صدور العفو.



الشكل (١٠-٤)

١- قرية دوكر - شرق مدينة القامشلي



٢- قرية خوشيني - شمال غرب رميلان. (١٠٢) قرية



٣- قرية شيتكا - شمال غرب رميلان

تابع الشكل (١٠-٤)

يبلغ عدد بيوت القرية حالياً حوالي (٦٠) منزلاً مبنية من اللبن والأسقف من الخشب والقش، والمنازل غير معتنى بها بسبب هجرة الفلاحين وعدم استقرارهم.

والنموذج الأساسي هو غرفتان وصالون مع ملحقات من غرف الدواب والعلف التي تحيط جميعاً بصحن مساحته صغيرة. والمنازل متقاربة والنسيج القروي متراس، إلا في الأعوام الأخيرة حيث بنى بعض الميسورين منازل واسعة من اللبن والبلوك والإسمنت جنوب القرية على بعد مئة متر من الطريق العام قامشلي-المالكية.

ويبدو أنه عندما انتقل المركز الإداري «الناحية» إلى قرية ترب سبي تراجعت مكانة دوكر وتحولت إلى مصدر لهجرة العائلات منها إلى ترب سبي شرقاً وكذلك غرباً إلى مدينة القامشلي.

قرية عين ديوار - على نهر دجلة:

تقع القرية في أقصى شمال شرق القطر، وهي مؤلفة من شطرين، الجنوبي قديم والشمالي استحدث عام ١٩٣١ م. تقع القرية على الهضبة الغربية المشرفة على نهر دجلة. كانت تابعة لجزيرة ابن عمر الشهيرة، التي ظلت زمناً طويلاً مركز إمارة «بوطان» في الدولة العربية الإسلامية، وبعد تثبيت الحدود بين تركيا وحكومة الانتداب الفرنسية انقطعت علاقتها مع جزيرة ابن عمر، وتحولت لمدة قصيرة إلى مركز تجاري، وانتعشت الأسواق التجارية فيها، حتى تحول المركز الإداري والاقتصادي إلى ديريك «المالكية حالياً»، فعادت إلى وضعها السابق كقرية، ملكية القرية كانت في الأصل لعائلة «سيديا» في جزيرة ابن عمر، وكانت الأراضي تستثمر من قبل الفلاحين بالمحاصصة، حيث كان يأخذ المالك ١٠٪ من صافي الإنتاج الزراعي.

وعن عمارة القرية حدثنا الحاج إبراهيم عبدو (٨٠) سنة، بأن عدم اهتمام الفلاح بالمنزل عائد إلى فقره وعدم استقراره، وسكان القرية أكراد من قبيلة «هه سنا» التي تسمى القسم الشمالي من منطقة المالكية «شمال جبل كراتشوك» باسمهم، أما الآن فهي خليط من عدة قبائل كردية.



الشكل (١٠-٥)

- ١- قرية رميلان الباشا - جنوب حقل رميلان والمتوقع أن تكون قد بنيت على أنقاض بلدة «برقيعد» المندثرة .
٢- قرية بيرك - شمال مدينة المالكية .

٢- قرية بيرك - شمال مدينة المالكية .

كان نموذج منزل الفلاح في النصف الأول من هذا القرن في قرى منطقة المالكية مؤلفاً من غرفة واحدة كبيرة، طولها (١٥ - ٢٠) م وعرضها (٤ - ٥) م. سقفها من العوارض الخشبية، تتركز على أعمدة خشبية في الوسط، وفوق العوارض توضع العيدان والقش بكثافة.

وكان المنزل مقسماً إلى قسمين، قسم للحيوانات، وآخر لسكان المنزل، يفصل بينهما جدار ارتفاعه حوالي متر، خارج هذه الكتلة الأساسية، كانت ثمة ملحقات غرفة صغيرة للحطب أو للعلف وإهراءات «لود»، الفلاح كان يبنى بنفسه بمساعدة أقربائه هذا النموذج من البناء الذي كان من اللبن أو الحجر البازلتي المتوفر محلياً مع مونة طينية.

وفي الأربعينات وبعد أن انتعش الوضع المعاشي والاقتصادي لفئة من القرويين بدأ التقسيم في المنازل من جديد.

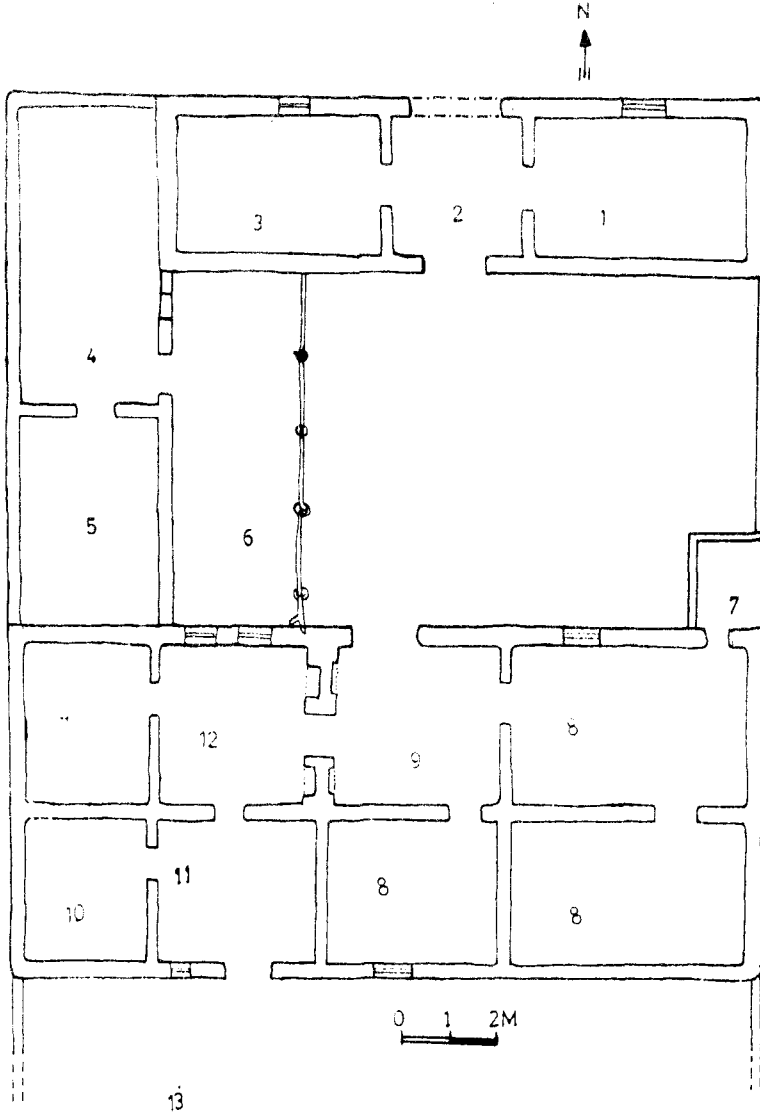
والنموذج الذي رسمنا مسقطه الأفقي عائد لمختار القرية «فتح حاج عبد الكريم» بني عام ١٩٣١ وكان المعمار من جزيرة ابن عمر الشكل (١٠-٦)، أما القسم الشمالي المؤلف من غرفتين وصالون فقد بني عام ١٩٤٧.

والطابع العام لمنازل القرية هو طابع القرى الجبلية، أي النسيج القروي المتراص، والنوافذ كبيرة نسبياً، والمنزل موجه نحو الجنوب «القبلة»، الأسقف مستوية، فوق العوارض إما قش، أو كان سابقاً طبقة من الطين مع بعض الملح تدخل بواسطة مدحلة حجرية صغيرة تدعى «بان كه ر».

الطابع المميز لعمارة الجزيرة:

ثمة خصائص لعمارة الجزيرة، وخاصة القسم الشمالي منها، حيث كانت القرى موجودة منذ حوالي قرنين، وانتشرت هذه المواصفات جنوباً مع مرور الأيام، ومع بدء استقرار القبائل الرحل العربية والكردية.

لقد كانت القرى المبنية في القسم الشمالي طينية كما علمنا من وصف الرحالة، ومن مصادر الرجال المسنين، فكانت «عامودة» قرية إلى الغرب من مدينة



الشكل (١٠-٦)

- منزل السيد فتاح حاج عبد الكريم - قرية عين ديوار - على نهر دجلة .
- ١- ضيوف ٢- صالون ومدخل ٣- معيشة ٤- خزن ٥- علف ٦- بلكون .
- ٧- حمام ٨- نوم ٩- صالون ١٠- مونة ١١- مطبخ ١٢- ملابس وفرش .
- ١٣- حوش خلفي .

A black and white photograph of a rural landscape. In the foreground, there is a field of low-lying vegetation. In the middle ground, a small, simple building with a thatched roof is visible, surrounded by trees and shrubs. The background shows a hazy, distant horizon.

A black and white photograph of a landscape, likely a coastal or rural area. In the foreground, there is a body of water, possibly a bay or a large pond, with some small structures or boats visible. A line of trees or buildings stretches across the middle ground. The background shows a hazy horizon. The image is framed by a white border.



الشكل (١٠-٨)

١- جانب من منزل فتاح حاج عبد الكريم قرية عين ديوار - على دجلة.

٢- جامع ومسجد عين ديوار. وقد فصل أبعاده (١٥٨١) سم.



الشكل (١٠-٩)

منازل من قرية عين ديوار ١٩٣٠م - عن مجلة المعهد الفرنسي في دمشق .

نصيبين . وشرقها كانت بعض القرى القديمة ، منها دوكر وجل أغا على طريق الموصل ، وشمال هذا الخط كانت تل شعير ، وديرون ، والمصطفاوية شمال رميلان وكذلك «دير يك» مدينة المالكية كانت نفسها قرية وبيوتها بدائية في الثلث الأول من هذا القرن . انظر الشكل (١٠-١٠) تظهر بساطة المنازل في ذلك الحين .

لقد كانت هذه القرى متراسة بشكل عام أزقتها ضيقة وصحونها «الأحواش» متراسة . وكل ذلك لضيق الأرض والخوف من سطو اللصوص ، وكذلك للسممة المميزة للعمارة الكردية الجبلية التي تلاءمت مع طبيعة الأرض الجبلية الضيقة ، لذلك حتى عندما تم البناء في البدء في السهول الجنوبية ظلت هذه العادة المتأصلة مهيمنة على بناء المنازل ، حتى تم التخلص منها بشكل نهائي منذ حوالي ربع قرن .

وعماراة الجزيرة تتسم بأسقفها الخشبية والقشبية السميكة ، فكلما توافر «القش» الناتج من زراعة القمح القاسي ، كان الاعتماد على جذوع الشجر وأغصانها ومن ثم القصب لتغطية السقف يزداد ، تغطي هذه الأغصان بطبقة من اللبن أو التربة ثم تدحل .

ولكن في النصف الثاني من هذا القرن حين انتشرت بشكل واسع زراعة القمح القاسي ، وكذلك عمليات الحصاد الآلي توفرت كميات كبيرة من القش ، استخدم القش لتغطية الأسطح سماكة تتراوح بين (٥٠-١٥٠) سم ، وبذلك تحققت عازلية جيدة للأسطح ، وتوافر للمعمار إمكانية إعطاء ميول كبيرة للأسطح تسهل تصريف المطر ، وبطبيعة الحال يغطي القش بطبقة من الطين سماكتها تتراوح (٢-٤) سم ، وتطين بروبة طينية كل عام .

أما النوافذ فكانت بالأساس أكبر نسبياً من نوافذ قرى غرب البليخ والفرات ، حيث أن المناخ الجبلي هو الذي ساهم في تحديد أبعادها ، وبالتالي كانت لدى السكان رغبة لفتح نوافذ كبيرة لدورهم وخاصة الجنوبية منها ، للاستفادة من دفء الشمس ، ومنذ حوالي عشرين سنة درجت العادة على وضع نوافذ كبيرة للغرف الجديدة وتسمى بالأمريكية «أمريكاني» وقد تصل أبعادها (١٥٠×١٥٠) سم .

وهذه التقاليد انتقلت جنوباً إثر استقرار القبائل العربية الرحل وخاصة الشمر والجبور واستعانوا بعمال ومعماريين أكراد من القرى الشمالية .

ومع كل الاختلافات الجزئية بين قرى محافظة الحسكة تظل سماتها العامة كمايلي :

١ - البناء باللبن الطيني والأسقف المستوية على الرغم من وجود سابق للبناء بالحجر البازلتي والمونة الطينية في القسم الشمالي من منطقة المالكية وجبلي كراتشوك وكوندك . حيث يتوافر الحجر البازلتي .

٢ - للمنزل الريفي صحن (حوش) أو أكثر في جال توافر الإمكانية والحاجة وخاصة عند امتلاك صاحب المنزل للمواشي .

٣ - النوافذ كبيرة نسبياً .

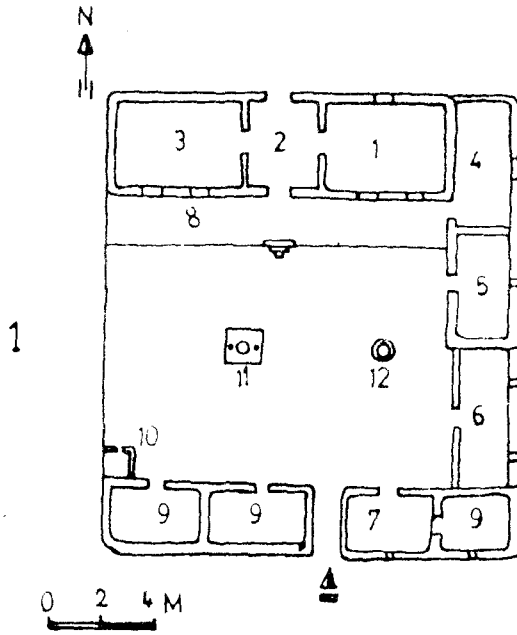
٤ - غرف السكن الرئيسية موجهة نحو القبلة أي تكون باتجاه شرق -غرب .

٥ - الخلية الأساسية للمنزل الريفي في الجزيرة مؤلفة من غرفتين وصالون وفي حالات الضرورة تضاف غرف أخرى إلى جوارها .

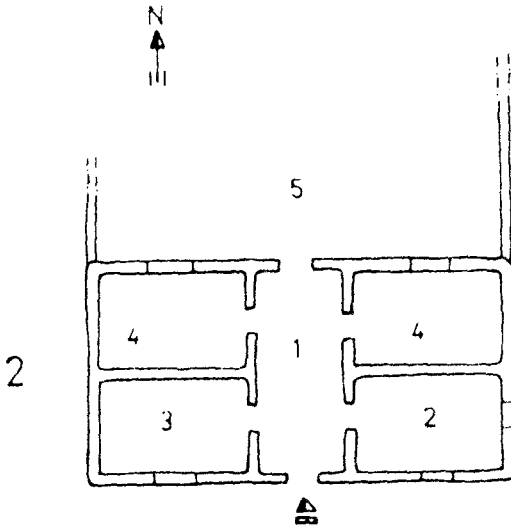
٦ - بعد تحسن الوضع المعاشي مؤخراً ، ظهرت مساكن بأربع غرف وصالون لدى بعض القرويين الميسورين .

٧ - عملية التطين والتكليس أقل خبرة وتنميّة مما هي عليه في قرى الباب -منبج -جرايس -وقد يكون لنوعية الغضار والتربة المتوافرة في الجزيرة دور في ذلك .

٨ - ثمة غرف كبيرة «مضافة -أوضة» «كوچك» لدى المخاتير والأغوات وتكون عادة خارج المنزل لها غرفة ملحقة أو قسم داخلي ملحق «لأواني القهوة» قد تصل أبعادها وسطياً إلى (٦×٢)م وبارتفاع يتجاوز أربعة أمتار ، وهي في الواقع كثيرة ومهندمة وتحتاج لدراسات خاصة بها ، فيها بعض الزخارف / مداميك نافرة ومتداخلة / وقد قام ببنائها مشاهير البنائين في الجزيرة .



- ١- غرفة استقبال/ رجال
- ٢- صالون
- ٣- غرفة معيشة/ نساء
- ٤- مطبخ
- ٥- مونة
- ٦- علف/ حبوب
- ٧- مواشي
- ٨- دكة
- ٩- خدمات وتخزين
- ١٠- قن دجاج
- ١١- بئر
- ١٢- شجرة توت



- ١- صالون
- ٢- غرفة رجال
- ٣- غرفة استقبال
- ٤- معيشة/ نوم
- ٥- حوش ملحق يتضمن مجموعة من الغرف حسب الاحتياجات ونمط حياة صاحب الدار

الشكل (١٠-١٠)

- ١- مسكن يعتمد على غرفتين وصالون كوحدة أساسية
 - ٢- مسكن يعتمد على أربع غرف وصالون كوحدة أساسية
- النموذج العام لمساكن الجزيرة

الفصل الحادي عشر

الهجرة من الريف ودوره في تردي عمارة الطين

يبدو أن العلاقة جدلية بين الهجرة والاستقرار من جهة وتطور وتقدم العمارة الريفية من جهة أخرى. فقد أشارت أغلب الدلائل إلى أنه كلما كانت مدة استقرار القرويين أطول، كان طابع حياتهم أكثر رقياً وعمارتهم أفضل، ومن البديهي أن عدم استقرار الفلاح يدفعه لاتخاذ أبنية شبه مؤقتة وبسيطة حتى لو توافرت لديه الإمكانية لاتخاذ منازل أفضل. إلى جانب ذلك تتراكم الخبرات طرداً مع عمر القرية في مجال تصميم الأبنية الريفية وصيانتها وكيفية التعامل مع المناخ. ومؤثراته على الأبنية، وآلية تطويع المواد المحلية لاستخدامها في التشييد وإيجاد الحلول العملية لمعضلات بيئية وإنشائية.

والهجرة من الريف ظاهرة قديمة جداً قدم التمايز بين التجمعات السكنية وخاصة بعد نشوء المدن ذات المواصفات الجيدة. وكانت الهجرة تتم في العهود السابقة نتيجة حرمان الفلاح من الأمن والطمأنينة والخوف من الضرائب. يقول الباحث المنوفي «إن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للفلاحين لم تشهد تغيراً ملموساً عبر مراحل التاريخ الطويل، فقد ظل الفلاح محروماً من حق تملك الأرض الزراعية وقابعاً في سفح الهرم الاجتماعي طوال مدة امتدت من العصر الفرعوني وحتى صدور لائحة الأطنان السعيدية- عام ١٨٥٨م، وعلى الرغم من

أن هذه اللائحة خولته حق التملك إلا أنه بقي على وضعه الاجتماعي السفلي مالكاً صغيراً أو مستأجراً أو عاملاً زراعياً... خضع دائماً للتحكم والاستغلال المطلق من جانب ممثلي السلطة الحكومية ابتداء من الحاكم وانتهاء بالعمدة»^(١) ويضيف الباحث: «بل لقد اتسع نطاق الهرب إبان العهد الروماني إلى حد تناقص سكان بعض القرى بشكل خطير وخلت قرى أخرى من أهلها تماماً ونظراً لاتجاه الهارين إلى اللواذ بالمعابد التي كانت تتمتع آنذاك بحق إيواء اللاجئين عمدت الإدارة الرومانية إلى حرمانها من هذا الحق بحيث لم يعد أمام الفلاح إلا أن يلوذ بالصحراء أو أن يفر إلى المستنقعات والأحراش....

ومع قيام عدد من الولاة الأمويين والعباسيين بزيادة الضرائب والتشدد في جبايتها، راح كثير من الفلاحين الأقباط يهربون من منطقة إلى أخرى فراراً من دفع الضرائب وما أكثر ما غادر الفلاحون قراهم أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك هرباً من الأعباء المالية الجسيمة، ومن بطش جهاز السلطة، وقد زاد من حدة هذه الظاهرة تلك المجاعات التي كانت تحدث بشكل مؤسف في ذلك العهد»^(٢).

وهذه الأوضاع التاريخية تنطبق في خطوطها العامة على الريف السوري نظراً لتشابه الدولة والحضارة السائدة آنذ في كل من مصر وسوريا.

وعن أسباب الهجرة المعاصرة يقول الباحث الجرجور: «إنه ثمة هجرة شاقولية من القرى والهدف منها الدراسة وتحصيل العلم وبالتالي الرقي الاجتماعي والثقافي والابتعاد عن القرية نظراً لكسبهم مهنة جديدة في حين توجد هجرة أفقية من قرية إلى أخرى أو المدينة مع الاحتفاظ بالعمل والمهنة ذاتها. ويعرف الباحث الهجرة من الريف إلى المدينة بأن يقوم البشر بالانتقال من وضع اجتماعي محدد بمكان تتوافر فيه شروط معاشية قريبة من الطبيعة تعتمد على معطياتها وموجوداتها

(١) الثقافة السياسية للفلاحين المصريين - تحليل نظري ودراسة ميدانية في قرية مصرية، د. كمال المنوفي، بيروت، ١٩٨٠، ص ٤٢.

(٢) المرجع السابق، صفحة ١٠٢.

من أرض ومياه وزرع ويعتاش أهلها من نتاج ما ينجم عن التفاعل بينهم وبينها من زرع أو ضرع ثم ترك هذه البيئة والانطلاق نحو بيئة جديدة عملت فيها يد الحضارة حتى أصبح كل ما فيها من صنع الإنسان»^(١).

فمن البديهي أن الهجرة من الريف لها انعكاسات سلبية على الاقتصاد الوطني وتسبب أزمات سكنية خانقة في المدن تنتج عنها حارات «أحزمة البؤس» وتراجع نتيجة الطلب الكبير على السكن السوية الصحية والفنية والجمالية لعمارة المدن. كما تندثر العمارة الريفية الجميلة، لذلك تدخل قضية وقف الهجرة من الريف وتثبيت الفلاح في أرضه وتأمين فرص معاشية أفضل في صلب موضوعنا، والذي نعني به حماية الطابع الأثري - المحلي للعمارة الريفية، وفتح الآفاق بصورة طبيعية أمام تطورها وتحسينها. إن المنزل الصحي الجيد والمريح في القرية إلى جانب تأمين العمل أو الملكية الزراعية المضمونة، يخلق لدى القروي حالة نفسية تتعلق من خلالها بقريته ومنزله ويسعى لتطوير وتحسين عمارته.

لذلك من الضروري وفي سياق الاهتمام بدراسة وتطوير العمارة الريفية إيلاء قضية الهجرة أهمية قصوى. وكذلك كل ما يتعلق بها من تحسين الخدمات، جملة من التوصيات العديدة في هذا المجال: فعلى سبيل المثال تلعب الطرق العامة المعبدة دوراً في خلق حالة استقرار قروي، بل تهئى المناخ لتشكيل قرى جديدة. كما رأينا على طريق عام حلب - منبج بالنسبة لقرية «السعيدية» المتميزة معمارياً. وعلى طريق دير الزور يشير الباحث عياش إلى نفس الموضوع: «وكانت مواقع القرى على ضفة النهر تبعد عدة كليومترات عن الطريق العام وانتقال القرى من مكانها القديم إلى مكانها الجديد ظاهرة جديدة ذات أهمية قصوى في حياة وادي الفرات، ولم تخسر كثيراً في ترك بيوتها فمعظم السكان يسكنون في أكواخ من الطين أو في بيوت

(١) توفيق الجرجور - الهجرة من الريف إلى المدن في القطر العربي السوري، دمشق، ١٩٨٠، صفحة ٦٠.

الشعر، وفي الصيف في عرازيل تسمى سيابيط واحدها سيباط مع بقاء بعض البيوت قريبة من ضفة النهر، وبهذا الانتقال أو الهجرة الاختيارية أخذت معالم طريق حلب - دير الزور تتبدل، وكان الطريق مقفراً من العمران، نرى عليه ظعون العشائر مشرقة أو مغربة في حالة شقية مؤلمة كما لو كانت قبل آلاف السنين. ويزداد عدد البيوت التي تبنى في القرى الحديثة على جوانب الطرق العامة، معظمها من الحجر وسقفها من الإسمنت المسلح وكانت سقوف البيوت من العيدان والطين. ولغرفها نوافذ حديثة لم تكن لها نوافذ في السابق»^(١).

وهكذا نجد أن من جملة العوامل التي تساهم في اندثار وتراجع العمارة التراثية في الريف عاملين: الأول الهجرة والثاني التقليد غير الواعي لمساكن المدن وعمارتها النمطية الحديثة.

(١) عبد القادر عياش، ذكريات عن وادي الفرات، المقدمة، دير الزور، ١٩٦٨.

نتائج وانطباعات عامة:

إن دراسة الملامح الهندسية للأبنية الريفية تاريخياً، وبالإستداد الجغرافي الذي تمت معالجته في البحث جعلت من الدراسة واسعة جداً، لدرجة باتت الإحاطة بكل جوانبها ضمن الإمكانيات المتوافرة غير ممكنة، كما أن نقص الدراسات السابقة حول هذا الموضوع، ضاعف من صعوبة العمل، فضلاً عن أن العمل الميداني اللازم لأخذ المقاييس والمعلومات زاد من تشعب الجهود اللازمة لإنجاز العمل بعمق وتركيز أكبر.

فلقد كان لبحثنا هذا طابع شمولي، يبدأ بدراسة الجذور التاريخية للعمارة في شمال سوريا، وبالتالي البحث في بدايات سكن واستقرار الإنسان في المنطقة، وجوارها وفي خطوطها العمرانية والاقتصادية العامة.

لذلك تطلب بالضرورة معرفة القرى الأولى في المنطقة من الناحية التاريخية، والدخول في شبه مناظرة مع جملة من الباحثين لاكتشاف الجذور الحقيقية للقرية، ليس من نواحيها الهندسية فحسب وإنما من النواحي الاجتماعية والاقتصادية أيضاً وبعد ذلك كان لابد من متابعة التطور التاريخي للقرية بالتسلسل، ودون الحصول على مادة كافية ودقيقة، مما أعطى للقسم الأول شبه استقلالية عن الأقسام الأخرى. كما كانت هنالك قطيعة تاريخية بين هذه القرى.

النتيجة الأساسية التي يمكن الإشارة إليها هي القناعة التي تولدت لدى الباحث بأن القرية هي غمط للمعيشة في الجوهر، وليست مرحلة حضارية لابل لمجتمع مدينة ما أن يمر بها، وأن القرى قصيرة العمر بشكل عام وعمارتها كانت بدائية، وما زالت كذلك، لأن الفلاح - القروي يقوم ببناء المنازل على الغالب بنفسه، لذلك لا تحتفظ مساكنها، إلا بخبرة أولية - بدائية قد تكون عائدة في سوتها الفنية إلى مئات بل آلاف السنين، أي إلى بدايات الحضارة البشرية.

إن البحث في العمارة الريفية - وبشكل خاص الطينية - ما زال في حدود (الملامح الهندسية)، وتظل هذه الملامح التراثية الهندسية ضمن خطوط عامة تراثية في الأبنية الريفية، تنتقل من جيل إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى بآليات مختلفة. ويمكن تلخيص هذه الملامح الهندسية التراثية في الأبنية الريفية بعدة نقاط رئيسية هي:

١- المسقط الأفقي:

لم يتغير المسقط الأفقي للأبنية الريفية في شمال سوريا، وحوض الفرات منذ آلاف السنين، تغيراً جوهرياً، بل ظلت المساقط والأبعاد والترتيب متشابهة منذ العصر الحجري الحديث، حتى يومنا هذا. والاختلافات التي نصادفها هنا وهناك تكون ناتجة عن الوضع المعاشي وغط الحياة في القرية ذاتها. فالقرية الزراعية البحتة التي تعتمد بشكل أساسي على الزراعة المروية كما في حوض الفرات، تختلف غرفها عدداً ومساحة عن القرية التي تعتمد على الزراعة البعلية وتربية المواشي بشكل رئيسي، فكمية المحاصيل وعدد رؤوس الأغنام عند العائلة إلى جانب عدد أفرادها تحدد مساحة المنزل، وكذلك ترتيب هذه المنازل وعلاقاتها الواحدة بالأخرى.

فمنزل المختار أو الأغا يخوي بالضرورة غرفة كبيرة خارج المنزل تكون عبارة عن مضافة ومكان لتجمع وسمر أهالي القرية. والرجل الذي يتزوج ثلاث نساء مثلاً لا بد أن يختلف مسكنه عن الذي يتزوج واحدة فقط.

وفي هذا السياق نؤكد على أن صحن الدار (الحوش) في القرية، لا يمتلك تلك الأهمية التي يكون عليها الصحن في المدن الإسلامية، فوظيفته في القرية ليست حماية النساء من أنظار الغرباء وإنما منع دخول الدواب والحماية من السطو. لذلك نجد غالباً حوشاً آخر خاصاً بالمواشي، والمنازل مفتوحة على الخلاء. وكلما كانت العلاقات حميمة وعلاقات القربى وثيقة داخل القرية كان وجود الصحن قليل الأهمية.

جدير بالذكر أن للعمر الحضاري للقرية دوراً في وجود الصحن، فالقرى القديمة في منشئها واستمراريتها تتوافر فيها الأحواش المحصنة، أكثر مما هي لدى القرى الحديثة المنشأ التي كان سكانها إلى مدة قريبة من البدو الرحل.

وقد يكون لجغرافية الأرض دور في وجود الصحن، فالقرى الجبلية أو التي تبنى على أرض صغيرة تكثر فيها الأحواش -لكي يحدد كل قروي الأرض التي تخصه تماماً، على العكس من قرى البادية.

٢- مواد البناء:

لم تتغير مواد البناء في القرى موضوع البحث أيضاً منذ فجر التاريخ. وهي اللبن المصنوع من الطين والتبن المجففين تحت أشعة الشمس بصورة رئيسية. مع استخدام مونة طينية، والحوار والكلس في الطلاء الداخلي وأحياناً الخارجي. ونوعية التربة المتوافرة تساهم في إضفاء جمالية على المنازل، وكذلك خبرة السكان. فعلى سبيل المثال: تتمتع قرى مناطق الباب -منبج- السفيرة بطابعها الجميل، ويمتلك الفلاح القروي في هذه المناطق تقنية متطورة لتليس وتكليس منزله، أفضل بكثير من أهالي الجزيرة وعين العرب.

٣- التسقيف:

ثمة عدة نماذج للتسقيف هي السائدة في الريف، وهي المتبعة منذ قرون عديدة، الأول: وهو نموذج القباب الذي تم تفصيل تقنيته سابقاً، وتوجد هذه الطريقة عادة في المناطق التي توجد فيها التربة الطينية بكثرة وتقل الأخشاب، أي في المناطق شبه الجافة، والتي تقل نسبة أمطارها عن (٤٠٠) ملم سنوياً. حتى أطراف البادية السورية.

والثاني: هو التسقيف المستوي بالعوارض الخشبية. ونجد ذلك في المناطق التي تتوافر فيها الأخشاب (جذوع وأغصان الشجر) بكثرة مثل ضفاف الفرات والبلخ والمناطق الجبلية أو المتأثرة بها. وبالنسبة للتغطية فيما أن توضع التربة فوق

هذه العوارض ويعطى للسقف ميل كاف لتصريف مياه المطر كما في منبج وجرابلس، أو توضع فوقه كميات كبيرة من القش لتأمين العزل والإنحاء اللازم لتصريف مياه المطر كما في الجزيرة، ومؤخراً يستخدم أحياناً طبقة من المونة الإسمنتية بدلاً عن الطينية لإكساء السطح خاصة للأسقف المستوية كما في قرى جرابلس ومنبج.

٤- النوافذ:

قال أحد مؤرخي العمارة أن تاريخ العمارة هو تاريخ تبدل أشكال فتحات المنازل، لذلك كان للنوافذ والأبواب دور كبير في تحديد طراز العمارة الريفية أيضاً. فالمساكن غرب الفرات هي بشكل عام دون نوافذ، أو لها نوافذ صغيرة ولقد استعرضنا ذلك في كل قرية على حدة. ويمكننا أن نضيف أن صغر النوافذ في أواسط شمال سوريا وغرب الفرات يعود لأسباب مناخية، حيث شدة الرياح الغربية على مدى الفصول الأربعة. وما ينتج عن ذلك من إثارة للغبار، وإزعاج السكان داخل المنزل بينما اتساع النوافذ في الجزيرة ناتج عن عدم وجود رياح غربية، إلا في بعض أيام السنة. ولمزاج السكان وأصولهم دور في ذلك أيضاً. فيبدو أن السكان العرب البدو إلى مرحلة قريبة لا يجذبون المنازل المضيئة، ويرتاحون إلى الظل والعتمة. أما السكان الأكراد فهم بطبيعتهم الجبلي وتحت تأثير عوامل المناخ الجبلي يحبون النور والشمس فيفضلون النوافذ الكبيرة. وهذه عوامل تراثية وتساعدنا حاجات وضرورات معاشية. إن فقر بعض الفلاحين لا يسمح لهم، بتركيب منجور جيد للنوافذ والأبواب في دورهم. وكذلك عدم استقرارهم لا يشجع على ذلك، إلى جانب الخوف من السطو على المنازل عبر هذه الفتحات في مرحلة سابقة من تاريخ هذه القرى.

٥- الزخارف والزينة:

بشكل عام لا توجد زخارف في العمارة الطينية وهذا عائد بالأساس لطبيعة مادة الطين الطرية التي لا تقاوم مؤثرات المناخ. وقد يصدف أن ترسم صور بالألوان

على نجفات الأبواب والنوافذ. وتوجد زخارف من الملصقات الحصية على الجدران في الزوايا والقباب الداخلية وحافات النوافذ كما في مساكن قرى الباب. أما في منبج والجزيرة فيستفاد من بروزات المداميك أفقياً وشاقولياً لكسر رتابة الواجهات وإعطائها حركة وجمالاً.

٦- الاتجاهات:

المنازل الريفية في شمال سوريا موجهة جميعاً نحو الجنوب. وهذا عائد لتاريخ العمران في المنطقة، إذ اتبعت هذه الطريقة منذ فجر التاريخ، كما تم دعم وتثبيت هذا التوجيه نتيجة لدخول القرويين الإسلام. حيث توجه المنازل نحو القبلة -الجنوب، ولا يوجد تنظيم في الشوارع والساحات والبناء يتم بشكل عفوي، يخضع لطبوغرافية الأرض وجملة من العوامل الاقتصادية -الاجتماعية التي سبق ذكرها.

توصيات:

١- زيادة الأبحاث في مجال العمارة، والعمران الريفي على أساس التخلص من التداخل بين ما هو مكتبي وميداني قدر الإمكان، إلا ما هو ضروري للبحث.

٢- التخصص الدقيق في موضوعات الأبحاث، كأن يكون موضوع البحث منطقة واحدة «بلدة» أو عدداً من القرى، تدرس أما من جانبها التاريخي حتى اليوم، أو من مرحلة قريبة، ثم تدرس القرى ميدانياً من النواحي الهندسية (معماريًا -إنشائياً) مع تحليل مواد البناء. وإضافة الجوانب المعاشية الاجتماعية والاقتصادية إليها. وأخذ نموذج واحد فقط، كأن يكون النموذج قباباً طينيةً، أو منازل طينية أو المباني الحجرية في بعض المناطق.

٣- إجراء أبحاث علمية لتطوير مادة البناء في الريف وخاصة الطين. فاللبن المصنوع والمعتمد حالياً في القرى، الذي تتكون خلطته من (التراب + تبن) ثم تجبل

بالماء، وتعرض لأشعة الشمس، يُصنع بنفس الطريقة المتبعة منذ آلاف السنين، ويفتقر إلى الديمومة والثبات. فمن الضروري توجيه الباحثين لتعديل التركيب الحبيبي لجبلة الطين، وإدخال تعديلات على النسب الداخلة فيها، وإدخال مواد جديدة إلى الخلطة مثل الرمل، الكلس، والإسمنت للوصول إلى نوعية من اللبن، تتمتع بالمقاومة على الضغط والشد وتكون أخف وزناً، وتحمل عوامل الطبيعة وخاصة المطر. وهذا ما يجعل الباحث، يفكر بأساليب الإكساء الجديدة أيضاً، فلقد لجأ الكثير من القرويين إلى إكساء الطين بالإسمنت لهذا الغرض. بل ما يشجعهم على البناء بالبلوك والإسمنت هو التخلص من مساوئ الطين التي تلخص في عدم مقاومتها للمطر وتفتتها المستمر تحت تأثير الشمس.

٤- تدريس مقرر عن العمارة الريفية في الكليات المعنية. وربط هذه المادة بالواقع الراهن للقرى. وتشجيع الابتكارات والإبداعات، فمادة الطين مادة اقتصادية ومتوافرة، وهي مادة مطاوعة جداً، يمكن صنع قالب اللبن الخشبي حسب الطلب، وكذلك تتجاوب من الناحيتين المعمارية والإنشائية مع أفكار ومقترحات المهندسين.

٥- في هذا السياق لا بُد من تشجيع الأبحاث في مجال الاستفادة من الطرائق التقليدية للإنشاء، بدءاً من أبسط الأقواس والعقود والقبة وانتهاء باستلهاام الطابع المحلي للعمارة مع الأخذ بعين الاعتبار التقدم العلمي والتقني، وتطور علوم مقاومة المواد وحساب الإنشاءات. وربطهما مع الأساليب التقليدية لخدمة أغراض التطوير والابتكار ولتحقيق مكاسب اقتصادية وجمالية وتراثية.

٦- إنشاء قرى سياحية من القرى القديمة الواقعة على الطرق العامة بين المدن، أو القرية منها وخاصة تلك الواقعة بين حلب ومنبج، وعلى ضفاف الفرات، كذلك التي تقع بين حلب وحماه ودفع تعويضات للأهالي لحماية هذه الأبنية والتشجيع على بقائها.

ومن الضروري أن تشمل قوانين حماية الآثار أبنية بعض البلدان والقرى القديمة ومن ضمنها الأبنية الطينية المتميزة .

٧- تخصيص برامج إعلامية وخاصة في التلفزيون والراديو لرفع سوية الوعي المعماري لدى القرويين وتبيان فوائد الإبقاء على أبنية الريف بصفتها التقليدية . ومساوئ دخول البلوك والإسمنت دون دراسة منهجية إلى القرى . وخاصة أن القروي مازال يعاني من عقدة النقص اتجاه عمارة المدينة الإسمنتية .

٨- إدخال القرى ضمن مجال التنظيم العمراني ، وتكليف دوائر البلديات القريبة للإشراف على تنفيذ خطط البناء الريفي . أو استحداث مراكز قروية للإرشاد الهندسي ، وتنظيم عمليات البناء الريفي ، ضمن قوانين خاصة بالقرى .

٩- الإقرار والتنبيه إلى أن مادة الطين هي مادة بناء أساسية وليست ثانوية تجاوزها التطور الحاصل في مواد البناء وأساليب التشييد ، وخاصة في الريف السوري . وعلى الأبحاث العلمية الجادة يتوقف الكشف عن إمكانيات هذه المادة الكبيرة من النواحي البيئية والاقتصادية .

* * *

في حلب ١٩٩١م

المراجع العربية

- ١- آلوسي، محمد أفندي . - رحلة الآلوسي للأستانة، بغداد، ١٢٩٣هـ .
- ٢- الأبشيهي، شهاب الدين أحمد . - المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة، ١٩٥٣م .
- ٣- ابن الأخوة، محمد بن أحمد القرشي . - معالم القرية في أحكام الحسبة، تصحيح: روبن - كيمبرج، ١٩٣٧م .
- ٤- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة الخيرية، ١٣٢٢هـ .
- ٥- ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق: حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٥م .
- ٦- ابن الجيعان، بدر الدين محمد بن يحيى بن شاكر . - رحلة قاتياي إلى بلاد الشام، ١٤٧٧م . تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري، جروس بريس، ١٩٨٤م .
- ٧- ابن حجة، تقي الدين الحموي . - ثمرات الأوراق في المحاضرات، مصر، المكتبة التجارية .
- ٨- ابن حوقل، أبي القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، بيروت، ١٩٧١م .

- ٩- ابن خرداذبه، أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله. -المسالك والممالك،
ليدن، ١٣٠٩هـ.
- ١٠- ابن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة، بيروت، ١٩٧٠م.
- ١١- ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، لندن ١٩٣٠م.
- ١٢- ابن منظور. - لسان العرب المحيط، بيروت، ١٩٧٢م.
- ١٣- أبو عساف، علي. -آثار المسالك القديمة في سورية (٨٥٠٠
-٥٣٥)ق.م، دمشق، ١٩٨٨م.
- ١٤- أبو الفرج، قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، كتاب الخراج وصناعة
الكتابة، لندن، ١٣٠٩هـ.
- ١٥- أبو النصر، عمر. -مكة والجزيرة العربية في العصور النبوية،
بيروت، ١٩٤٩.
- ١٦- أبو يعلى، محمد بن الحسين الفراء الحنبلي، الأحكام السلطانية،
مصر، ١٩٦٦م.
- ١٧- الأندلسي، بنيامين بن يونه التطلبي النباري. -رحلة بنيامين عام
(١١٦٥-١١٧٣)م، ترجمة/ عزرا حداد، بغداد، ١٩٤٩م.
- ١٨- الأندلسي، أبو عبيد الله البكري. -معجم ما استعجم من أسماء
البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، القاهرة، ١٩٤٥.
- ١٩- أوليفيه. -رحلة أوليفيه إلى العراق (١٧٩٤-١٧٩٦)م، ترجمة:
يوسف حجي، بغداد، ١٩٨٨م.
- ٢٠- إيمار أندريه. تاريخ الحضارات العام، بيروت، ١٩٨٦م.
- ٢١- الجرجور، توفيق. -الهجرة من الريف إلى المدن في القطر العربي
السوري، دمشق، ١٩٨٠م.

- ٢٢- حتي، فيليب. - تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، جورج حداد، بيروت، ١٩٥٩ م.
- ٢٣- الحموي، ياقوت. - معجم البلدان، بيروت، ١٩٧٠ م.
- ٢٤- الخالدي، طريف. - دراسات في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، بيروت، ١٩٧٩.
- ٢٥- خسرو، ناصر. - سفرنامه، ترجمة: يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥ م.
- ٢٦- الخوارزمي، أبو جعفر محمد بن موسى. - كتاب صورة الأرض، تحقيق: هانس مون مزيك، فيينا، ١٩٢٦ م.
- ٢٧- الخياط، جعفر. - القرية العراقية، دراسة في أحوالها وإصلاحها، بيروت ١٩٥٥ م.
- ٢٨- الدينوري، ابن قتيبة. - المعارف، صححه: محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، مصر، ١٩٣٤ م.
- ٢٩- ديورانت، ول. - قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، بيروت، ١٩٧٣ م.
- ٣٠- رايلي، كافيين. - الغرب والعالم، القسم الأول، ترجمة: عبد الوهاب المسيري، الكويت، ١٩٨٥ م.
- ٣١- رايلي، كافيين. - الغرب والعالم، القسم الثاني، ترجمة: عبد الوهاب المسيري، الكويت، ١٩٨٦ م.
- ٣٢- رضا، أحمد. - معجم متن اللغة، بيروت، ١٩٦٠ م.
- ٣٣- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني. - تاج العروس من جواهر القاموس، ج (٢٣)، الكويت، ١٩٨٥ م.

- ٣٤- بارو، اندريه . -ماري ، ترجمة : رباح نفاح، دمشق، ١٩٧٣ م.
- ٣٥- بازلي، قسطنطين . -سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة: طارق معصراني، موسكو، ١٩٨٩ م.
- ٣٦- باقر، طه . -مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، ١٩٥٦ م.
- ٣٧- برنال، جون دزيموند . -العلم في التاريخ، ترجمة: علي علي ناصيف، بيروت، ١٩٨١ م.
- ٣٨- بروكلمان، كارل . -تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: منير بعلبكي، بيروت، ١٩٧٨ م.
- ٣٩- بروفسكي، جاكوب . -ارتقاء الإنسان، ترجمة/ د. موفق شخاخيرو، الكويت، ١٩٨١ م.
- ٤٠- البلاذري، أبي الحسن -فتوح البلدان، مصر، ١٩٣٢ م.
- ٤١- بونغارد، ليغين . -الجديد حول الشرق القديم، ترجمة/ د. جابر أبي جابر، موسكو، ١٩٨٨ م.
- ٤٢- تافرنيه . -العراق في القرن السابق عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنيه، ترجمة: كوركيس عواد، بغداد، ١٩٤٤ م.
- ٤٣- ثابت، محمد . -جولة في ربوع الشرق الأدنى، مصر، ١٩٥٢ م.
- ٤٤- زكريا، أحمد وصفي . -الريف السوري في محافظة دمشق، دمشق، ١٩٥٧ م.
- ٤٥- زكريا، أحمد وصفي . -جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، دمشق، ١٩٣٤ م.
- ٤٦- زكريا، أحمد وصفي . -ذكريات عن وادي الفرات عام (١٩١٦م)، دير الزور، ١٩٦٦ م.

- ٤٧- الزمخشري، محمد بن عمر . - كتاب الأمكنة والمياه والجبال، تحقيق: ابراهيم السامرائي، بغداد، ١٩٦٨ م.
- ٤٨- الزيلعي . - تبين الحقائق في شرح كنز الدقائق، القاهرة، ١٣١٣ هـ.
- ٤٩- سليمان توفيق . - دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة، دمشق، ١٩٨٥ م.
- ٥٠- سون، ميجر . - رحلة متكر إلى بلاد ما بين النهرين وكرديستان، ترجمة: فؤاد جميل، بغداد، ١٩٧٠ م.
- ٥١- شعث، شوقي . - المسكن والمدفن في الوطن العربي، تونس، ١٩٨٧ م.
- ٥٢- شوقي، حسن . - آثار العمارة في أجداث سقاره، مطبعة السعادة، ١٩٢٢ م.
- ٥٣- عبده، سمير . - تريف المدينة العربية ومدنة الريف، دمشق، ١٩٨٩ م.
- ٥٤- عثمان، محمد عبد الستار . - المدينة الإسلامية، الكويت، ١٩٨٨ م.
- ٥٥- العطار، عماد عبد السلام . رؤوف . - الموصل في العهد العثماني، النجف، ١٩٧٥ م.
- ٥٦- علي، جواد . - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٧١ م.
- ٥٧- عياش، عبد القادر . - البيت في حياة العرب، دير الزور، ١٩٦٦ م.
- ٥٨- عياش، عبد القادر . - حضارة وادي الفرات، مدن فراتية، إعداد وليد مشوح: دمشق، ١٩٨٩ م.

- ٥٩- غولايف . -المدن الأولى ، ترجمة: طارق معصراني ، موسكو ، ١٩٨٩م .
- ٦٠- الفارابي ، أبو النصر . - كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ، حققه: ألبير نصري نادر ، بيروت ، ١٩٥٩م .
- ٦١- فارب ، بيتر . - بنو الإنسان ، ترجمة: زهير الكرمي ، الكويت ١٩٨٣م .
- ٦٢- القزويني ، زكريا بن محمد . - آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، ١٩٦٠م .
- ٦٣- كلينكل ، هورست . - آثار سورية القديمة ما قبل الإسلام ، ترجمة: قاسم طوير ، دمشق ، ١٩٨٥م .
- ٦٤- كوفان ، جاك . - الوحدة الحضارية في بلاد الشام ، ٩-٨ آلاف قبل الميلاد ، تعريب: قاسم طوير ، دمشق ، ١٩٨٤م .
- ٦٥- لسترنج ، كي . - بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة: كوركيس عواد ، بغداد ، ١٩٥٤م .
- ٦٦- ليبس ، يوليوس . - بدايات الثقافة الإنسانية في أصل الأشياء ، ترجمة: كامل إسماعيل ، دمشق ، ١٩٨٨م .
- ٦٧- متز ، آدم . - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريده ، القاهرة ، ١٩٤٨م .
- ٦٨- المدني ، إبراهيم بن عبد الرحمان الخياري . - تحفة الأدباء وسلوة الغرباء ، تحقيق: رجاء السامرائي ، بغداد ، ١٩٨٢م .
- ٦٩- منقذ ، أسامة بن . - المنازل والديارات ، بيروت ، ١٩٧٠م .
- ٧٠- المنوفي ، كمال . - الثقافة السياسية للفلاحين المصريين ، تحليل نظري ،

- ودراسة ميدانية في قرية مصرية، بيروت، ١٩٨٠م.
- ٧١- مهران، محمد بيومي . -دراسات في تاريخ العرب القديم،
السعودية، ١٩٨٠م.
- ٧٢- ميلارت، جيمس . -أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ترجمة:
محمد طلب، دمشق، ١٩٩٠م.
- ٧٣- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب . -نهاية الأرب في
فنون الأدب، القاهرة، ١٩٢٩م.

المجلات

- ١- الاجتهاد . - العدد السادس ، بيروت ، ١٩٩٠ م .
- ٢- الاجتهاد . - العدد السابع ، بيروت ، ١٩٩٠ م .
- ٣- الجوليات الأثرية . - مديرية الآثار والمتاحف بدمشق ، أعداد متفرقة .
- ٤- الثقافة العالمية . - العدد (٤٦) ، الكويت ، ١٩٨٩ م .
- ٥- الثقافة العالمية . - العدد (٤٩) ، الكويت ، ١٩٨٩ م .
- ٦- سومر . - المجلد (٣٩) ، بغداد ، ١٩٨٣ م .
- ٧- العلوم . - العدد (١٠) ، الكويت ، ١٩٨٩ م .
- ٨- العلم والتكنولوجيا : قناطر الشرق القديمة ، العدد (١٥) ، ١٩٨٩ م .
- ٩- العمران . - أعداد مختلفة ، وزارة البلديات «سابقاً» - دمشق .
- ١٠- الفكر العربي . - العدد (٣٠) ، بيروت ، ١٩٨٥ م .
- ١١- الفكر العربي . - العدد (٥٢) ، بيروت ، ١٩٨٨ م .
- ١٢- مجلة المشرق . - ١٩٥٥ م .
- ١٣- المهندس العربي . - أعداد مختلفة ، دمشق .
- ١٤- مجلة المعهد الفرنسي . - في دمشق ، ١٩٣٣ م .
- ١٥- الهندسة . - أعداد مختلفة ، باريس .

المراجع الأجنبية

1. The Neolithic of the Near East. James Mellaart, London, 1975.
- 2- Architecture of the Islamic world. Its History and Social Meaning. Ernst Grube, London, 1978.
3. The Rise of Civilizations. By David and Jaen Ontes Elsevier Publishing, Oxford, 1976.
4. Adventures in Arabia, by W.B. Seabrook, London, 1936.
5. In Aleppo once. Taqualtonyan, John Murray, London, 1969.

الفهرس

الصفحة

٣	الفصل الأول : الأصول العمرانية لشمالى سوريا
٢٣	الفصل الثانى : بدايات العمارة الريفية فى شمال سوريا
٣٧	الفصل الثالث : تطور العمارة الريفية وتوزعها فى الشرق الأدنى
٥٥	الفصل الرابع : موقع عمارة الريف فى الحضارة الإسلامية
٦٩	الفصل الخامس : مكانة القرية فى المجتمع الإسلامى
٨٣	الفصل السادس : القرى لدى الرحالة والبلدانيين
٩٧	الفصل السابع : القرية فى العصر الحديث
١٠٥	الفصل الثامن : قرى مناطق شرقى حلب
١٤٣	الفصل التاسع : قرى منبج وجرابلس
١٦٧	الفصل العاشر : قرى الجزيرة : عين العرب ومحافظة الحسكة
١٨٦	الفصل الحادى عشر : الهجرة من الريف ودوره فى تردي عمارة الطين
١٩٧	المراجع العربية
٢٠٤	المجلات
٢٠٥	المراجع الأجنبية

الطبعة الأولى / ٢٠٠٢

عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة



أبو عبدو البغل

<https://facebook.com/groups/abuab/>

كتاب يستعرض المعطيات التاريخية حول
تشكل أول التجمعات البشرية المنظمة
في سورية والأطر الهندسية التي عاشت
فيها المجتمعات البشرية الأولى. ويتناول
الكتاب جدلية مفهومي القرية والمدينة،
وتطور العمران الريفي عبر مختلف العصور
وخاصة في سورية. كما يتطرق إلى المنظور
الإسلامي للعمران الريفي وموقع القرية
في الحضارة العربية الإسلامية هندسياً وحضارياً.
ويتم التركيز في الكتاب على بدايات
العمارة الريفية في شمال سورية وكذلك
تطورها وتوزعها في الشرق الأدنى وصولاً
إلى القرية في العصر الحديث. وخاصة
القرى الطينية في مناطق شرق حلب
ومنبج وجرابلس والجزيرة حيث تم
توثيقها بالصور والمخططات.

والمهندس آزاد أحمد علي يستعرض
الفرضيات والأفكار المطروحة حول كل نقطة
ويرجع ما يراه الأصوب. وقد أغنى الدراسة
بالصور والمخططات التوضيحية.



في الأقطار العربية ما يعادل ٢٢٠ ل.س

سعر النسخة داخل القطر ١١٠ ل.س